سحر خليفة

الصبّار

رواية

الصبّار

سحر خليفة

منشــورات جاليليــو

كانــون أول ١٩٧٦

مطبعة الشرق التعاونية

القــــدس

الاهـــــداء ••

الـــى أبو العز وكــل أبـــــو عــز •

سحــر خليفـــه

المقدمة

... ((يكاد الادب الفلسطيني أن يكون خلوا من الرواية المتكاملة فنيا ، الملتزمة فكريا ، اذ لم ينتج في هذا المضمار الا رواية اميل حبيبي ((الوقائع الغريبة في قصة اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل)) التي تتمتع بمواصفات وزخامة الرواية الحديثة المتطورة . وباستطاعتنا أن نعتبر ((الصبار)) ، الرواية الفلسطينية الثانية التي تتمتع بهذه المزايا والامكانيات . ((فالصبار)) هي دراسة دقيقة وتشريح مؤلم لاوضاع الفلسطينيين تحت الاحتلال ، في الفترة الواقعة ما بين الحربين ، حرب حزيران وحرب تشرين . ومثل اميل حبيبي ، تتميز ((سحر خليفة)) بالقدرة والشجاعة على رؤية الاشياء كما هي ، وبنقل الحقائق معراة امام القارىء دونما تلفيق أو تزويق .

من خلال ((الصبار)) ينتقل القارىء الى لب المأساة التي يعيشها العامل العربي الذي اضطر للعمل في اسرائيل ، كبديل عن الهجرة الى الخارج حيث يتمكن من العيش في ظروف اقل قمعا وادانة . ومن جهة أخرى ، تتغلغل الكاتبة في عقول وافئدة أولئك الذين وجهوا الادانات للعمال ، ومارسوا عليهم الوانا من الضغط والارهاب كان أحدها القاء المتفجرات على الباصات التي تقلهم الى أماكن عملهم في اسرائيل . ووسط هذا التناقض المعقد تتكشف الحقائق ، وتسلط الاضواء على مفاهيم وطنية جديدة تختلف كليا عن

المفاهيم الكلاسيكية المألوفة التي تعتمد على استثارة العواطف الساذجة وتسجيل المواقف المفتعلة .

وفي المشاهد التي تسجل تجربة الاعتقال ، نرى الشباب الصامدين يعايشون التجربة بعناد وصبر . بوعي يتثقفون ويثقفون ، وبهدوء يخططون وينظمون ، وبجلد ينضبطون ، متحملين في سبيل ذلك ظروفا قاسية لا تحتمل ، ظروفا تشبه طريقة التعذيب الصينية بالماء .

الرواية محبوكة بحذق ومهارة ، اذ استطاعت سحر خليفة تسخير احدث العناصر التكنيكية المتطورة لخدمة القضايا الثورية التي تطرحها عبر الرواية ، فقد أجادت استخدام العوامل الزمنية والمكانية ، خصوصا في اللقطات المتازمة التي يلعب فيها تيار الوعي دورا أساسيا وحيويا .

وشخصيات « الصبار » تضج بالحياة ، فمن خلال تحركاتهم نتابع تطور الحياة بمنهاجها الديناميكي المتدفق ، ومن خلال احاديثهم نتفهم طبيعة التناقضات التي تتنازعهم ، ومن خلال اللهجة الاصيلة في واقعيتها ومحليتها ننتقل الى الاحياء الشعبية والازقة المظلمة في نابلس القديمة ، فنسمع ما نقرأ ونلمس ما نتخيل .

ولم تتوان سحر خليفة عن استخدام الالفاظ العامية المتداولة والاصطلاحات والشتائم السوقية ، متعمدة بذلك نقل الاجواء الشعبية بامانة للقارىء ، هذه الاجواء التي واظب الادب البرجوازي على تجاهلها والترفع عنها . وبذلك ، فقد نجحت « الصبار » في أن تواكب الثورتين معا ، الثورة الفكرية والثورة الفنية .

لقد برهنت سحر خليفة على أنها تعي أبعاد مأساة الاحتلال بعمق ونفاذ بصيرة ، فجاءت روايتها رصدا أمينا

واجلالا حقا لألوف البــطولات المجيــدة المجهولة في الارض الفلسطينية • ومن خلال هذه البطولات وما تفرزه من بساطة وتواضع تتساقط كــل الادعاءات الكلاسيكية لمفهوم الوطنية الحقيقي •

اذا قدر ((للصبار)) أن تنتشر ، فستحقق ثورة في الادب الفلسطيني الحديث ، وستتحدى كل التعميمات السطحية التي استنبطت عن الحياة في ظل الاحتلال من قبل أولئك الذين لم يعيشوا تجربته الواقعية المريرة •))

حنــان ميخائيل عشــراوي
جامعــة بير زيت

من دراسة ((الادب الفلسطيني تحت الاحتلال))
التي قدمت في المؤتمر التاسع للخريجين العرب في أمريكا • تشرين أول ١٩٧٦

(١)

غمرته غمامات الصنوبر في مرتفعات العارضة الجبلية بعبيــر ذكره بما ينتظره وراء الجسر . صنوبــر جرزيم ، صنوبر الطور ، صنوبر رام الله . صنوبر وصبار ولوز وعنب ، والتين ، والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الامين . وهذا البلد الذي لم يكن أمينا في يوم من الايام . بل ربما كان كذلك . بلد السمن والعسل . أرض الميعاد .

مــا زال يذكر الرسم جيدا . شاهــده على احــدى السيارات في القدس . كان ذلك بعد الاحتلال ببضعة أشهر . توقف أمام السيارة الحمراء وتملى الرسم الغريب . رجلان يحملان قطفا من العنب معلقا على غصن عار كما تعلق الخراف الذبيحة . وكان القطف بحجم الخروف ، والحبة منه بحجم الكهربة . كهارب يا عنب ، أصابع البوبو يا خيار . بلاد السمن والعسل ، ارض الميعاد !

والغمامات الخضر تتلاحق أمام ناظريه بينما كانت الاغنية الحزينة ترتعش . والصوت ينادي كما لو كان منطلقا من قعر الوادي السحيق . ليالي الشمال الحزينة ...

لماذا توجعنا الاغاني الجريحة ؟ الاننا شعب رومانسي النزعة ؟ ولم يكن هو رومانسيا . لم يعد كذلك ، أو هكذا بات يعتقد . كيف توصل الى هذي النتيجة ؟ تدريب . طلقات . زحف على البطون . شد البطون . ويصبح الانسان لا رومانسي الفعل والمنطق . وتتلاشى الاحلام الفردية ، ويصبح الفرد طلقة في عداد طلقات . وقد تدعكه التجارب أكثر فيصبح صاروخا . صاروخا موجها . هذا هو المنطق . قالوا أشياء كثيرة ، قلنا أشياء كثيرة . أشياء منطقية ، معادلات تاريخية تفرض نفسها على وجود الفرد فيصبح

رقما في معادلة . رقما . أرقاما . وتتشكل المعادلة بشكل علمي ، واقعي ، ملموس . وتسقط الرومانسية ، وتموت الاحلام الرهيفة ، ويموت الشعر . يموت الشعر ، يموت الهوى ، ويصبح كل شيء حلقة في سلسلة القضية .

ليالي الشمال الحزينـــــة ....

ولكن ! تظـــــل الكلمات تحفر أخاديد عميقة في القلـــب الحساس المتوحد .

والسيارة تنزلق بنعومة على المنحدرات الاسفلتية . والريح تعبث بكوفية السائق فتلوحها كالشراع وتردهـــا للخلف . وتمتد يد السائق فتشد الكوفية ، تتسلل نحـــو الراديو وتغير المحطة . صوت العرب ، اذاعة الشـــرق الاوسط ، هنا لندن ، صوت منظمة التحرير الفلسطينية والاذاعة الاسرائيلية من اورشليم القدس ، اخواني ، يـــا أهل مصر الطيبين . وقذف السائق شتيمة غير محترمة ، وتساءل وهو ينظر في المرآة وهو يصوب نظرة في عيني أسامة .

ـــ الله يكون في عونكم ، كيف تستطيعون النظـــر في وجوههم ؟ يتكلمون العربية أولاد الحرام ، يتكلمونها كأبنائهـــا .

ـــ كانوا ابناءهـــا .

وعاد الصمت الى مكانه ، ومن خلف الزجاج كانت أشعة الشمس تنتشر على بطون الجبال . بطون زنجيات شققتها أشهر الحمل الاخيرة . والممرات الجبلية تتلوى بحركات ثعبانية ، والسيارة تسيل على المنحنى . والابخرة تتصاعد من الارض المخملية في الغيران . والعبير الربيعي ينقله الى أجواء ما وراء الجسر .

رجل له كرش ضخم وأوداج منفوخة يمد يده بساعة ثمينـــة .

ـ أحضرت هذه من الكويت . أبنائي يعيشون هناك كالملوك . مال ووجاهة وسيارات آخر موديل . اللهم أدمها من نعمة . وهذه أحضرتها لابني خالد هدية من أخيه الاكبر محمد . الداعي أبو محمد .

ـ تشرفنا يا ابو محمد .

ـ محمد يعمل في الكويت منذ الهجرة الاولى ، وبعد الهجرة الثانية تبعه صالح . ولم يبق في جنين الا زينب وحفصه وهدية وخالد . آخر العنقود خالد . لم يتعبني من بين الستة الا خالد . خرج من السجن بكفالة . عذبوه في كل شبر من جسمه حتى في تلك المنطقة . أطلقوا عليه كلبا مزق أعضاءه . قد يصبح عاقرا .

ـ عقيمـــا .

ـ نعم عقيما . لا تسخر مني فأنا لست جامعيا كما ترى .

ـ فيك الخير والبركة يا أبو محمد .

ـ الله يبارك فيك . اخوته أصبحوا أصحاب جاه ومال ووجاهة . وبقي هو صايع ضايع بلا نفع وبلا قيمة . يعمل معي في الدكان . أحاول الاستفادة منه ، لكنه ولد لعوب . أفقده فلا الاقيه . أدور المدينة أبحث عنه كل ليلة قبل المغيب وأحيانا أجده وأحيانا لا أجده . ابن الحرام لم يتعلم . ما زالت آثار التعذيب في جسمه ، لكنـه لم يتعلم ، ويا خوفي يعمل عمله وينسفوا الدار .

أطلق السائق نفيرا مفاجئا ، فاستفاق أبو محمد وكف عن الحديث فجأة ، وخبأ الساعة في جيب معطفه الضخم وهو يتلفت حواليه بارتياب وقلق . ولم يفتح أي من الركاب فمه الا حين أطلت مستنبتات الخضار في الاغوار . وعاد أبو محمد يتساءل :

ـ أتعتقدون بأنهم سيجمركون الساعة ؟
ـ البسها بيدك .
ـ صدقت ، ولكن ماذا افعل بالاقمشة ، سيجمركونها أيضـــا ؟

ولم يجبه احد . كان كل واحد يفكر بما سيلاقيه على الجسر . تفتيش وتدقيق وجمرك ... وتحقيق اذا اقتضى الامر . وآلات كهربائية تصدر صفيرا متواصلا . وفي العلب الخشبية يخلع المرء ثيابه قطعة قطعة ، والحذاء والحقيبة يعرضان لاجهزة كهربائية كاشفة .

وتنهد ابو محمد وبدأ يقرأ الصمديـــة ، ثم استدار وتســـاءل :

ـ وانت مـــاذا تعمـــــل ؟
ـ لا شيء .
ـ من اين تاكل ؟
ـ من عرق نزفته في دول البترول . ولكني لم أوفق .
ـ التوفيق من عند الله يا ابني . اذن فانت مثل خالد .

نعم مثل خالد . بلا جاه ، بل مال وبلا جاهة . وقد أتسبب في نسف دار . أو دور . وباص ومكتب . أنا مثل خالد ، أو خالد مثلي . وامي تنتظرني هناك ، وستحشوني بالطبيخ بمجرد ان تطأ قدماي عتبة بيتها . ورائحة الطبيخ . ورائحة قوار النسيم ، وسجادة الصلاة وحب الكارب . وبسملات الصبح ونجوم الفجر ما زالت تلمع . ونقلته احلامه الى ما وراء الجسر . الى اللوحات السماوية المفروشة على امتداد الوهاد والوديان . الفارعة ، ووادي البادان ، والشلال الصغير المتدفق على صناديق الكازوز في الوادي الاخضر . واكياس النايلون المليئة باللوز مكدسة على البسطة أمام الشلال تحت اشجار الجوز الباسقة .

متى تتوقف هذه الاحاسيس المخملية وقد رافقتني طوال

عمري ! وهذه الاشواق المستمرة للمجهول ، وهذه اللمسة الحزينة التي تعمر القلب حين أسمع اغنية أو أشم زهرة . وساعة الغروب وما يصاحبها من طيران روحي لا حد لمداه . وهذه الارض الربيعية وترابها المشبع بالخير والبركة ، وما تشيعـــه في النفس من أرهاف وحنيه !

رومانسية ؟ لا ، ليست كذلك . تدريب . طلقات . زحف على البطون . ويصبح الانسان لا رومانسي الفعل والمنطق . هذا هو المنطق . هذه هي المعادلة .

(٢)

ــ قــف !

قال الجندي الجالس على الكرسي أمام الممر الخشبي . فوقف . وبدأ قلبه ينقر ببطء .

ــ افتح الشــنطـــة .

ومد الاسرائيلي يده وأخذ يعبث بمحتوياتها .

ــ ما هذا ؟

ــ ليبريـــوم .

ــ آه ، انتم مغرمون بهذا .

تململ القلب بكآبة . وابتدأ صفير الالة الكهربائية . اشتدت عضلات جسمه تلقائيا ، وابتدأت أولى عمليات الدفاع عن النفس اللاارادية .

ــ قف هنا ، اجلس هنا . قف أمام شباك لم الشمل . من لم شملك ؟ أمك ؟ حسنا ، اقترب . ادخل هنا . اخلع ثيابك . اشلح ، اشلح . اشلح كله ، كله . والحــــذاء .

وامتد سيخ طويل داخل الكعب فانفلق . اتسعت العينان وتسارع التنفس لكنه عاد وهمد . ما هذا الدفتر ، هاته سنرى ان كان فارغا حقا . الاحماض ستكشف هذا . اجلس هنا على البنك . اسامه الكرمي . أسامه الكرمي . مــن اسامه الكرمي ؟ آ ، انا اسامة . انت اسامه ؟ ولم لا تجيب ؟ كنت في المرحاض ؟ وكيف وجدته ؟ قذر كالعادة . عرافيم . نبني مراحيض كالفل فيملأونها بالخرا .

خرا هنا وخرا هناك وخرا في كله . وانت يا ست ، هاتي

السلسلة ولا تخبئيها في صدرك . ذهب ممنوع . وانت يا سيد ما هذا ؟ ساعة ؟ لمن ؟ لامك ؟ دع أمك تشفع وقت الدفع . عالجمرك . وماذا ايضا ؟ قماشة لامك ؟ آه سعيدة الحظ أمك ، أموال السعودية والكويت بين يديها . تصلون ابار البترول وتعودون هنا ؟ ماذا يعجبكم هنا ؟ انتم لا تقدرون النعمة ، لكننا نقدرها ، سنوات قليلة ونكون هناك وتدخلون الكعبة بتصريح . ملبس وشوكولاته ممنوع ، ممنوع حبيبي ، ممنوع يا روحي ، ممنوع ، ممنوع . قانون يا أدون * عرافيم يعرف قانون ! ادخل هناك للتحقيق .

وقطع الممر . وفجأة ارتفع صياح فتاة ما . ومر تحت النافذة الصغيرة المرتفعة ، وسمع دوي صفعات متلاحقة . وقف الشعر في رأسه ، وتوقف عن المشي وقد تصلبت ساقاه . وكانت تصيح : يا كلاب ، يا كلاب ، يا كلاب . آي .

مر به جندي من أصل عراقي قصير ذو شاربين أسودين ولحية كثة ، يحمل بندقية طويلة في أعلاها سنجة تلمع . ابتسم بأدب وقال :

ــ امشي يا حبيبي ما تخاف . دورك هناك .

ونظر نحو النافذة العلوية الصغيرة

ــ بنت حلوة مثل التمر بس قحبه . تحت الباروكا لقينا شيفره . امشي ما تخاف عيني . امشي يا الله .

وتلاحقت الصفعات ، ودوى فرقعات جلدية متتالية . أعماقه تنزف ، وشعر جسده المتوثب ينخز كالابر . وتجلل العالم بالضباب والدخان . وسكت الصياح فجأة ، واتسعت اذناه بتحفز . وصاح الجندي بحدة وقد تلاشى الادب .

ــ امشي ، روح هناك يا الله .

---

* كلمة عبرية تعني سيد .

ومشى وركبتاه تصطكان ، ومعدته تخبط .

كان بولنديا من لكنته . له شاربان أشقران وجثة ضخمة تطاول سقف الكوخ الخشبي . وارتفع في الخارج صوت « بلدوزر » . كان مزعجا للغاية . وصاح البولندي من خلال ترقعة البلدوزر :

— ما اسمك ؟

— اسامه الكرمي .

— عمرك ؟

— ٢٧ .

— اين كنت ؟

— في عمان .

— وقبل ذلك ؟

— في دول البترول .

— ماذا كنت تعمل ؟

— موظف .

— وما نوع الوظيفة ؟

— مترجم .

— آه ، ولهذا تجيد الانجليزية .

— .....

— ماذا قلت ؟ ارفع صوتك .

— لا شيء .

— ماذا كنت تترجم ؟

— أعمال الشركة ومراسلاتها .

— شركة أم اذاعة أم حكومة ؟

— شركة .

— وماذا كنت تترجم ؟

— بوالص تامين .

— آه . هذا الدفتر لك ؟

— نعـــم .
— اسم من هذا ؟ عنوان من هذا ؟
— اسم وعنوان البقال الذي تشتري أمي منه الخضرة .
— مـا اسمـه ؟
— اسمه امامـك .
— الحـاج عبد اللـه مبارك ، بقالـة الوفاء ، جـادة السعـادة .
— ولماذا تحمـل العنـوان ؟
— كي يدلني على منزل امي .
— لا تعـرف منزل امـك ؟
— لا .
— لا تعـرف منزل امـك ؟
— لا .
— كيف لا تعـرف منزل أمـك ؟
— لا اعرفـه .
— كيـف ؟
— غادرت الى دول البترول منذ خمس سنوات . بعد الاحتلال بثلاثة اشهر . كنا نسكن طولكرم ، ومات الوالد فانتقلت امي الى نابلس .
— ولماذا انتقلت أمك الى شخيم ؟
— تعجبها نابلس .
— ولماذا تعجبها شخيم ؟
— نابلس تعجبها لانها مليئة بالاقارب .
— ولماذا عدت من دول البترول الى شخيم ؟
— عدت الى نابلس لان الوالد مات .
— مـن مـات ؟
— الوالـد مـات .
— متى مات ؟ ارفـع صوتـك .

ـ قبـل سنتيـن .
ـ ولماذا عـدت الان وليس قبل سنتين ؟ ارفـع صوتك .
ـ كنت بانتظار لم الشمل .
وتوقف صوت البولدوزر ، استراحت أسارير البولندي وعاد يسأل وهو ما زال واقفا وراء الطاولة الصغيرة وكوب برتقال في يده .
ـ وماذا ستعمـل في شخيم ؟
ـ سأبحث في نابلس عن وظيفة .
وارتفع صوت الصراخ ثانية ، وبدأت الفتاة تشهق والجندية الاسرائيلية تصيح .
ـ افتخ رجليك ، افتخ رجليك ، لازم أشوف جوه ، لازم أشوف جوه ، افتخ رجليك .
وتلاحقـت الفرقعـات . يـا كـلاب يـا كـلاب ، يا كـلاب ... آ ... آ .. آ ..
ونزل حاجبا الضابط نحو أنفه . ومسح شاربه الاشقر وعاد يسأل .
ـ وماذا فعلت خلال تلك المدة ؟
تماسك قليلا . وأجاب باعياء :
ـ كنت أعمل في شركة تأمين . هذه أوراقي .
ـ وأين ذهبت خلال السنوات الخمس ؟ هل ذهبت الى الجزائـر ؟
ـ نعـم .
ـ ولماذا ذهبت الى الجزائـر ؟
ـ وتجمركـون الجزائر أيضا ؟
ـ مـاذا قلت ؟
ـ لا شـيء .
ـ ماذا فعلت في الجزائـر ؟

ـ لا شـــــيء .
ـ تصل الجزائر ولا تفعل شيئا ؟
ـ تفرجت على الجزائر .
ـ ومـــاذا أيضـــا ؟
ـ لا شـــــيء .
وتبادل الاثنان نظرة طويلة غير مجدية .
ـ وأين ذهبت أيضا ؟ الى سوريا ؟
ـ نعـــــم .
ـ وكم مكثت في سوريـــا ؟
ـ ٣ أشهـــــر .
ـ وماذا كنت تعمـــل هنـــــاك ؟
ـ بدأت التحضيـــر للماجستيــــر .
ـ لماذا لـــم تكمـــــل ؟
ـ سأكمـــل فيما بعـــــد .
ـ آم ـ وتقول كنت تعمل بالترجمة .
ـ نعـــــم .
ـ وكيف تركت عملك لمدة ثلاثة أشهر ؟
ـ طردونـــــي .
ـ لـــماذا طـــــردوك ؟
ـ لا أعـــــرف .
ـ لا تعـــــرف !
وارتفع صوت البلدوزر ثانية .
ـ ارفـع صوتك ، لماذا طـــردوك ؟
وبدأ صدغاه ينقران ، والضغط يزيد ، وملزمة تعتصر دماغـــه .
ـ لماذا طـــــردوك ؟
صـــــاح بغضـــب :

ـ لانني فلسطينـــــي .
ـ قلت لك ارفع صوتك . لماذا طــردوك ؟
ـ لانني فلسطيني ... فلسطيييني ..
ـ قــل غير هـــذا .
ـ كانت التهمـــة الوحيــدة .
ـ الم يطردوك لانك ذهبت الى سوريا لمدة ٣ اشهر
ـ لا . انا ذهبت الى سوريا بعد أن طردوني .
ـ وذهبت اليها قبل أن يطردوك .
ـ نعـــم .
ـ متـــى ؟
ـ قبـــل سنتيـــن .
ـ لمـــاذا ذهبـــت ؟
ـ رايت امـــي .
ـ تقول بأن والدك مات قبل سنتين .
ـ جاءت بعد وفاته الى سوريا كي تراني .
ـ كنت في سوريـــا اذن ؟
ـ لا . كنت في دول البترول . أبرقت لي فذهبت اليها
ـ ولماذا سوريا بالـــذات ؟
ـ عنـــد خالـــي .
ـ ومـــاذا يعمـــل خالـــك ؟
ـ لديـــه مصنع سكاكر .
ـ امـــك سوريـــة ؟
ـ لا ، فلسطينية ، وخالي كذلك ، وانا كذلك .
ـ ولماذا سوريا بالذات ؟
ـ عندما هاجر خالي من يافا استوطن سوريا .
ـ آم ـ وكم مكثت في سوريا ؟
ـ شهريـــن .

ـ وعملك ؟
ـ أخذت اجازة .
ـ شهرين ؟
ـ عن سنتين .
ـ وماذا عملت في الشهرين ؟
ـ واسيت أمي وطلبت منها ان تلم شملي .
ـ ولماذا طلبت منها أن تلم شملك ؟
ـ .....
ـ لماذا طلبت منها أن تلم شملك ؟ الا تعجبك دول البترول ؟
ـ لا .
ـ ولا امراء البترول ؟
ـ لا .
ـ ومن يعجبك اذن ؟ عرفات ؟ حبش ؟
ـ .....
ـ من يعجبك ؟
ـ موشى ديان .
ابتسامة هازئة .
ـ يعجبك موشي ديان ؟ لماذا يعجبك موشي ديان ؟
ـ لانه رجل حرب .
ـ وهل تحب الحرب ؟
ـ وهل تحبها انت ؟
ـ اجب أسئلتي ولا تخرج عن الموضوع . اذن قضيت في سوريا ٦ أشهر .
ـ خمسة .
ـ ومن رأيت هناك ؟
ـ رأيت الناس .

وابتسم باعياء . فتلقى نظرة تحذير من العينين الزرقاوين .

وعاد صياح الفتاة ثانيـة ، واختلط بصوت البلدوزر وصياح الجندية . ومشى اسامة بسرعة وكان احدهم يتبعه بعصا . لكنه عاد وتوقف . خائف ؟ لا ، لست خائفا . لماذا اسرعت الخطو اذن ؟ ردة فعل طبيعية لا اكثر .

وجلس على البنك الخشبي الطويل . وبدات عيناه تجولان في انحاء القاعة الخشبية الضخمة . وكان النـاس يجلسون في صفوف طويلة متشابهة . كل يحمل نمرته بيده . والجنود يقفون وراء طاولات تتكدس عليها حوائج الناس وثيابهـم .

اسامة الكرمي ، من اسامة الكرمي ، تعال انتظر هنا . مزراحي سيحقق معك . وبدات الاسطوانة من جديد .

— ايـن كنـت ؟
— فـي عمـان .
— وقبـل عمـان ؟
— في دول البتـرول .
— ماذا كنت تعمـل في دول البترول ؟
— شركة تأمين . مات الوالد . خالي فلسطيني . وأمي فلسطينية . وانا كذلك . طردت بدون تهمة . كنا ١٦٠ فلسطينيا ، سفرونا في ليلة واحدة . سحبوني من فراشي . لبست الجاكيت فوق البيجاما والقوا بي في اول طائرة مغادرة الى لشبونة ومن هناك ركبت الطائرة الى بيروت ثم دمشق . مكثت هناك ٣ اشهر . بدات التحضير للماجستير . اهذا ممنوع ؟ جمركتم الجزائر وجاء دور الماجستير .

— اجلس هناك وانتظر كابتن موشي .

— وكم مرة سأعيد عليكم قصتي ؟ هذا عنوان البقال . نعم اسمه الحاج عبد الله مبارك بقالة الوفاء شارع السعادة . انا وحيدها وهل في ذلك جرما ؟

انتهيتم مني ؟ استراح بالكم ؟ حسنا سنرى . سأريح بالكم اكثر مما تتصورون . ورقة الجمرك ، أين أذهب ؟

ووقف في صف طويل أمام الشباك . كانت امرأة سمينة تضع منديلا أسود على وجهها تبكي وتولول أمام الشباك .

— عشرة دنانيـــر ؟ حرام عليك ؟

رفع الجندي راسه عن الدفتر وقال وهو يمد يـــده بالورقة من خلال قضبان النافذة ويلوح بها :

— اقترضـــــــي .

— من مين ؟ انا لا اعرف احدا هنا .

وبدأت تبكي ثانية وتصفق يدا بيد وكأن الدنيا قـــد انخسفت . وقال الجندي ببرود :

— دبــــري حالـــك .

— حرام عليك يا افنـــدي .

افندي ، افندي ! وكادت يد صاحبنا أن تمتد لتصفع الرأس المغطى بالسواد . كيف تتولين هذا ؟ ولم البكاء يا امرأة ؟ عشرة دنانير لا تساوي دمعة واحدة أمام شبـــاك جماركهم . وفري مجهوداتك لما بعد النكبة والنكســة ، وفريها للوكسة طالما ظل امثالك بيننا .

— حرام عليك يا افندي .

— لا حـــرام ولا حلال ، هاتي ١٠ دنانير وخذي حوائجك .

— كلهم شوية فانيلات وبيجامات للاولاد وثمنهم مـــا يسواش عشرة دنانير .

— عشرة دنانيـــر .

— طيب خذ الحوائج وريحني .

ـ لا ، لن ترتاحي الا بعد الدفع . اقترضي .

ـ يا أفندي ، خذ خمسة دنانير ، هي كل ما معي ، وخليني امشي .

ـ لا عشرة . يا الله يا ست ، خلينا نشتغل .

وهمهم رجلان تبرعا بالتوسط لحل المشكلة :

ـ دعها تأخذ حوائجها يا افندينا ، المسامح كريم .

المسامح كريم ! افندينا ! وتقولونها بملء افواهكم ، يا شعب ، يا شعب ، يا شعب .

وتناهى صوت الفتاة من غرفة التحقيق ، ضعيفا ، شاحبا ، بعيدا ، لكنه ما زال مسموعا ... يا كلاب ...

وهمس أبو محمـــد في أذنه :

ـ سيجمركونها ، وكذلك الاقمشة . لو كنت أعرف ما حملت هدية واحدة . يسرقوننا أولاد الشرموطـــة ، يمصون دمنا ليجعلوا حياتنا جحيما فنهاجر .

ـ انتظرت لم الشمل طوال سنتين ، وانتظرت كمـــا انتظر ليلة عرسي .

ـ لكن الحياة ما عادت تطاق في الداخل .

ـ انتظرت لم الشمل كما أنتظر ليلة عرسي .

ـ تذكرني بخالد . من بين الستة لم يتعبني الا خالد .

هات ، خذ ، هات ، خذ . عشرة دنانير ، ٢٠ دينارا ، ١٥ دينارا ، يا الله خلينا نشتغل . وانتي يا عروس هاتي خمسين دينار . انا مش افندي يا ست . اسمي باروخ . ناديني باروخ حاف بدون افندي . عشرة دنانير احسن من عشرة افندية . انت يا أفندي هات خمسة دنانير .

وتلقفت يد سائق ما حقيبته والقت بها داخل صنـــدوق مرسيدس سوداء ذات سبعة مقاعد . وعاد السائق يجلس في الظل بانتظار امتلاء السيارة .

لاول مرة يدخل الضفة بعد غياب سنوات خمس . وكان اللقاء غير ما صوره خياله وأبدع في تزويقه وتنسيقه . كان يحس بأن الضفة قد باتت بحجم القمقم ، وان روحه التي ما فتئت تهيم في سموات الشوق والحنان قد سقطت من سابع سما . وبالرغم من خيالاته العاشقة المحمومة التي عايشها طوال سنوات طويلة جديبة محرومة ، وأحلامه التي تنقله كل ليلة الى الجسر وما وراء الجسر . والى اللوحات السماوية المفروشة على امتداد الوهاد والوديان . والشلال الصغير المتدفق على صناديق الكازوزة في الوادي الاخضر . وأكياس النايلون المليئة باللوز مكدسة على البسطة أمام الشلال تحت أشجار الجوز الباسقة . كل ذلك قد انمحى . ولم يبق في ذاكرته الا هلوسات وكلمات تتردد بأطناب ورتابة .. البترول . سوريا . ماجستير . الوالد مات . لم الشمل . بقالة الوفاء . لشبونة . المسامح كريم . يا كلاب . يا كلاب . يا كلاب .

وتلفت حواليه وهو يمتطي السيارة . كانت الجنة تحت اقدامه وأمام عينيه . لكنه بات سجين القمقم .

(٣)

تكدست اوراق الخبيزة على الارصفة الرملية ملقية ظلالا مخملية على الارض العفراء . وامام البركسات الضخمة المخصصة لدخول الارض المحتلة ، كانت التربة تفتقر حتى لاقصر النباتات قامة . كانت الايــدي الخبيرة قد جردتها من اغطية الربيع خوفا من اندساس ما ليس مرغوبا فيه . وخوفا من تسلل مخلوقات تسعى للاطاحة بأمن الدولة .

عند الرقعة المحاطة بالسياج اطل جندي من كوخ خشبي صغير . مد يده المغلفة بالوبر والنمش . كور أجفانه المحفوفة برموش قصيرة حمراء وتثاءب .

ــ تصريـــــخ .

ومشت السيارة في بادىء الامر ببطء . ثم أخذت تنهب الارض بجنـــون . وشباك صغير في المقدمة يصـــدر صفيرا مزعجا لم يفطن لازعاجه أحد . والكل غارق في ملكوت صمته . مد أبو محمد يده بعلبة « كنت »

ــ تفضــــــل .

ــ شكرا . لا ادخن سجائر امبريالية .

ـــ هذا «كنت» سلامة نظرك . خذ واحدة تكسبها . أخذوا الكروسين اخـــوات الشرموطـــة وتركوا لي هذه العلبة بعد أن كسروا من الـــ ٢٠ سيجارة ١٧ . خافوا أن تكون محشوة بغير التنباك . خذها . واحدة لي وواحدة لك وواحدة لخالد .

تساءل بدهشـــــة :

ـــ خالد يدخن سجائر أمريكية ؟

ـــ واسرائيلية كمان . خذ . نفخ . نفخ . علبة العالية صارت بـــ ٢٣ بعد ما كانت بـــ ١٢ .

قال السائق بدون استئذان وقد كان يرهف السمع للوراء كعادة السواقين عموما .

ـــ اتعرف كم تكلفة علبة العالية على الشركة ؟ ٦ قروش يا خال . والـــ ١٧ قرشا هي تكلفة الحماية . نحن ندفع وهم يشترون السلاح ليحمونا به . ابشر يا خـــال !

هز أبو محمد رقبته الغليظة موافقا وعقب :

ـــ وانا حاليا ادخن « العال » .

تساءل أسامة بفـــزع :

ـــ سجائر اسرائيلية ؟!

ـــ وآكل ارزا اسرائيليا وطحينا اسرائيليا وسكـــرا اسرائيليا . البضائع تفقد جنسياتها بمجرد وصولها ايـــلات . ونحن ندفع ثمن البضائـــع مرتين . مرة للجنسية الاصلية ومرة للجنسية الجديدة .

ـــ وتدفعـــون ؟!!

ضرب السائق المقود بانفعال :

ـــ ندفـــع الملعونـــة واختها .

حملق اسامة في المرآة الصغيرة المعلقة أمام السائق . اخذ يتملى في عيني الرجل البليدتيـن بحنق .. ماذا حـدث لهـؤلاء الناس ؟ أهذا ما فعلـه بهم الاحتلال ؟ أين روح المقاومة ؟ اين الصمود ؟

وصـاح فجاة كمن يتقيأ :

ـ وايـن الصمـود ؟

قهقه السائق بسخريـة

ـ للذين قبضوا ثمنه .

والقى نكتة بايخة لم يضحك لها سواه

ـ سمعت ولدا يردد وهو يقف على صندوق خشبي ويدخن سيجارة : انا صامد صامد ، على بوكسة حامض . هعهعهعهع .

استشاط أحد الركاب غضبا . وبدأ خطبة وجدانية تهتز لها أضلع ذوي الشانات في مؤتمرات العواصم العربية . واخذ يردد كليشيهات محفوظة كان وقعها يوقف شعر راسه وحده ويزيد خفقان قلبه وحده ، ويجعل لصوته نبرة جليلة تتخللها بحات مشحونة بمزيج من شتى أنواع العواطف . وقال أشياء كثيرة عن الوحدة . وعن العالم العربي من المحيط الى الخليج . وعن المد الثوري . وعن الشعـوب النامية . وعن فيتنام وما أدراك ما فيتنام . وحرب المليون شهيد . والصين الشعبية وحرب الافيون وحرب الذباب . واردف لاهثـا :

ـ وأنتم هنا تجلسون كتنابلة السلطان تدخنون العال وتخترعون في سبيل ذلك كل المبررات .

ولم يجبه أحد . كان السائق يتأمل انفعالات وجهه في المرآة الامامية بتسلية . وابو محمد يميل براسه تارة نحو اليمين ، وتارة نحو اليسار . واوداجه الشحمية تتهدل . قال الراكب بحقـد :

ـــ لا تجيبون ! ولا تحركون ساكنا . ولا تفعلون شيئا سوى المحافظة على بقاء النوع . وهو في الواقع نوع لا يستحق كل هذا العناء . أنتم لا ترون المستقبل . انتم مصابون بعدم وضوح في الرؤية .

وتنبه اسامة الى الكلمات الاخيرة . واهتزت الافكار في رأسه . كان صوت الزعيم يموج في مخيلته . « المنظمات الفلسطينية مصابة بعدم وضوح في الرؤية . » حين سمع ذلك قال وقتها ... المنظمات الفلسطينية ليست ملومة . الشعب في الداخل هو الملوم . ودمدم باصرار ... الشعب في الداخل هو الملوم . وارتفع صوت امرأة من المقعد الخلفي:

ـــ الاخ مثقف جدا .أهنئك .

كلمة مثقف أزعجت الراكب . واللهجة باردة كالجليد الجارح . التفت خلفه . كانت في العقد الخامس . لها صوت عريض ونظرات نفاذة . وجبيرة جبس حول ساعدها الايسر .

ـــ ذكرت كل شيء الا عبارة واحدة قالها أحدهم .

ـــ وماذا قال أحدهم ؟

ـــ « اعلنوها حربا وخذوا منا كل التضحيات » .

قال غاضبا :

ـــ نعلنها حربا ؟ ومن نحن ؟ من نحن ؟ نحن أنتم . واذا لم تشدوا أزرنا نحن الـ ...

وارتفعت يد المرأة بسرعة واطبقت على فمه وهي تهز رأسها ببطء . ونظراتها القوية مغروزة في عينيه المغبشتين . وهمست :

ـــ اهدأ .

وحركت عينيها في أنحاء السيارة أمامها .

ــ لا مجال للانفعال . اهدأ يا ابني الله يرضى عليك .

وحاول اسامة ايضا ان يهدأ . ولكن عبثا . ما زال صوت الفتاة يضج في اذنه ، في راسه ، وفي كل خلية من خلايا جسمه ... يا كلاب . يا كلاب .

قال والدموع جامدة في حدقتيه :

ــ لم تسمعيها وهي تصيح . كانت تقول يا كلاب .

ــ اهـدأ . اهـــدأ .

استدار بظهره . ارسل نظره من خلال النافذة ... وكيف يهدأ القلب الموجع ! مراجل الغضب تغلي في شتى بقاع الارض . وهذه الارض تموت من شدة الصقيع . الارض : جريمة نحن مرتكبوها . والشعب : خدعة . مقلب شربناه . شربة تجرعناها وحسبت علينا قضية . وحسبت علينا ثورة . اليد الواحدة لاتصفق . وانا واحد . انا واحد ! امــرأة مجللة الراس بالســـواد تستعطف جنديا من اجل عشرة دنانير . ورجلان يوقوقان كالدجاج البياض « المسامح كريم يا افندينا . » وابو محمد يدخن سجائر امبرياليـــة واحتلالية وينعي ذكر اخر العنقود خالد . وخالد واحد . وانا واحد . واليد الواحدة لا تصفق . وسبعون الف يد عربية تصفق داخل المصانع الاسرائيلية ! يا شعب . يا شعب . يا شعب .

قالت المراة ملاطفـــة :

ــ يبدو أن الاخوين زائران لا مقيمان ؟

حاول اسامة استرداد رباطة جاشه

ــ بل انا مقيم منذ الان . امي لمت شملي .

وابتدأ حوار بين السائق وابو محمد حول سعر المحروقات الذي بات محرقا . كور اسامة قبضته . دق بها فخذه .

واستدار نحو المرآة وهمس من بين أسنانه :

ـ الا يفكرون الا بمشاكل الحياة اليومية التافهة ! منذ ركبت السيارة من عمان حتى الان لم اسمع الا لهاث مرضى .

ـ لكنك سمعتها وهي تصيح !

هز رأسه بيأس

ـ كانت تقول يا كلاب . ولست أدري من كانت تقصد . على كل حال ؛ اليد الواحدة لا تصفق .

قالت بنبرة تقريرية لا أثر فيها للانفعال :

ـ اترى هذه الارض الجديبة ؟

ونظر من النافذة . ورآها جديبة بالفعل . قالت :

ـ كانت بياراتها تمتد حتى الجبل . واحرقوها .

ـ احرقوها ؟

ـ حاولوا انتزاع البصمات .

ـ أية بصمات ؟

ـ بصمات أقدام تمشي . وكانت الاشجار تمشي . أتعرف زرقاء اليمامة ؟

.. ماذا تهرف هذه السيدة ؟ ماذا تقول ؟ الاشجار تمشي ؟ زرقاء اليمامة ؟ آ .. فهمت .

ـ وماذا بعد ؟

ـ ما عادت الاشجار تمشي لكن البصمات بقيت . فالارض الجديبة ليست جديبة . افهم أو لا تفهم انت حر . ولكن دع فمك مغلقا واترك بصمة مكان وقوفك .. أو قعودك .

واغلق فمه طوال الطريق . وعندما هبط الركاب على رصيف الدوار في السوق التجاري التفت ليودع السيدة . كانت قد اختفت . ولكنه شاهدها بعد ذلك بأيام . كانت

تسير بين الجموع في حواري المدينة القديمة . وكان ساعدها الايسر بدون جبيرة .

(٤)

لا شيء تغير في هذي المدينة . الدوار ما زال مكانه . وساعة الدوار تمشي بصمت وبطء . لكن الازهـــار نمت واستطالت . ولا شيء تغير ! المصبنة ما زالت مكانها . ورائحة الجفت والرطوبة تنبعث من بابها الكبير . وفي مكتب المصبنة يجلس الاعيان يناقشون ولا يفعلون . وبقية خلق الله على الرصيف يفعلون ولا يناقشون . ولا شيء تغير !

رائحة البن المحمص . وصدور الكنافة المعروضة على الارصفة . ومداخن المصابن ما زالت تطلق سحابات سوداء فوق الاسطح العتيقة .

من متجر الراديوات والتلفزيونات تنطلق سماعة تخترق الاذان . وفريد الاطرش ما زال يندب .. عدت يا يوم مولدي . عدت يا ايها الشقي . ولا شيء تغير !

ولكن ! الناس لا تبدو عليهم شقاوة العيش . يلبسون على الموضة . يمشون بخطوات أسرع . ويشترون بدون مساومة . كثرت النقود . كثرت الاعمال . وارتفعت الاجور وشبع الناس لحما وخضارا وفواكه . ورغم ارتفاع الاسعار ما زالوا يأكلون بنهم المحروم . ويطعمـــون أولادهم حتى التورم . ومن كان بدون كنزة أصبح يختال بجاكيت جلدي . ومن كان بدون لفاعة بات يخبىء أذنيه بياقات فرائية . واستطالت السوالف . وقصرت التنانير . وامتلأت أرداف الخادمات اللواتي اصبحن عاملات وموظفات . شيء ما قـــد تغيـــر !

الاحتلال ما زال احتلالا . والكرامة المسحوقة ما زالت ملغاة . لكن شيئا ما قد تغير . الخادمات ما عدن خادمات .

ـ السلم الطبقي مال . وشبع الناس كل الناس .

وامـــام الحوانيت تتكـــدس البضائع الاسرائيلية . في الواجهـــــات . وعلـــى أبـــواب المتاجـــر . وعلـــــى الارصفـــــة . والعمـــــــال يشترون بنهم المحروم . يأكلون . يلبسون . ويطعمون أولادهم حتى التورم .

ـ من ؟ اسامـــة ؟ بالاحضان يا ابن عمتي . حمد الله عالسلامـــــة .

وارتمى اسامة على كتف ابن خاله القوي وبكى بصمت .

ـ ماذا حدث للبلد ؟ ماذا حدث للناس ؟ ماذا حدث لكم ؟ لقد تغيرتم . حتى الصبية يدخنون في الشوارع . ودعايات الافلام الفاضحة تلطخ الشوارع . والناس يلتهمون الكنافة ويبتسمون . وأنت أيضا تبتسم . ماذا حـــدث لكم ؟ ماذا حـــدث للبلد ؟ ابطروكم . استوعبوكم . ولا أرى في عيونكم ومضة خجل .

قال الشاب الطويل وهو يمسح وجهه بكفه الكبيرة .

ـ قلت لشيء ذاته عندما كنت في عمان . لا تستغرب .

وصمت الاثنان وتحجرا . ومرت عربة يد ضخمة تحمل صناديق واكياس المأكولات فباعدت بينهما . ثم مشيا بصمت واخترقا الشارع الرئيسي ودلفا الى احد الازقة المؤدية للبلد القديمة . وكان الباعة ينادون : غزاوي يا سمك . يافاوي يا بردقان . ريحاوي يا مـــوز . وصاجات بائـــع السوس والخروب توقع أنغاما راقصة . وبائع الجرائد نفسه ينادي . القدس . الشعب . الفجر . كيسنجر يبشر بحل القضية . وفريد الاطرش ما زال يندب . وصاجات بائع السوس والخروب توقع انغاما راقصة . والناس يشترون خبزا وخضارا وفواكه .

وصفعت أنفه رائحة الرطوبة والعفونة في الازقة الضيقة

المعتمة . ورائحة القذارة والنتن . خضار وفواكه فاسدة ملقاة بجوار الجدران . وبرميل صدىء مليء بالسمك المهترىء . واوراق بللها الوحل تملأ الشوارع المبلطة بالحجارة الاثرية القديمة .

— تغيرتم . كل شيء تغير . والقذارة تملأ شوارعكم .

— شوارعنا ؟

— شوارعنا شوارعكم ، المهم أنكم تغيرتم . احتلال هذا ام انحلال ؟!

ولم يجب الشاب الطويل . وابتسم بصبر . واخذ يزدرد كآبته بصمت . واسامة يلح بتساؤلاته :

— وانت يا عادل ماذا تفعل ؟

— اطأطيء للحياة .

— تطأطىء ؟

— واسمع الراديو واقرأ الجرائد واطعم تسعة افوا آدمية والآلة .

— تقصد الكلية الصناعية ؟

— والكلى الطبيعية ايضا .

— ادخل في لب الموضوع . ماذا فعلت تجاه ما انتم فيه ، ماذا فعلت في الداخل هناك ؟

وعاد يردد بالحاح :

— ماذا يفعل الشباب امثالك لمواجهة ما في الداخل ؟

— ما فعلتموه لمواجهة الخارج .

توقف اسامة عن المشي واخذ يحملق في وجه ابن خاله المحروق باشعة الشمس وكانت نظراتها زائغة ، مليئة بالدهشة والاستغراب .

— انت لا تقصد .. ؟

— وانت لا تقصد .. ؟

— بلى اقصد .

ـ وانـا اتصـــد .

هـــز اسـامة راسه بيأس

ـ عدم وضوح في الرؤية . أنتم الملومون . انتم أصحاب القضيـــة .

ـ استعمل صيغة جمع المتكلم اذا سمحت .

ـ ولكـــن !

ـ ولكـــن ؟

قال اسامة بحدة ونفاذ صبر :

ـ الصورة واضحة ، الا ترى ؟

قال الاخر وهو يهش الذباب عن وجهه :

ـ للصورة اكثر من بعد واحد .

وواصلا السير وكل يجتر أبعاده واحزانه . .

(٥)

ــ امــــــي ..

وارتمى على الصدر المترع بالبركة . وقبلات وبسملات ومرحبات . وكيف الصحة وما أخباركم وماذا طبخت ؟ وصرت عريسا يا اسامة والبنات الجميلات يملأن البلد . وابنة خالك نوار اصبحت منورة . طويلة . شعرها املس بدون تمليس. والشباب يلحقونها كل يوم من باب الدار حتى كلية النجاح . وكل يوم تقوم القيامة في دار خالك أبو عادل . انت تعرف طبعه . الرجل معه حق . يخاف على عرضه .

ــ وخالي كيف صحتـــــه ؟

ــ من سيء لاسوا يا ابني .

ــ وعـــــادل ؟

ــ جمال الجمال عادل . دائما يسال عنك .

ــ رايته في السوق على الدوار . تعانقنا في الشارع وبكيـــت .

ــ انت تبكي ؟! مات أبوك ولم تبك . وبكيت أمام الناس؟ ماذا يقول الناس ؟

ــ بكيت على الناس يا امي . بكيت على البلد .

ــ البلد بخير يا ابني . ماشي الحال . بكره تهوز ويحلها الحلال .

ــ لا تقولي سيحلها كيسنجر يا أمي .

ــ سينجر ! الا تزال في البلد ماكنات خياطة أجنبية ؟ ماكنات الخياطة كلها اسرائيلية الان . وماكنتي هي السنجر الوحيدة في البلد . خطت بها لفاعاتك وانت بحجم القط . لكنك صرت سبعا . سبع السباع

ولكن كيف بكيت في الشارع أمام الناس ؟ ماذا يقول الناس عن ابن الحاج صابر الكرمي ؟ أبناء الكرمي لا يبكون . وهل بكى عادل ايضا ؟

— لم يبك عادل لكنه كان حزينا . شاحبا . محروق الوجـــــه .

— حمال الحمال عادل . حمال الهموم عادل . تسعة أنفار في رقبته والالة . وهو يكد من الصباح للرباح. وخالك من سيء لاسوأ لكنه يكابر . كثر صراخه ونكده . الله يكون في عون أم عادل . كلاويه اهترأت من الهم يا حسرتي . الاحتلال هو السبب . منذ الاحتلال لم يرفع رأسه . لكنه ما زال يقاوم يقابل الصحفيين الاجانب . ويهاجم الاحتلال .

— وعـــــادل ؟

— عادل يا ابني ساكت كأبي الهول . يعمل من الصباح للرباح . تسعة أنفار في رقبته والالة . ونوار نوارة الدار . طويلـــة . وشعرها أملس بدون تمليس . وبشرتها صافية كالحليب . لكنها نحيفة كعـــود الخيزران . شغل الدار هد حيلها . والدراسة . ومرض أبيها . وزنها يا دوب ٥٥ كيلو .وتأخذ أقراص فيتامين وما فيش فايدة . أقول لها وأنا أعني ما أقول : بكره الحبل يخليك بطة . فتلوي بوزها وتخرج من الغرفة . بنات اليوم لا يتلهفن على الزواج مثلما كنا نحن . لكنها عندما تراك سيتغير الحال . والبنت منورة مثل الشمعدان . طويلة . وخصرها رفيع . وأنت بت عريسا . فما رأيك ؟

— وحدي الله يا أمي . انا ما زلت صغيرا .

— صغيرا ! عندما كان والدك في مثل سنك كان أبا لخمسة أولاد . ويا حسرتـــي على الامـــوات . والبركـــة

في الاحياء . البركة فيك يا ابني . الله يكثر مـــن نسلـــك .

ــ يا أمي البلـــــد !

ــ البلد بخير يا ابني . بكره يحلها الحلال . ويزول الاحتـــــلال .

ــ ومـــن يحلهــــا ؟

ــ قلت لك الحلال يا ابني . ألا تؤمن بقدرة الله جل وعلا؟

ــ وانا بدون وظيفة يا أمي . والقرشين اللي معي لليـــوم الاســـــود .

ــ تزوج بهم وبعدين يحلها الحـــلال .

ــ دائما يحلها الحلال يا أمي ؟ الا تفكرين بحل الا عن طريق الحـــلال ؟

ــ لا تكفر يا اسامة الله يرضى عليك . الا تؤمن بقدرة الله جل وعـــلا ؟

ــ والبلـــــد يا أمي ؟

ــ قلت لك البلد بخير . وبكره يحلها الحلال . ويمكن الصحفيين الاجانب الذين يزورون خالك يؤثرون على اميركا . واميركا تقول لاسرائيل انسحبي فتنسحب . ارايت كيف ان الامور ليست صعبة كما تتصور ؟ الم اقل لك بكره يحلها الحـــلال ؟

ــ يا أمي ! يا أمي !

ــ روح أمـــــك ؟

ــ انا جائـــــع .

وفي العصـــر غادرا منزلهما الصغير في جادة السعادة وتوجها لدار العيلة . دار كبيرة . قصر ضخم من قصور الاجيال السالفة . اعمدة رخامية . سقوف معقودة . ساحة سماوية مبلطة بالحجارة الضخمة . بركة تحيط بها أشجار الليمون واصص الفل والجميل . وزخارف عربيـــــة على

الجـــدران . قناديل زجاجية ملونـــة . وخزائن مرصعة بالصدف . لكن الزمن فت من عضد كل شيء . بما في ذلك كليتي كبير الدار . ولم يعد هناك خدم أو حشم . فالعمال يملأون مصانع اسرائيل . واصبح اجر العامل يضاهي أجر السيـــــد .

وتلقى القبلات والتبريكات . ودخل الديوان حيث يتصدر الخال العتيد صدر المجلس وقد أحاطت به مجموعة مـــن الاصدقاء والصحفيين الاجانب ومصوري التلفزيون الفرنسي. وكان واحد ممن يتربعون في أعلى درجات السلم الطبقي يقـــــول :

ـــ العمل في اسرائيل فرض على عمالنا فرضا . نحن لسنا ملوميـــن . ولا التركيب الاجتماعـــي ملوم . الاحتلال هو الملوم .

وقال الحضور آمين .وابتسم الصحفيون الفرنسيون وهم يشربون القهوة بالهال .

(٦)

مرت أمامه كعــود الخيزران . كانت ترتدي بنطلونا وقميصا بسيطين . وشعرها الاملس الطويل منسدل على بشرتها . بشرة صافية كالحليب .

ـ نـــوار !

واستــدارت . ونظرت . وابتسمت .

ـ اسامة ! حمد الله عالسلامة . متى وصلت ؟

ـ اليـــوم .

ابتسما واحدهما يتأمل الاخر

ـ كبرت يا نوار . كنت صبية صغيرة حين تركتك . وها أنت شابة كبيرة وتقرأين الكتب الكبيرة .

مد يده . فأعطته كتبها . وقالت معتذرة :

ـ لم اعلم انك قدمت . كنت في النجاح في دار المعلمين . سأتخرج في نهاية هذا العام . ثم أعمل وأساعد عادل في حمل أعباء الدار . وأنت ؟

ـ وأنا أيضا . سأحمل أعباء الدار والدنيا . والدنيا هنا ملخبطة .

عــلا العبوس وجهها

ـ ملخبطـــة جـــدا .

قـــال مازحـــا :

ـ يحلهـــا الحـــلال .

قالـــت بجديـــة :

ـ نحلهـــا نحـــن .

رمقها متفحصا . تساءل :

ـ والحياة صعبة . اليس كذلك ؟ وأحيانا يضطر الانسان لأن يطأطيء .

رفعت عينيها . سحبت كتبها من يده

ـ الاقوياء لا يطأطئون .

ـ وهــل أنت قويـــة ؟

ـ أحــاول .

وابتسمت

ـ وأنــت ؟

ـ احــاول .

أشارت الى ركن ترتص فيه المقاعد الجلدية

ـ تجلــس ؟

التفت ناحية باب الديوان

ـ وخالـــي ؟

ـ ابي ، كل يوم على هذا المنوال . الصحفيون هــم شغله الشاغل . يتسلى .

ـ يتسلى !

ـ ماذا اذن ؟ الصحافة لن تحل القضية . ولكن لا بأس. هذا يجعله يحس بأنه يؤدي عملا . يتعاطى الكلام . مجرد كلام .

ـ ألهذا تغيب عادل عن حضور المجلس ؟

باشفـــاق :

ـ عادل ؟ عادل محروم من كل المجالس . عادل . .

ازدردت ريقها . زفــرت .

ـ لا تسالني عن عادل . وضعه يؤلمني هنا في أعماق القلــب .

واستدارت بوجهها نحو النوافذ المتنطرة ذات الـزجاج الملون . تماسكـت .

ـ فنجان قهوة ؟

ـ لا مانع رغم اني شربت القهوة في الديوان . ولكن أين أمي ؟

ـ لا بد انها مع أمي وجدتنا في الغرفة العلوية . نصعد اليهن ؟

ـ والقهوة ؟

ـ نشربها هناك .

وصعدا الدرجات بصمت . وقالت وهي تلمس الغبار المتراكم على خشب السلالم بأصبعها :

ـ الدار قذرة باستمرار . اترى ؟

ومدت سبابتها أمام عينيه . أردفت :

ـ وما زال الناس يفخرون باقتناء دور كبيرة كهذه . موضة قديمة . لا تجاري روح العصر . هذه الدار بحاجة لثلاث خادمات على الاقل . وليس في الدار من خادمة سواي .

علق :

ـ وظاهرة الخدم انقرضت . هل يزعجك هذا؟

ـ لا . أمر طبيعي . علينا أن نتعلم خدمة انفسنا بأنفسنا . لكن هذه الدار مصيبة لا يحس بها أحد سواي .

سأل عن عمد :

ـ وعادل ، الا يساعدك ؟

ـ عادل ! عادل يخرج قبل طلوع الفجر ولا يرجع الا بعد حلول الظلام .

ـ وماذا يعمل ؟

ـ في المزرعة طبعا . ولا أعرف كيف يتدبر أمره . كان يشكو قلة العمال . لكنه ما عاد يشكو . منذ شهرين لم أعد أسمع شكواه ولا أعرف ماذا حدث له وللمزرعة . أسأله فلا يجيب . ويسأله الوالد فيتشاغل

عن الموضوع . وقد ازداد نحولا وشحوبا . ما عاد يشكو . أصبح صامتا كالقبر .

استدارت . وقفت على الدرجات الاخيرة . قالـــت برجـــــاء :

ــ أسامة . لا أعرف ماذا اقول . ولكنك اقرب الناس لعادل . سناً على الاقل . فهل تطمئنني عنه ؟

صوتها متهدج . وجهها الناحل تكسوه حمرة الانفعال .

مد يده . ربت على كتفها باخوة .

ــ سأحـــــاول .

(٧)

تمطى في فراشه الدافيء وفتح عينيه على وجه القمر . كان بدرا مكتملا . وكانت بسملات أمه تعلو وتهبط . وظل مدعيا النوم حتى بعد أن سلمت أمه على افواج الملائكة من حولها . السلام عليكم ورحمة الله . السلام عليكم ورحمة الله .

انت يا أمي ملاك . وانا سبع السباع يمه . ولكن بعدما اموت من يملأ عليك الدار ؟ والموت شر لا بد منه . وربما السجن والتعذيب والكلاب المسعورة . لا بأس . لا بد . نحن اصحاب القضية . تقولين ساعتها بأن ابنك مات شهيدا . وكان سبع السباع بحق وحقيق .

ـ تقبل الله يا أمي .

أشعلت النور . ما زالت ملفعة بالبياض .

ـ يسعد صباحك ويطول عمرك ويرزقك ببنت الحلال . تشرب قهـــوة ؟

واحضرت القهوة وجلست متربعة على حافة فراشه . وبدأت تقص عليه حكاياتها الساذجة الاليفة . حكايات يرجع زمنها لسنتين ماضيتين . كيف رحلت من طولكرم . وكيف ودعت جارات الحي الذي عاشت فيه اكثر من ربع قرن . وكيف وقف عادل الى جانبها كأنه اسامة . فهو الذي استأجر لها هذا المنزل . وهو الذي نقل العفش بشاحنة أحضرها من نابلس . وهو الذي لاحق معاملة لم الشمل . وهـــو الذي اوصى بها البقال . والبقال دائما يسأل عن أسامة ويريد أن يتعرف به . وأوصتـــه أن يمر به ويعرفه على

نفسه . فالحاج عبد الله رجل محترم . كله ذوق وانسانية رغم أن البعض ينتقدونه لان رجال الداورية يشترون منه السجائر والكولا . ماذا يفعل المسكين ؟ وهل باستطاعته أن يرفض بيعهم ؟

وحدثته بشأن الوظيفة . وعرضت عليه فكرة غير متوقعة . فلماذا لا يعمل في مزرعة خاله ؟ المزرعة خالية . وعادل مثل اخيه . والعمل في الزراعة ليس صعبا .

— كان والدك مزارعا طيلة عمره . وقد جعل من الارض الصخرية جنة . نقب الحجارة وفتت الصخور ونخل التربة . ستتعب في البداية لكنك ستعتاد ذلك . ولن تكون مرؤوسا من قبل أحد . فعادل مثل اخيك . وبعد عمر طويل سترث نوار حصتها . وتصبح شريكا في المزرعـــة .

ضحـك وعلـــق :

— تزوجين وتميتين وتخططين كما تريدين . وعند الازمات الحقيقية تقولين يحلها الحلال !

— الاعمار بيد الله يا ابني . ولكن الرجل كما تعرف . وانت لن تجد أحلى وأحسن من ابنة خالك . وعادل أخوك . والعمل في المزرعة أحسن من العمل عند الاغراب . كما ان الوظائف الحكومية غير متوفرة اطلاقا . وكذلك الوظائف في الوكالة .

حاول أن يتملص . وأخبرها بأنه رأى بيارات محروقة في الاغوار . وبأن الخطـــر قد يصل الى مزرعـــة خاله . فبسملت وحوقلت وتمنت الفناء لاسرائيل . وواصلت أحلامها .

ماذا يقول لها ؟ أيقول بأنه لن يعمل مهما قالت ومهما حلمت ؟ أيقول بأن مهمته تقضي بأن يتنقل باستمرار بين القرى والمدن . وان خططها الساذجة لن تنفذ ؟ أيقول لها

بأن رفضه العمل في المزرعة ليس خوفا على الايدي التي ما حملت المعول يوما . ولا لانه يفضل أن يظل أفنديا . ولكن لانه بات محترفا . وأن المسالة ما عادت مجرد هواية .

وكان يتأمل الوجه المتلالىء بالرضى . وتذكر أبياتا من الشعر كان قد قرضها في السنة الاولى من غربته . حين كان الشعر هو وسيلة التعبير الوحيدة . وكان ذلك قبل أن يموت الهوى والشعر والاحلام الرهيفة . وماتت . وتشكلت أرقام المعادلة . وأصبح الانسان حلقة في سلسلة القضية . وترددت الابيات في خلده وهو يستمع لاحلام امه .

أمي لا تقرأ او تكتب
تبصم ، لا اقــل ولا اكثـــر

أمي تبصم . معظم الامهات يفعلن هذا ، والاباء كذلك ، ومسؤولية القراءة ملقاة على عاتق هذا الجيل . وهـــذا الجيل قوي ، متوقد ، صلب كالصوان ، رغم قده المشوق كعود الخيزران . وتذكرها . كتبها ، وسبابتها المرفوعـــة بالغبار ، وقامتها النحيلة الضامرة . قالت :

ــ الاقوياء لا يطأطئون .

وقـــال عـــادل :

ــ للصورة أكثر من بعد واحد .

وشتان ما بين تلك وهذا .

وقفز من فراشه وقال بتصميم :

ــ سأذهب اليوم الى المزرعة ، وسأرى عادل .

وودعته عند الباب وهي تبتسم وقالت :

ــ بكره الحبل يخليها بطه .

(٨)

وقفت السيارة في الشارع الرئيسي . ترجل ، وبدا يسير في الطريق الترابية بين المشاتل والمزارع . كانت بيارة خاله تقع في الطرف الاخر من مجرى الجدول . وكانت اشجار الحور والدفلى تحجب البيارة عن نظره . فأخذ يسير وهو يتلفت حواليه حيث اعتاد أن يرى الخضرة تنتشر في كل مكان . لكن المزارع كانت مهجورة ، والاشتال ما عادت تغطي سوى رقع متفرقة من الارض المهملة ، وأصوات الدواب التي كانت تملأ الفضاء بثغائها ورغائها ما عادت تموسق الاجواء .

شيء ما قد تغير ، بل كل شيء تغير ، والتغيير قد شمل الريف ايضا لا المدينة فحسب . ماذا حدث ؟! الارض ما زالت معطاءة ، والجدول ما زال رقراقا عذبا ، والموسم كان خيــــرا . أمطار هذا العام زادت عن معــــدل كل عام ، لكن الارض ما كانت تنبت الا الاعشاب البرية . خبيزه وخرفيش وزعمطوط وعلت . والزعتر يملأ الارض ولا احد يتهافت على قطافه كما كانت العادة دوما . ورأى بيارة أبو الحافظ التي كانت مضرب الامثال يوما قاحلة جرداء وآثار احتراق الاشجار ما زالت تروي قصة زرقاء اليمامة .

وانقبض قلبه ، فأسرع الخطو نحو بيارة خاله ، وكانت مسوره بأشجار السرو من كل جانب . دفع الباب الخشبي فزقزقت مفاصله وارتمى على الجانب الاخر ببلادة . كانت اشجار الددونيا الصغيرة التي تزين المدخل مهملة تماما ؛ لم يعد لها شكلها الهندسي المنتظم ، اطرافها تمتد من غير

هــدف ، والاعشاب البرية تغطي الممـرات المتربة من حولها . والبناء الصغير الذي كان مخصصا للاستقبال كان مقفلا . واخذ ينادي والضباب يملأ عينيه :

ـ اما من احد هنا ؟

ولم يجبه احد . ووقف أمام حظيرة الابقار وكان بابها مغلقا ، ومد راسه من شباك صغير مكسور الزجاج

ـ اما من أحد هنـا ؟

ولم يجبه احد . وسمع صوت كلب يعوي . وبعد لحظات كان الكلب الهرم يستلقي عند قدميه يتمسح بحذائه .

ـأما زلت تذكرني يا مسعود ؟

واقعى الكلب على مؤخرته واخذ يرمقه بألفة . ثم قفز فجأة واتجه نحو الخيال البعيد الذي اخذ يقترب .

قال الرجل العجوز وهو يظلل عينيه بيده :

ـ ماذا تريد يا شاب ؟

واخذ يواصل سحب مداسه بأقدام هدها الهرم ، واطراف معطفه الاسود المهلهل تعيق خطواته .

ـ ابو شحادة ؟ الم تعرفني ؟ انا اسامة يا ابو شحادة . الم تعرفني ؟

قال الشيخ متهتها وهو يلوك الكلمات بفم خلت منـه الاسنان :

ـ اثامه ؟ اثامه مين ؟

اقترب اسامه وهو يمد يده ليصافح الرجل لكن ذاك لم يستجب لمشروع التحية ، وبدا ان ضعف نظره قد حال دون رؤيته اليد الممدودة . قال اسامه وهو يربت الكتف المنكمشة تحت ثقل المعطف :

ـ ألا تمد يدك وتسلم علي ؟

ومد الشيخ يدا يابسة معروقة وسلم بصمت .

قال اسامة معاتبا :

ـــ انسيتني يا أبو شجادة ؟ أنا أسامة ابن الحاج صابر ـ ابن خديجة عمة عادل ، انسيتني ؟

ثم أردف متعجلا وهو يتلفت :

ـــ وعادل ؟ اين عادل ؟

تلفت الشيخ حواليه ايضا وقال بلا مبالاة :

ـــ أنا داري !

قال أسامة وقد تعاظمت حيرته ومخاوفه :

ـــ لا تدري اين عادل ؟

قال الشيـــخ باقتضاب :

ـــ لا .

واخذ يتأمل الشاب بعينين كليلتين .

ماذا حدث للدنيا ؟! ماذا حدث للناس ؟ ماذا فعل بـ الزمن .. والاحتلال ! هذه المزرعة الميتة ! وعادل المفقود ، وهذا الرجل المنكود ! واقترب من الشيخ اكثر وقال بحسرة :

ـــ حتى مسعود تذكرني ، فكيف تنساني انت يا أبو شحادة ؟! لطالما حملتني على ظهرك وأنا طفل صغير، وكم لعبت وعادل وشحادة خلف تلك الحظيرة تحت التينة الخرطمانية . وكم لحقتنا بعصاك حين كنا نسلط خرطوم الماء على حظيرة البقر .

انسيتني يا ابو شحادة ؟

لوح الشيخ يده وقال وهو يجلس على حافة حوض الددونيـــا :

ـــ لا تؤاخذني يا ابني ، لم اعد اذكر أي شيء . ام شحادة تقول بأني ما عدت اساوي نكله . حريقة الوالدين ، نسيت أيام شبوبيتي حين كنت احمل عجلا على كتفي وشوال بردقان في ايدي اليمين وشوال بردقان بايدي الشمال . يا الله ، بتهون ، الله يحسن ختامنا .

جلس اسامة على حافة الحوض المقابل وتنهد :

ـــ اذن فأنت لا تذكرني . لكن مسعودا يذكرني ، اليس كذلك يا مسعود ؟

وكان الكلب يتابعه وما زالت نظرات الالفة تبطن عينيه وردد الشيخ بعد فترة صمت وكأنه يستفيق من حلم عميق

ـــ أهلا وسهلا . وأين عادل ؟

اجاب أسامة بدهشة :

ـــ انا الذي يسأل عن عادل !

قال الشيخ ببلادة :

ـــ لم اره من حوالي اسبوعين أو اكثر .

ارتفع الضغط في راس الشاب :

ـــ والعمال ! اين العمال ؟

ـــ يسرحون للعمل في اسرائيل .

ـــ وشحادة في اسرائيل ايضا ؟

ـــ آ .

واشعل الشيخ سيجارة هيشه واخذ يمجها والفجوتان في خديه تتقعران اثر كل مصة .

تســـاءل أسامـــــة :

ـــ ولماذا لا يعمل شحادة هنا في البيارة ؟

قال الشيخ بلا مبالاة :

ـــ هناك أحســــن .

ـــ هناك احسن ؟! كيف يا اختيار هناك احسن ؟

ـــ هناك أحسن ، مصاري كتير وشمة هوا وما فيش لا تعال يا ابن الكلب ولا روح يا ابن القو د . هناك أحسن . مصاري كتير وخير كتير وشغل بالراحة . لا حدا فوق راسه ولا حدا يكسر رقبته ويخليه يشتغل من الصبح لليل مثل الحمار .

ـ والبيارة يا اختيار تركتوها لمين ؟

هز الشيخ راسه وهش بعوضة عن وجهه واستعمل كلماتـــه المأثـــورة :

ـ انا داري !

ـ ومن يدري اذن ؟ أنت تقول هذا الكلام وقد ربيت كل شجرة في هذي البيارة مثل ما ربيت شحادة ؟!

ولم يجبه الشيخ بل استغرق في الصمت ، وبدا كأنه سيستسلم لسنة من النوم . فصاح أسامة :

ـ وحد الله يا اختيار ، قلت لك نترك الارض لمين ؟

تأمله الشيخ وهو يضيق عينيه الضعيفتين وقال ببرود :

ـ وهيه الارض أرضنا ؟

ـ ارض من اذن ؟

لوح الشيخ يده للمرة الخامسة أو السادسة :

ـ انـــا داري !

وقفز أسامة من مكانه واخذ يذرع الممر بعصبية .

ماذا أقول ؟ماذا افعل ؟ وكيف السبيل الى التفاهم مع رجل هده الزمن والفقر والجهل !

وصاح وهو يتوقف فجـــأة :

ـ هذه الارض لمن يا سيد ، يا حاج ، يا اختيار ؟ هذه الارض لمـــن ؟

قال الشيخ بغضب :

ـ لصحابها يا افندي ، وانت زعلان ليش ؟ انا يا سيدي اجير ، طول عمري كنت اجير ، لا لي ارض ولا ما يحزنون ، وابني كان اجيرا ولم يزل . وما دامت الارض مش ارضي ولا أرض شحادة نموت فيها ليش ؟ لما متنا من الجـــوع ما حدش سأل عنا . والساعة بقيتوا تسألوا عنا ليش ؟

ووقف الشاب مشدوها أمام انفعال الشيخ المفاجىء

ــ وها انت تتكلم أخيرا ، وتعرف كيف تجادل وتنكر ! وتدعي أنك نسيتني ؟

وأمسك بتلابيب الشيخ وهزه بعنف فتمايل الجسد الاعجف بين يديه كيكس من النخالة ، فتركه وهو يسنده بساعده . وطأطأ أمامه وهو جالس القرفصاء

ــ انت لم تنسني يا ابو شحادة ، قل بأنك لم تنسني .

ولم يجبه الشيخ ، بل اخذ يتحسس صدره بيديه الناشفتين ويعيد لف حطته المهلهلة حول راسه .

ــ انت لم تنسني يا ابو شحادة .

وامتلأت عيناه بالدموع .

ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟ انا لا أفهم ! لا أفهم !

ووقف ، واستدار ، وخرج من البيارة ، ولم يخرج لوداعه سوى الكلب الهرم .

(٩)

مشى عادل يتوسط الرجلين . جباههم مقطبة . عيونهم مغبشة . عضلاتهم ما زالت مخدرة بالنعاس . والليل مـا زال اسود . وقمر ونجوم واضواء البلدية .

وقفوا على الرصيف بين مئات العمال . وعما قليل ستحضر باصات « ايجيد » لتقلهم الى المصانع غربا . ورائحة النوم . والخبز والجبن . وبائع الكعك والبيض ينادي على بضاعته التي لا تكون رائجة في الغالب . فمعظمهم يحملون سلالا صغيرة . او اكياس نايلون يتراءى ما وراءها بدون كلفـــة .

وجلس بعضهم على عتبة الرصيف متكئين برؤوسهم الى اكفهم الخشنة المعروقة . يحاولون اختطاف تعسيلة مـــن النوم قبل وصول الباصات . وتصل الباصات . وتصل الشاحنات المغلقة . ويتدافعون بالمناكب . من سيقف ؟ من سيجلس ؟ والسباق على الكرسي بجوار السائق شر لا بد منه . فالجلسة مريحة هناك وتعطي مجالا أكبر للنوم الهنـــيء .

وصعد الرجلان الى الشاحنة يتوسطهم عادل . انوار خافتة . مقعدان طويلان على طول الشاحنة . ومقعدان طويلان في الوسط . والوقوف اكثر من القعود . الوقوف يمسكون بمواسير مثبتة بالسقف . والقعود يلقون برؤوسهم على اكتاف بعضهم البعض ويغطون في نوم مهزوز .

احد الرجلين . في الستين . له ذكريات مريرة مـع الجوع والوقوف في الطابور امام الجمعيات الخيرية .

ـــ الاولاود كالجراد . يقرطون الاخضر واليابس . وانا آكل كالحصان لأظل في قوة الحصان . آكل لحما كثيرا . واللحم نار هذه الايام . كل يوم تطبخ أم صابر نصف كيلو لحمة بـــ ١٠ ليرات غير الخضرة والرز والسمن والفاكهة .

تمطى زهدي . شاب أسمر . شاربان اسودان ولحية لم تمسها الشفرة منذ ثلاثة أيام

ـــ للعدس نفس فائدة اللحم .

تأمله أبو صابر بعينين زائغتين

ـــ من قـــال هـــــذا ؟

ـــ سعدية سمعت هذا الكلام من ركن المراة فبدأت تطبخ لنا جميع انواع المعدسات . شوربة عدس على مرقة المظام . وشوربة عدس مع الجزر والسلق . وعدس بجبنته وعدس من غير جبنته . ومجدره وما أدراك ما مجدرة حتى انتفخنا . كل ما أقول لها يا بنت الحلال ارحمينا ، ما ترحمش . وبعدين نشيتها هداك الطلاق . علي الطلاق بالتلاته ما يدخل العدس دارك من سنه . ورجعنا ناكل طبيخ ما يحرمناش نوم الليل . ملعون أبو دين العدس . انت عارف يا أبو صابر ؟ ما كناش ننام . ولد يطقعها من هون . والثاني يناوله من هناك لما بقت عيشتنا معارك مستمرة .

ردد اخر مرنما :

ـــ المعارك مستمرة .. يا فلسطيننا يا حرة ..

وقهقه عادل . وأصابت ابو صابر نوبة من السعـــال المتواصل حتى كاد ينفجر . لكن السيجارة لم تسقط من يده . وقال عادل بوجوم :

ـــ تنعموا وتقشفوا فان النعم لا تدوم .

ـــ تقشف ؟ تقشفنا ما فيه الكفاية يا أستاذ . ونحن الان نعيش كما تعيشون أنتم يا أولاد الوجاهات .

ابتسم عادل ولم يعلـــق .

وجاهات ؟ اية وجاهات ؟ اتسمي ما يعانيه الوالـــد وجاهة ؟ كلية صناعية . تسمم الدم . تورم الانسجة . تشقق الجلد وعبودية الالـــة .

وكان ابو صابر يتكلم بعد أن سكتت نوبة السعال في صـــــدره .

ــ قبل الاحتلال كان يعطيني ١٣٥ قرشا اردنيا في اليوم. ولم يكن الغلا مثل اليوم . وانت تعرف محسوبك . نجار معلم ابو زيد الهلالي خاله . وبعد الحرب رجعت له فقال لي : ب ٨٠ قرش . قلت : بس انت كنت تعطيني ١٣٥ فما الذي اختلف ؟ والعمل موجود والرب موجود . وبما تنساش الاسابيـــع الماضية . يا سيدي متنا من الجوع . قال : العمال كتار والطلب على الشغل كثير . واذا مش عاجبك اتفضل من غير مطرود . فتفضلت .

ردد زهدي بحنـــق :

ــ مجرم مثل اللي كنت عنده . تصور يا أبو صابر . اشتغلت عنده في المعصرة سنتين . ولا يوم خزا عين ابليس وقالي خذلك كيس هالدق . وفي يوم قلت أكلح مثله . وكانت الدنيا شتوية والبـــرد يقص المسمار ، طلبت منه كيس دق فقال لي بثمنه . استحيت أحط واطي وقلت : بثمنه . ولما شاف الكيس مليان سالني : وزنته ؟ قلت : لا . قال اوزنه . وكان وزنه يا عادل ١٢ كيلو الله وكيلك . قال لي : الكيلو بـــ ٤ قروش × ١٢ = ٤٨ . قلت وقلبي ينقط سما : حاسبني عليهم . وفي آخر الشهر حاسبني عليهم وخصم من حسابي ٤٨ قرشا .

وتدفقت اللعنات من أفواه الاخرين . وضرب زهدي يدا

بيد وقهقـــه

أفواه الاخرين . وضرب زهدي يدا بيد وقهقه

ــ الشماته ايمتى يا أبو صابر ؟ الشماته لما لاقاني في الشارع قبل أسبوعين . سلم علي بايده لاول مرة في تاريخ العروبة وابتسم لي وقال : أنت فين يـــا رجل ؟ قلت له وانا أغمز بعيني للغرب : هناك . اصفر وجهه وقال : يا عيب الشوم عليكم .

وسيل اخر من الشتائم في غاية البذاءة . وأحذهم يتساءل:

ــ وبعديـــــن ؟

ــ وبعدين ناولته واحد مثل البمبة اللي فقعت في مصنع الورق . وكانت سعدية ما زالت تعمل بنصيحة ركن المرأة .

هيء هيء هيء . هع هع هع . وحدوه يا الله يا شباب .

وتدفق العمال من باب الشاحنة . وتفرقوا في شوارع تل أبيب النائمة . وكانت الشمس ما زالت تتمطى في سماء غائمـــــة .

(١٠)

ضجيج الالات يملأ الفضاء مذكرا بيوم القيامة . أزيز بلدوزرات . مناشير كهربائية . شهيق خلاطات ودوي معاول ومطارق .

صاح العمال بصوت واحـــــد :

ــ يـــا عـــــادل .

وكانوا يلتفون حول الرجل المطروح أرضا . نوافير دموية تتدفق من اصابعه الاربعة . والسائل الاحمر يغوص في تربة رملية اقتلعت منها جذور البرتقال حديثا . وعـــادوا يصيحون بأصوات متشابكة متنافرة :

ــ يـــا عـــــادل .

قال زهدي وهو يسند الرجل الى صدره :

ــ فليذهب أحدكم اليه .

تقفز صبي غزاوي لا يتجاوز الرابعة عشرة . توجه نحو الكاراج . وكان عادل يركب على مقدمة شاحنة ضخمة مفتوحة الغطاء . موتورها يصدر زعقات متقطعة . صاح الصبي لاهثا :

ــ عـــــادل .

التفت والعبوس يملأ وجهه الملطخ بالشحم

ــ ابو صابر تقطعت أصابعه . مطروح على الارض . دمـــــه ينـــــزف . لا نعرف ماذا نفعل .

قفز عن الشاحنة . ترك موتورها يعوي . وبدأ يركض باتجاه المنشار الكهربائي . وصاح وهو ما يزال يركض :

ــ اليمين أم الشمال ؟

ــ اليمين .

ازدادت الخطوات اتساعا . والعمال ما زالوا يقفون حول الرجل وهم يتصايحون . بعضهم يروحون . وآخرون يجيئون . وأبو صابر مستند الى صدر زهدي يرقب الجمع بوجه جف منه كل تعبير .

صاح عادل :

ــ أين الاسعاف ؟

ــ رفضوا اسعافه .

ــ كيف ؟ مش معقول !

ــ لأ معقول . أبو صابر لا يحمل اذن عمل وهو بالتالي غير مؤمن .

وركض عادل باتجاه الاستعلامات . وهز اليهودي راسه واعتذر بأدب :

ــ آسف . لا نسعف الا من يحمل اذن عمل . مخالف للتعليمات . آسف يا حبيبي .

ــ الامبولانسات واقفة لا تعمل شيئا !

ــ آسف يا حبيبي .

استدار وبدأ يركض باتجاه الجمع . افسح لنفسه طريقا . صاح وهو يرفع الكتفين عن الارض :

ــ احمل يا زهدي ..

رفعا الجسم عن الارض واتجها نحو الكاراج . فتح أحدهم باب مؤخرة « دوبل كابين » . صعد عادل . سحب الجسم على الارضية المطاطية . خلع قميصه . شرع في تمزيقه . وصاح :

ــ امش .

وهمس مواسيا :

ــ شد حيلك يا أبو صابر . سنصل نابلس في اقل

ـــن ساعـــــة .

ـــ نابلس ! يكون دمي قد تصفى .

واستدار براسه . وبدا انه سيغيب عن الوعي ثانية .

ربط عادل الذراع الجريحة محاولا ضغط الشرايين والاوردة . ولف الكف المصابة ببقية القميص . ونظر في ساعته متلهفا . ثم اخذ يرقب اشارات المرور وقد تراكمت افواج السيارات من حولها . وكانت الشوارع مزدحمة . والارصفة مغطاة بشتى أصناف البشر . شرقيون . غربيون . اسيويون . افريقيون . اوروبيون . وامريكان . مختلف الجنسيات . مختلف العروق . مختلف الالوان . وباتوا يحملون جنسية موحدة تنتمي للشرق الاوسط .

وكانت الدوبل كابين تسابق الريح . كادت تصطدم بباص من باصات ايجيد لولا الفرملة السريعة في الوقت المناسب . ومد سائق الباص راسه من النافذة وقال باشمئزاز من يطلق شتيمة قذرة .

ـــ عرافيـــــم .

فرد زهدي على التحية بأحسن منها . وزاد من ضغط قدمه على البنزين وسيل اللعنات ما زال يتدفق . وبدأت تل أبيب تغيب عن ناظري عادل . ولكن ظلت المباني الشاهقة تناطح السحاب مذكرة بما تكنه عمارة شالوم لعمارة الامباير ستيت من عرفان بالجميل . وكان الدخان يتسلل من مداخن المصانع آخذا طريقه بليونة نحو سماء ابيضت زرقتها .

اشعل عادل سيجارتين . وضع احداهما في فم المصاب وقـــال :

ـــ نفـــــخ .

مد الرجل يده السليمة وامسك بالسيجارة وبدأ يمتصها . وكان وقع الصدمة قد خفت قليلا . فبدأت حواسه تعمل من جديد . وبدأ يستوعب ما حدث . وقال وهو يتبادل نظـــرة

طويلة مع عادل :

ـــ اليميـــــن !

وجمـــدت في مآقيه دمعتان .

ـــ انخرب بيتي يا عادل .

وزفر حريقا وهو يتصور نفسه واقفا في الطابور أمام الجمعية بانتظار معونة شهرية . خمسة دنانير ؟ مئة ليرة اسرائيلية . ماذا تكفي ؟ ماذا يشتري بها المرء سوى الخبز؟ وليس بالخبز وحده يحيا الانسان . وبدأت الصور تتوالى في ذاكرته . ذكريات الاشهر الاولى من الاحتلال . ومنـع التجول . وام صابر تدور على البيوت المجاورة وفي يدها وعاء فارغ . والجمعية . والصابونتان وكيلو السكر . والدموع تتدحرج من عينيه وتستقر في غضون خديه .

ـــ انخرب بيتي يا عادل . ايدي اليمين .

ومسح دموعه معتذرا :

ـــ انت لم تذق طعم الجوع . لم تعرف معنى البطالة .

تأمل عادل حقول القطن الممدودة أمام ناظريه وهمس :

ـــ بلــى ، عرفــت .

... كانت المزرعة خضراء كهذي السهول . والاشتال تطاول خصري . واشجار الموز تناطح السحاب . وعندمـا اختفى الرجال في بيارة أبو الحافظ « أحرقوها » . وكـان الدور دورنا . لكن الاشجار احترقت بفعل الظمأ . هجر العمال الارض فماتت . وبقيت وحدي الملم جراح الارض وجـــراح نفسي .

وهز راسه ثانية ونفخ دخانا

ـــ بلى عرفت . عرفت البطالـــة .

ورد ابو صابر بمرارة :

ـــ لكنك لم تعرف نكد السماء . فعندما تلاحق أحدهم بلعنتها تجعل الموت امنية بعيدة لا تطال الا في الاحلام

السعيـــدة .

هز عادل راسه ولم يعلق .

... وهذا ايضا اعرفه . عرفته من خلال الوالد ومن خلال نفسي . بل ربما من خلال نفسي فقط . فهو متشبث بالحياة تشبث الماضي بالحاضر . تشبث الاسبقية بالمجرم . تشبث الفيروس بالخلية الحية . وكل عصارات الحياة في جسدي باتت مسخرة لامراضه .

قال الرجل وهو يلمس ذراع عـــادل :

— لا تزعل مني . ولكنها الحقيقة يا بني . أنت وان جار الزمان عليك تظل ابن الكرمي على سن ورمح . فتظل الابواب مفتوحة في وجهك . ابواب الاغنياء . ابواب البنوك . وأبواب السماء .

استدار عادل بوجهه من وقع النظرات اليائسة

— أنت مخطيء . فالناس لا تعطي الا لتأخذ . وكذلك البنوك . وكذلك الله . وانا ما عاد لدي ما اعطي . المزرعة مرهونة . والـــدار وقف على آل الكرمي جميعا . ولم يبق لدي سوى هذه الذراع .

وانزل يده بسرعة حين تذكر اليد المصابة أمامه . فأحس بالخجل وعاد يتمتم :

— ما عاد لدي ما اعطي . مثلك في الهم سواء . وحد الهم بيننا وساوانا .

ومن خلال الدموع والنزيف والالم المتزايد حشرج ابو صابـــــر :

— لن ينقطع النزيف . السكري لن يتيح مجالا للتجلط . اذا مت فوصيتك الاولاد . دع صابر يترك المدرسة ويعمل بدلا مني .

كنت اريده أن يصبح موظفا محترما يقبض راتبه بالدينار . ولكن لا باس . الليرة الاسرائيلية خير من الجوع . لا تبتئس

يا عادل . ربك موجود . فلنغير الموضوع . الا تقص علي حكاية مسلية كي ننسى او نتاسى ؟

ـ حكاية مسلية ؟

ـ كحكاية أبو زيد الهلالي مثلا او عنتر بن شداد .

واخذ عادل يقدح زناد فكره دون جدوى . وقال ابو صابر وهو يغيب في جو من الاحلام :

ـ أول ما قرأت كتابا استعرته من الشيخ راضي . وكان رجلا لسنا لا يمل المرء من حديثه. كنا نقضي السهرات نستمع لحكاياته المسلية فننسى انفسنا ونطير . ابو زيد الهلالي وسيف بن ذي يزن والف ليلة وليلة . وسالته مرة عن مصادر حكاياته تلك فاعارني كتابا باليا مصفر الصفحات . وأتيت على لكتاب بليلة واحدة . وفي اليوم التالي اجهزت على كتاب آخر ، فآخر ، فآخر . واستبدلت بحكايات الشيخ راضي حكايات يحضرها صابر من مكتبة البلدية . وقرأت الايام وسيرة محمد وتحت ظلال الزيزفون . كما قرأت البؤساء ايضا . كتاب ضخم انهيته في عشرة ايام . اتصدق بأن الجياع أسقطوا القلعة العسكرية ؟

ـ الباستيـــــل .

ـ نعم . هـــو ذاك لكنني نسيت اسمـــــه . اتصدق بأن الجوع يخلق القوة ؟ انا شخصيا لا أصدق . فأنا جربت الجوع ، ولم يجعل مني الا هيكلا عظميا ضعيف النفس وضعيف الجسد . لكن صابر يقول بان ما قرأت ليس حدوته بل تاريخا . ولكني لم أصدق . التاريخ ايضا حكايات يصنعها الناس . مثل حكايات الشيخ راضي تماما . حاولت مرة ان اقص علـــى الرجال حكايات مماثلة فعجزت . ضحكوا مني ولم يصدقوا حكاياتي ولم يستمتعوا بها . وقالوا بانها

مزعجة ومرعبة . فكففت عن ذلك .

وكانت السيارة ما زالت تنهب الارض بجنون . والطريق شبه خالية الا من بعض السيارات المدنية . والتفت عادل بعد دقائق صمت الى الرجل . كان وجهه قد أصبح شمعي اللون . وانحدر بعينيه نحو اليد المصابة . كان القميص قد فقد لونه الاصلي تماما وبات ذا لون أحمر غامق . وتحت اليد مباشرة كان الدم يتجمع في بركة صغيرة ينحدر منها جدول رفيع يتسرب نحو شق الباب النصفي . وكانت الحياة قد بدأت تغادر وجه الرجل . ناداه مشفقا :

ــ أبو صابر . أما زلت معي ؟

همهم الرجل ، وفتح عينين فارغتين مستديرتين وقال بصعوبـــــة :

ــ ما أحوجني لمن يقص علي حكاية أبي زيد الهلالي .

وفكر عادل بأن المأساة ليست جديدة . وأن الحكاية تتكرر في كل يوم . وتمتم معتـــــذرا :

ــ ليتني اعرفها .

(١١)

لطمت أم صابر صدرها وصاحت :

— ايده اليمين ؟ يا كسرة قلبك يا عيشة .

واخذت تهرول بين المطبخ والحمام ، والحمام وغرفه النوم ، وغرفة النوم والمطبخ . ثم وقفت وسط الغرفة الممتلئة بجميع انواع العفش وبدات تندب :

— ومن أين ناكـــل ؟

قال عـــادل مواسيـــا :

— بسترها الله يا ام صابر .

ولم تسمعه المراة . كانت تحملق في وجهه بقلق وحشي . ويدها المتورمة تدق صدرها .

— احنا ما صدقنا يلاقي شغلة تشبعنا . العين طرقتك يا ابو صابر . العين صابتك يا أبو صابر . يا ريتها ايدي ولا ايدك يا أبو صابر .

ردد بخجـــل :

— بسترها الله يا ام صابـــر .

واستمـــرت تنـــدب :

— يا كسرة قلبك يا عيشة . يا كسرة خاطرك يا عيشه . يا سخامك الكحلي يا عيشه .

ومسحت دموعها بكفيها فتلألات الاساور الذهبية فـــي معصميها وخشخشت . حملقت في الذهب وندبت :

— بكره ينباع . كله ينباع . كنت خايفه من عمايل اليهود . كنت خايفه من منع التجول . ومن اليوم صارت حياتنا كلها منع تجول .

واتجهت نحو غرفة النوم وفتحت خزانة ولبست معطف اسود فوق ثوبها البيتي لتقذر بعد أن شدت خصر الثوب بجورب نايلون قديم . وارتفعت أذيال الثوب واختفى تحت المعطف . دست قدميها في حذاء بال ورمت على راسها منديلا اسود . وخرجت وهي تردد توصياتها لكبرى بناتها .

— أوعي الشوربة تفور . فتي الخبز في طشت التوتيا مثل ما قلت لك . لمي الغسيل عن الحبل قبل مـــا الدنيا تشتي . اذا سألت عني أم بدوي قوليلها تجمل استخارة وخليها تشوي شبة وتطلع العين اللي طرقت ابوك . واذا كانت فاضية خليها تروح عند السامريين تكتب له حجاب .

وكان عادل يهبط الادراج بتأن جنائزي . وتضاعف رؤاه وتضخم . أصبح شاملا . متشعبا . كاذرع أخطبوط لا متناهية العدد . وافرازات حبرية تملأ رأسه بسحابات قاتمة السواد .

. . اين الخلاص ؟ الاحتلال . الارض . الاسعاف . كسرة القلب وسخام أم صابر الكحلي . والشبة المشوية وعيز الحســـــود ؟

الاحتلال ! كلمة لها اكثر من معنى . والنفي ! واقـــع نعايشه في لب الوطن . والتعذيب ! هواية يحترفها قوادو السياسة في هيئة الامم . وغوصي يا بلدي في الاوحال ولنقل على الارض السلام .

ورفع راسه نحو السماء . كانت الغيوم الرمادية تتدفق من جهة الغرب . علق بجفاف :

— ستمطــــــر .

فصاحت أم صابر وهي تنزل الدرجات مهرولة :

— لمي الغسيل يا عطاف .

وسارا في الازقة متجهين نحو الدوار . وكان فريد الاطرش

ما زال يتغنى بيوم مولده الشقي . وكيسنجر يبشر بحل لقضية . والاعيان في الصبانة يناقشون تقنيات السياسة الدولية . وام صابر تقرأ آية الكرسي وتهمهم :

— لو كانت ايده الشمال .

... ايده اليمين . ايده الشمال . اي شيء في العالم احسن من مغص الكلاوي . اية عاهة . اي مرض . اية آفة . اي شيء أحسن من مغص الكلاوي . تسمم الدم . تورم الانسجة . تشقق الجلد وعبودية الالة . اية حياة ! اي موت ! موت بطيء لا يقوى البنك العربي بكل فروعه على تسديد تكاليفه . فما بالك بمزرعة خلت من العمال والفلاحين ! حتى شحادة هجرها . لم يبق في الارض الا الشيخ والكلب . وغدا يموت الشيخ ويبقى الكلب . والوالد يمتزج بوله بدمه . وانا عبد الافواه والالة . وأسامة يبحث في عيوننا عن ومضة خجل . وغوصي يا بلدي في الاوحال . ولنقل على الارض السلام !

قال أبو صابر معزيا نفسه :

— بقي لى ابهام ونصف خنصر . احسن من بلاش . والباقي على الله .

وانقلبت حال المرأة النادبة . واذا بأساريرها الرخوة تشتد .

— ولا يهمك يا أبو صابر . سلامتك بالدنيا . بكره صابر يشيل حملك .

.. وانا من يشيل حملي وهمي ؟ نوار ؟ نوار اصغر وانضر من أن تشاركني عبء المأساة . باسل ؟ ما زال بحاجة لفتة خبز . المزرعة ؟ محملة بالديون . وتلك الالة المعونة لا تشبع . فم كباب جهنم يبتلع الليرات لتدفئة عظام الوالد والوالد الصنديد يتربع وسط الديوان محاطا بالوجهاء ، يشربون القهوة ويلعنون سنسفيل العمال . والعمال

يلعنون دين الوجاهات ويحركون اصابعهم الوسطى حين يذكرون اموال الصمود .

وقال ابو صابر حين انفرد بعادل :

ـ هذه المراة جوهرة . تحاول أن تشد أزري بالدعوات والبسملات . لا بأس . مورفين مستحب . لكنني بحاجة للمجديات . بحاجة لمن يقص علي حكايات مسلية لاطير وانسى . ما احوجني لمن يقص علي حكاية ابو زيد الهلالي .

وفكر عادل ثانية بأن المأساة ليست جديدة . وان الحكاية تتكرر كل يوم . وعاد يردد معتذرا :

ـ آسف . لا أعرفها .

(١٢)

دخل البوابة الضخمة . وارتقى الادراج العتيقة الملتوية . فنفذت الى انفه رائحة زهر الليمون في الساحة السماوية . وكانت نوار تجلس أمام أصص الفل والجميل بجانب البركة . والى جوارها جلست فتاة صغيرة القد خالها للوهلة الاولى صبيا .

بدت على نوار حركة انزعاج لدى رؤيته . طأطأت راسها ولم تلتفت لقدومه . ولو كان أسامة في حالة طبيعية لراعى تجاهلها وقدر بانها مشغولة بأمر ما . لكنه كان يبحث عن عادل . وكان يريد لقياه بأي ثمن حتى ولو أدى الامر الى خرق آداب اللياقة .

حين وصلهما وقفت نوار وقد بدا الحرج عليها وتمتمت وعيناها منكستان :

ـ أهـــلا أسامـــة .

ولاحظ احمرار وجهها وجفنيها . توقف ، ولم يعرف ماذا يقـــول . وقالت نوار مشيرة الى زميلتها :

ـ هذه صديقتي لينة . أخت صالح .

وسلم على الفتاة الصبيانية المظهر . وسألها عن حالها وعن الدراسة وعن صالح . فقالت بأن صالح حاليا في المعتقل . وأردفت باسمـــة :

ـ لا بأس . السجن للرجال . ولا يعرف المرء متى يجيء دوره .

وفكر بحسرة ، كيف يمكن ان تجعل الظروف من صديقين كعادل وصالح نقيضين ! فالاول يدعم اقتصاد اسرائيل .

بينما الثاني يرزح في معتقلاتها !

وسأل نوار عن عادل فأجابت بأنه ما زال في المزرعة . وانه لا يحضر في العادة قبل هبوط الليل . وسأل عن الخال فقالت بأنه لدى الطبيب لاجراء الفحوصات المعتادة . وسأل عن باسل فقيل بأنه في الداخل وانــــه متشوق لرؤيته . ودعهما وصعد الادراج الموصلة الى الطابق الثاني مــــن البناء القديم . وقبـــل أن يصل الديـــوان وصلت لاسماعه أصوات نقاش حاد يدور بين الفتيان زملاء باسل . وعرف بأن الفتى سيكون هو الاخر مشغولا عنه . وكان ينوي أن يسلم على ابن خاله ويمضي . لكن الفتى تشبث به وعرفه بزملائه وطلب منه أن يجلس معهم ويشرب فنجان قهوة .

وجلس علـــى مضض وفي نيتــــــه أن يشرب القهوة ويمشي . لكن النقاش الحاد بين الزملاء استرعى انتباهه وجعله ينصت بفضول في البداية ، ثم باهتمام شديد بعد ذلك . كان أحدهم يتحدث بلهجة بدت غريبة لاسماع أسامة . فتلك هي المرة الاولى التي يسمع فيها فتيانا يناقشون قضايا ما كانت تخطــــــر ببال الشبيبة قبل الاحتلال . وكان الفتى المتحمس يقـــول :

ـــ هذه هي الحال . ضغط وقمع في مرحلة الابتدائية . وتدمير للشخصية في مرحلة الاعدادية . وفي المرحلة الثانوية يرهقوننا بمناهج دراسية عقيمة حيث يبدأ الاهل مطالبتنا بالحصول على اعلى المعدلات لنصبح أطباء ومهندسين . وعندما نصبح أطباء ومهندسين يطالبوننا بتسديد نفقات دراستنا . فالاباء لا ينفقون دماء قلوبهم علينا لنعود ونقبض رواتب تافهة في بلدنا . والحل هو الغربة ، والعمل في السعودية وليبيا ودول الخليج . وفي النتيجة تتصفى المنطقة من المتعلمين . ولا يبقى في البلد الا العمال والفلاحين .

وهذا بالضبط ما تريده اسرائيل وتتمناه . وسواء بقينا عمالا وفلاحين أو أطباء ومهندسين ، فالنفسية واحدة والمنهاج واحد . نفسيات ذليلة . وقلوب ضعيفة . ورجال يعملون كالالات ولا يجرؤون على قول كلمة « لا » .

هز أسامة رأسه بذهول .. هذا هو الجيل الجديد . هذا هو الامل . ومن هنا تنطلق الشرارة .

وتنفس بارتياح وتمتم :

— ما زالت الدنيــا بخيـــر .

وعاد ليذكر عادل والمزرعة وأبو شحادة . فتصاعدت المرارة الى حلقه . واستأذن الفتيان ومضى للبحث عــن عـــادل . وكان الظلام منتشرا . ونـــوار ما زالت تخاطب صديقتها بجوار البركة . وسمع اسم صالح يتردد على لسان نوار أكثر من مرة . وكانت تبكي وتتمخط . ولم يستطع منع نفسه عن التساؤل . أيكون صالح هو السبب في بكاء نوار ؟ وما مدى معرفة نوار بصالح ؟ ولم البكاء والمعتقلات مليئة بالمئات أمثال صالح ! أتكون مغرمة به ؟ ولم لا ؟ فنوار شابة في أول العمر . وصالح الشهير شاب غني عن التعريف . لم لا ؟ ولم يستطع منع نفسه عن ذكر امنية أمه الخائبة . فابتسم بسخرية . وأسرع يهبط الادراج نحو البوابة .

(١٣)

شرب عادل كأسين . وبدأت الارض تميد . وعندما تميد الارض من تحتك فكل شيء على ظهر الكرة يموج . وتحاول التشبث بالثوابت . ولكن ، حتى الثبات نفسه يتطوح . وتغرق . تغوص في قاع الاحداث . وتغمرك الايام بتفاهات كالطحالب المائية . مائعة . لزجة . لها طعم يبعث الرغبة في التقيؤ . وكري يا يدي فوق محطات الاذاعة وغلفيني بالاساطير والامجاد وعبادة الافراد . وشعب بأكمله يغرق . يغوص في قاع الاحداث . وصوت الاذاعة يردد أهزوجة الامل المنشود . الامل في الحرية . في البعث . في سعادة الانسان . سعادة أم خرافة ؟ أم هالات لا ترى بالعين المجردة ؟ والعين تعاني قصر النظر . والقلب مفعم بآلاف الحسرات . والايدي مكبلة بآلاف الاغلال . والكلية تعمل أو لا تعمل . ورجل في البهو يتشدق بأمجاد العروبة . وام صابر تتلو الدعاء تلو الدعاء . وغوصي يا بلدي في الاوحال . وعان يا شعب مرارة العين البصيرة واليد القصيرة . واليد تنزف . والسكري يحرم الدم نعمة التجلط . والدار الكبيرة يعلوها الغبار . وأمجاد العائلة تنهار وتنفضح الكذبة . فنحن في الهم سواء .

وكان أسامة ينتظر أمام البوابة .

ــ عادل ، تعال . أريد أن أحدثك .

وما زالت الارض تميد . وكل شيء على ظهر الكرة يموج . وحاول أن يحصر فكره ، وأن يفسر سر الوقفة أمام البوابة في ذاك المساء البارد . تهرب بلهجة تمتعها الكونياك :

ـ نوار بانتظاري .
شده الاخر من ساعده بحزم :
ـ تعال .
ـ في الباب تقف نوار . والابتسامة الملائكية تشحن القلب بالامل المطلق . وكل أمل في المطلق ساذج .
ـ تعال .

ومرا بعشرات الدكاكين المغلقة . وليل نابلس البارد الرطب ينخر الرئتين . والربيع ما زال شتاء . والوحل يلوث الطرقات المهجورة . والناس نيام . وسيارات الداورية لا تنفك تذكر بالعين البصيرة واليد القصيرة . ويد ابو صابر مثكولة الاصابع . أبو صابر هبط . اتسمع الكلمة ؟ تدوي . تطن في الاذن كطبل يرن في قاع واد . وتعني ما هو اكثر من الموت . اكثر من الاحتلال . حرية ؟ اية حرية ؟ ابعد من انفراج السماء عن ليلة القدر . وما ادراك ما ليلة القدر . تنزل الملائكة والروح فيها . والملائكة تبتسم . ونوار أيضا تبتسم . للغد . للمجهول . للامل المطلق . وكل أمل في المطلق ساذج . وهذا الشاب المتحمس البطران بأموال البترول ماذا يريد ؟

قال أسامة بتردد :

ـ ذهبت الى المزرعة اليوم . ولم أجد الا الشيخ والكلب.
والان ستبدأ المعركة . كنا نتوقع هذا . والمعركة ليست جديدة . فالمأساة تتكرر في كل يوم . ولكن دعه يقص علينا حكاية مسلية أفش بها قلب ابو صابر علها تنسيه هبوطه . لكن المعركة لن تتوقف . كما ان الايمان لن يتوقف . ايمان بماذا ؟ وماذا نفعل بالطحالب ؟ والتسعة ينتظرون . والالة بحاجة لفلتر جديد .
اتكأ على الحائط وبدأ يتقيأ . وفاحت رائحة الكحول

والعصارات الهضمية . ومر شيخ يتحسس شارع الزقاق الحجري بعصاه . والظلام شامل الا بصيص نور يرتجف أمام احدى الدكاكين . مسح عادل فمه بكمه . واستمرت الدموع في مسيرتها الصامتة . وصاح مجهشا فجاة :

ــ اقنعني بأن ما اقوم به ليس جهادا ؛ وبأن المعركة محددة المعالم .

ولم يجبه الاخر . استدار برأسه محاولا الابتعاد بأنفه عن مصدر الرائحة القذرة . واصل عادل تقيؤه ومشى يترنح .

ــ ومعركة الامعاء من يخوضها ؟

يخاطب نفسه . ما من داع للاجابة .

ــ خذ عمري واقنعني بأن الحرية تعني جوع العزل . وان في الجوع سعادة . خذ عمري واقنعني .

ــ فأنت تعمل هناك اذن .

ــ اريد امرأة . امرأة في مكان ما ستفتح الباب يوما وتجعلني انفث شهوتي ومرارتي .

ــ شربت كثيرا ؟

ــ لا . كأسين . ثلاثة . أربعة . لا أدري .

ــ منذ متى بدأت هذي الحال ؟

ــ أيام . أسابيع . اجيال بأكملها . لا أدري .

وكلمات الشيخ المعهودة ما زالت تطن في أذنه .. انا داري .. انا داري !

قال اسامة بأسف :

ــ لا انت دار ولا هو . فمن يدري اذن ؟

رفع عادل رأسه . والسماء يختبىء فيها القمر

ــ اسأله .

ــ ومن يحلها ؟

ــ اسأل عمتي العزيزة .

ـــ مأســـاة . مهزلـــــة .
ـــ نعم . هـــي كذلـــك .
كـــزر قبضته بغضب
ـــلا . ليست كذلك . انت هنا تسكر وفتاة في الغرفة الخشبية تصيح يا كلاب !
ـــ انا هنا أسكر . وفتاة في غرفة خشبية تصيح يا كلاب ! وابو صابر مصلوب على فراش قذر . مهزلة . نعم مهزلـــــة .
ـــ ليست كذلـــك .
ـــ أنت قلـــت . أنت تقـــــول .
ـــ هذا ليس عصر المسيح . تذكـــــر .
ـــ عصر التماسيح .
ـــ أو الماسح .
ـــ اتل علي اذن من آي ابي زيد الهلالي عساي انعش بها قلب المصلوب .
ـــ تعال . قف هنا أمام المقهى . اشرب قهوة . وافتح أذنيـــك .
ـــ لا تخاطبني بجدية . لن استوعب .
ـــ اشـــرب . اشـــرب .
ومشيا ببطء . ليل نابلس البارد الرطب ينخر الرئتين .
والربيع ما زال شتاء . والوحل يلوث الطرقات المهجورة .
ـــ أسمع . هناك اوامر بنسف باصات العمال . خذ حذرك . نبهتك . قمت بواجبي تجاهك وارحـــت ضميـــــري .
ـــ ضميرك ! وماذا عن الهبوط ؟ الا يكفي أبو صابر ؟ فمن يطعم الاطفال ويستر عورات النساء ؟ واذا ترملت النساء فمن يتزوجهن ؟ واذا تزوجن سيرمي الازواج اولادهن في الشوارع . وسيتسكع الصبيان

في الازقة يدخنون .

ـ هم يدخنون رغم وجود الاباء . فما نفع الاباء اذن ؟ يسيئون تربية الجيل الجديد ويشوهون أمجاد الصمود .

ـ امجاد ؟ الا تقيسون الانسان الا بأمجاده ؟ وضعفه وقسوة الحياة والمجتمع ؟ والتركيب المهترىء والاحقاد المتبادلة ؟ نسيت انا الاحتقاد لاني تمتعت بنعمة الاسطورة . لكن شحادة لم ينس . وتركني شحادة . تركني وحدي رغم العيش والملح . أتذكر طفولتنا ؟ أتذكر كم لعبنا تحت التينة الخرطمانية ؟ وكنا نرش البتر بخرطوم الماء . وكان شحادة يبول في جرن العلف . اتذكر ؟ ما زالت لديه تلك العادة القذرة . وقد تبول على المزرعة برمتها بما فيها أنا . انا لم أسيء اليه . تربينا معا . لكن الوالد مارس أعراض اهتراء الكلى فاصبت بالمغص أنا . أتعرف ؟ مساء الامس سمعته يقول للصحفي اشياء مضحكة . وكان يندب امجاد العروبة والفرنسي يقوم بتعزيته على خير وجه . كان يقص عليه حكايات مماثلة من تاريخ فرنسا . كان الوف الفرنسيين يعملون في مصانع هتلر الحربية . أتصدق ؟ أحسست بالعزاء . وضحكت اليوم في الباص لاول مرة . زهدي قص علينا حكايات مضحكة عن نصائح ركن المرأة وعن بمبة فقعت في مصنع الورق . هيء هيء هيء .

هز أسامة رأسه وتمتم :

ـ الكلام مع السكارى عبث ! انت سكران . ادخل البوابة واصعد الى غرفتك فورا ونم . انت سكران .

وبدا عادل في صعود بعض الدرجات . ثم وقف وواصل

هذيانـــــه :

ـــ أينا ليس كذلك ؟ بعضنا بنشوة الصمود . وبعضنا بأمجاد القتال . ونحن بمغص الكلاوي . مغص الكلاوي مزعج . أصعب من الآم المخاض . لكن آلام المخاض تعقبها ولادة . نحن ننمغص وأنتم تتمخضون وتعيروننا بعدم الولادة ! ماذا نلد ! هل لقحنا النهر المقدس ولم نلد ؟ غوصي يا بلدي في الاوحال . ولتطف على السطح الاف الطحالب . ولنقل على الوطن السلام . ولنقل على الارض السلام .

(١٤)

مشى يتخبــط في الطرقات الموحلــة واصوات الباعة المتنافرة تخترق اذنيه . خضروات ولحوم وفواكه .. وبائع الخبز يملأ عربته بقوالب الخبز المصنوعة هناك ..

ــ طازه يا خبز . الحق الحق . بليرة القالب . ليرة القالب . ليرة . ليرة .

ومر رجل بطربوش صامد فوق رأسه . امسك برغيف طويل . جسه ثم تركه . ناداه البائع ... طازه وحياة شواربك .

استمر الرجل في سيره . لوح بيده ... طازه ! البايز هناك بتبيعوه هون .. واستمر في سيره . واختفى في أحد الازقة . وكان اسامة يرقب المشهد بغيظ . يتساءل بحسرة : حتى الخبز ! وتكاتفت كل العوامل ضده فاشتعل راســه بالغضب . اقترب شاب أنيق من البائع . سأله بشراسة :

ــ من أين هــــذا ؟

استاء البائع . تلفت حوله خوفا من وجود زبائن اخرين . وخوفا على بضاعته من الكساد .

ــ هذا خبز يا أستاذ .

ورأى في عيني الشاب ملامح الهجوم فاتخذ موقف الدفاع .

ــ هذا خبز يا استاذ ، وكمان الخبز له دين وملة ؟ هذا خبز ممتاز مثل الذهب .

أمسك الشاب بقالب خبز ورأى عليه طابعا يحمل حروفا عبرية . وكان القالب جافا كجذع زيتونة رومانية . قال بغيـــظ :

ـــ خبز من هناك . وجاف كمان ؟ يا عيب الشوم .

ويبدو ان البائع كانت له ذكريات مع هذه الكلمات بالذات اذ اتخذ موقف التحدي .

ـــ نعم يا سيد من هناك . واللا من فين ؟ كله من هناك يا أستاذ . كله من هناك. مش عاجبك اتـــرك وخلينا نترزق .

ردد الشاب باشمئزاز :

ـــ يا عيب الشوم !

تلقى البائع الاهانة بغضب وبدأ ينعف :

ـــ عيب ؟ نزلت اشتغل هناك قلتوا عيب . قعدت في الدار مثل النسوان قالوا عيب . بعنا الخبز قلتوا عيب . وانت يا أستاذ لابس بنطلون عالموضة وقميص مكوي وبتقوللي عيب ! يا عمي مش احنا اول ناس اشتغلو معاهم . لما كنا لسه دايرين في شوارع نابلس ندور على خبز كنتوا حضراتكم دايرين في شوارع تل ابيب تدوروا على شركات تسلمكم وكالات . مضبوط واللا لأ يا أستاذ ؟ قول مضبوط واللا لأ ؟

وامسك بقالب خبز يلوح به في وجه الشاب والزبد يتطاير من فمه على قوالب الخبز

ـــ مضبوط واللا لأ ؟ احكي ؟ على دينك تحكي .

كان الشاب يحملق في وجه البائع بانشداه . قلبه يضرب بانفعال . وقد غطت فمه وعينيه ملامح الهبل . تماسك . قال متراجعا .

ـــ طيب بيع خبز عربي .

رمى البائع القالب على العربة وبدأ يتحرك . والشاب ما زال ممسكا بقالب الخبز . ومشى بضع خطوات . تبعه الشاب بقالب الخبز ... استنى ... خذ ..

مد البائع يده بشراسة

ـ هات .. خلي غيرك يشتري . انت باين عليك مــن الناس اللي فوق . هات . الناس اللي تحت بشتروا عالساكت وبدون تحميل جمايل ..

وظل يمشي وكلماته تمشي معه .

ـ واحد يقول الخبز جافر . والثاني يقول باير . والثالث يقول عيب . زحتونا . خلونا نترزق . يا الله الخبز . طازه يا خبز . مين بده خبز ببلاش ؟ ببلاش الا ربع يا خبــز . مين بده خبز ببلاش ...؟

والتم بعض الصبية حوله واشتروا بدون نقاش . ومشى اسامــة .

احساس بالغربة والعجــز . احباط يدثر كل الناس بما في ذلك نوار . نوار . نوار ! نوارة الدار تبكي . دموع . مرض . غبار . وعدم وضوح في الرؤية . وعادل يقــول للصورة أكثر من بعد واحد . اي بعد ! ليس هنالك الا بعد واحد . واقع واحد . واقع الهزيمة والاحتلال . احتلال هذا ام انحلال ؟ سيان يا بلدي سيان . وهذا الشعب يهزمني اكثر من اسرائيل . وعادل سند العائلة كلها قد دمر ايضا . ماذا بقي ؟ باسل والفتيان ؟ هؤلاء ما زالوا صغارا . يــا صبر ايوب . علينا أن ننتظر طويلا حتى يكبر الاولاد . ولكن ما يدرينا بأن كل فرد من هؤلاء لن يتحول الى عادل جديد ؟ عادل .. والقلب المفعم بالحسرات . والرسغ الموغل في الاصفاد . وكل الثقافة . وكل النظافة ! غوصي يا بلدي .. ولكن لا ! لن تغوص البلد . سيظل فيها اناس يؤمنون بالمستحيل . ارادة الانسان اقوى من المستحيل . وفلسطين في القلب يا نيرودا . في بؤبؤ العين في لب الحياة . وهؤلاء الناس . بجهلهم . بحزنهم . بخبزهم الموصوم بدمغة عبرية . ما زالوا اهلي . وردد يا شيخ ردد . يعيش اهل بلدي .

وغيرهم ما فيش . جيفارا لم يمت يا شيخ . ما زال معي . في هذا القلب . وفلسطين في القلب يانيرودا . في بؤبؤ العين في لب الحياة . ولتنسني يميني اذا نسيت .

نظر في ساعته . اقترب العصر . وما زال في الوقت متسع . عادل لن يجيء قبل الغروب . أدور في الشوارع . اشتري الخضار . أمر بالبقال . واسمع كلام الناس . والحاج عبد الله يسأله بلهفة :

— انت اسامة ؟ بسم الله ما شاء الله . اهلا وسهلا يا الف مرحب . حمد الله عالسلامة . كيف الحال يا ابني ؟ وصحة الوالدة ؟ لم ارها منذ يومين فقلت يمكن المحروس وصل . أهلا وسهلا يا الف مرحب . اجلس يا ابني . والله العظيم ما انت قاعد في الباب . الا في الصدر . في مكاني أنا على الكرسي الكبير . استغفـــر الله . اقل من الواجــب يا ابني . بدنا الرضى . رز ؟ ٣ كيلو ؟ حاضر من عيوني . هات يا رضوان . اعطي الاستاذ ٣ كيلو رز واتوصى . الاستاذ أسامة غالي علينا . ابن الناس الطيبيـــن والاصل الدهب . ايوه يا سيدي من عيوني . و ٣ كيلو سكر كمان . هذا فسيخ نظيف انصحك به . الست الوالدة كانت ترفض شراءه . ما انت عارف . الضغط لا يلائمه الفسيخ . لكنها طلبت مني ان اخبيء لها نصف كيلـــو خصوصي علشانك . الامهـــات ! قلوب دهب . يذكرن الابناء حتى في قبورهن . كنت اقول لها . للمرحومة . يا حاجة زهرة ارضي على ابنك . فتقول . روح يا عبد الله الله يجعل لك في كل خطوة سلامه ورزقة . والحمد لله مستورة . بس الغلا . الغلا نار كاوية البلد . والناس اللي كانوا يشتروا كيلو صاروا يشتروا نص . الموظفون

المحترمون اللي مثل فضلك في حاله لا يعلم بها الا الله . بس العمال يشتغلوا هناك وحالهم دهب . شايف الولد المفعوص اللي قدامك ؟ اقترب مني بلاش يسمع . هذا يا سيدي لا يرضيه أقل من ١٠ ليرات في اليوم . ثلاثمية ليرة في الشهر ورحمة والدك . وياريت عاجبه . وكل شهر والثاني يطلب زيادة . قال ايش الدنيا غلا . يعني الغلا عليه وحده ؟ ما انا ماكـل السكين بحدين . بس الحالة مستـورة والحمد لله بفضل رضى الحاجة زهرة . ماتت وهي على سجادة الصلاة . على الجنة طوالي . كانت اطهر من ستنا مريم . الله يرحمها ويحسن اليها . اتفضل يا سيدي قهوة . والله انت الاول . بن عدني مفتخـر . عندي محمص بن ومطحنـة عالكهربا . اشتريتهم بعد الاحتلال . ابني بكر ماسـك الشغل هناك . ولد قد حاله . على كيف كيفك . الحمد لله . الخلف الطيب يسند الظهر . بفضل رضـى الحاجة زهره . والمحمص ماشي عال . والحالة دهب . صحتين يا ابني . خذ فناجين القهوة يا رضوان . شايفه ؟ مش طالع من الارض ولسانه اطول منه . انا عارف ! قبل الاحتلال كنت مستخدم بدل الواحد ثلاثة . وكانوا ماشيين مثل الساعة . بعد الاحتلال فسدوا وصاروا يحاسبونا عالمتلك . الله لا يشبعهم . وقحت عينهم وصار للواحد فيهم لسان . ويا ويلي اذا قلت لرضوان كلمة هيك والا هيك . تلاتمية ليرة في الشهر ومش عاجبه . قال الدنيا غلا . هوه الغلا عليه وحده ؟ ما كلنا في الهوا سوا . اهلا وسهلا . ابني عارف في سنك . شاب يعجبك . فتحت له المحمص السنة الماضية . زوجته

وقلت له توكل . ورشدي علمته دكتور . السنة الجاية يتخرج وبكره يصير يقبض دهب . شغله مضمونه . والمرض اكثر من الهم عالقلب . عندما يتخرج سيعالج الوالدة المصونة . الضغط يا ابني صعب ويلزمه ملاحقه . والفسيخ مضر للضغط . بس هي كل ما شافته بتذكرك . اهلا وسهـلا . شرفت . نورت . يا ألف مرحب .

ـ باسـل ؟

ضحك الفتى ضحكة صافية حيية . كان يحمل كتبه بيده . أحد زملائه ينتظره في الخارج . وصافح الرجلين وجلس على كرسي صغير بجوار الباب . وسأله اسامة عن أحواله :

ـ كيف دروسك يا باسل ؟

ـ ماشي الحال . وانت كيف وجدت البلد ؟

ـ ماشـي الحـال .

فلسطين في القلب يا نيرودا

وسأله الحاج عبد الله :

ـ كيف صحة الوالد اليوم . ان شاء الله أحسن ؟

ـ ماشـي الحـال .

وامسك الفتى بزجاجة الكولا يجرعها بنهم . واستدار بعينيـه :

ـ أيـن هانـي ؟

وفسـر البائـع :

ـ هاني ابني الصغير . سأعرفك به يوما يا أستاذ اسامه . ولد شيطان يدوخ قبيلة . وانت يا باسل كيف دروسك ؟ واللا السياسة ماخده عقلك ؟ يا أستاذ أسامة . سأشكو لك هؤلاء الاولاد . كل يوم يجتمع الاولاد في باب الدكان وينزلوا في ساحـة السياسة باصرة . ومن ديان لاشكول لجولدا مائير

للسادات وعرفات لحد ما الدنيا تليل . أقول لهم دروسكم يا أولاد . يقولوا ماشي الحال . وعلاماتكم يا اولاد . ماشي الحال . وسيارات الدورية يا أولاد . ماشي الحال . أنا عارف ! جيل ما يقدر عليه الا الله . قرب أحسن حدا يسمع . أنا خايف هـا الاولاد يعملوا عمله وندور احنا نترجى رئيس البلدية والصليب الاحمر . ما انت شايف اللي في السجون . الواحد يدخل عرضين وطول ويخرج قد هالفسيخة . ما انت عارف . وسيارات الدورية دايما رايحة جاية والواحد ايده على قلبه .

— يا حاج عبد الله خليهم يتكلموا . خليهم يفكروا .

— بس أنا خايف يعملوا عمله . وهاني ولد مجنون . والله ما أنا قادر أدبره . كل ما اقول له اعقل يقول ماشي الحال . والله ما أنا عارف ايش آخرتها ! قل لي . الاخبار بره كيف ؟ نصدق الاذاعات ولا نصدق عيونا ؟ يعني فيه حرب ؟ معقول العرب يقدروا على الحرب ؟ واحد من الدوريـة قاللي هداك اليوم : بكره نوصل أسوان . وابن خالك مش يظل ساكت . لا . فتح فمه وهات يا كلام . هو يتكلم وهاني يتكلم . وخرج اليهودي وعيونه تقدح شرار . ومن يومها وسيارة الداورية رايحه جايه وجايه رايحه . وابن خالك يظل قاعد في الدكان يتكلم وهاني يسمع . انا خايف يعملوا عمله يوذونا في ستين داهية . اليد لا تباطح مخرز يا استاذ أسامه . مضبوط واللا لا .

— خليهم يا حاج يتكلموا . خليهم يفكروا .

— بس يا ابني وآخرتها ؟ والكلام ماذا يفيد ؟ ٢٥ سنة واحنا نتاجر بالكلام . تجارة خاسرة مية في المية . تجارة الفسيخ أحسن منها .

قال باسل بانفعال :

ــ نحن لا نتكلم فقط .

التفت الاثنان اليه . احمر وجهه . خبأ انفعاله بضحكة صبيانيـــــة :

ــ وندرس كمــــــان .

وابتسم الثلاثة . وحمل أسامة الحوائج وتوجه نحو الدار .

(١٥)

في الغروب نزل الى المدينة يبحث عن عادل . وقــف بجوار مبنى البلدية حيث تفرغ باصات العمال حمولتها . ونزل عادل بلباس العمل وبرفقته عامل آخر عريض المنكبين. قطب عادل جبينه وحيا .

— هذا زهدي ، زميلي . وهذا اسامة ابن عمتي .

وسكت . وما عاد بالامكان اخراجه عن دائرة صمته . واستلم زهدي الجولة .

— اهلا وسهلا . حمد الله عالسلامة . ما أخبار بره ؟ طمئني . سيحارب العرب أم لا . اذا استمرت الحال بهذا الشكل سأهاجر .

— الى اين يا زهــدي ؟

— للكويت للبحرين لاستراليا كله واحد .

— عيب يا زهدي . البلد بلدنا وبكره الاحتلال يزول ونتحــــرر .

— هوش يا سيدي هوش . الاذاعات تقوم بالمهمــة خير قيام وما فيش حرب ولا ما يحزنون . لايمتى نصبر عالحال المايل ؟ انا يا سيدي زهقت ، والله العظيم زهقت . لا احنا خالصين من اهل البلد ولا خالصين من العكاريت اللي هناك . علي الطــلاق بالثلاثة لولا العيال لاخرج لسوريا وارجع بكلاشن . بس العين بصيرة والايد قصيرة . والا لا يا عادل ؟

تذمــــر عــادل

ـ يا الله يا جماعة أبو صابر بالانتظار . وعدناه أمس بأن نمر به .

ومشوا بصمت . وتوغلوا في أزقة البلد القديمة . ومروا بدكان الحاج عبد الله . وكان الفتيان يعتقدون جلستهم المسائية ويلعبون بالسياسة . وصاح بهم هاني الذي كان يحتل كرسي الوالد .

ـ تفضلوا يا جماعة . فنجان قهوة . قنينة كازوز .

وضحك زهدي واطلق تعليقا بذيئا رنت له أصداء ضحكات الفتيان . ورفع عادل يده محييا والعبوس يملأ وجهه . وابتسم أسامة ووعد الفتيان بزيارة لمجلسهم . ليس الان بالطبع . في يوم اخر .

وكان زهدي يتكلم وأسامة يستمع بينما كان عادل يواصل سيره بصمت وشرود .

ـ لم يبق في الدنيا شغلة الا اشتغلتها . اشتغلت ميكانيكي وكهربجي وبنا وعتال وسفرجي وكل ما يخطر على بالك . وتغربت أكثر من مرة . للكويت والظهران والمانيا . مصانع المانيا أكلت من جلدي راقات . وهناك لم أكن أحس بأي فرق بيني وبين أي عامل آخر . أما هنا فالفرق شاسع ما بين محمد وكوهين . الشغلة الثقيلة لمحمد والخفيفة لكوهين . وللعمال اليهود غرف طعام فيها طاولات وكراسي . أما نحن فنجلس على الارض لنتناول طعامنا تحت الشمس أو في الكراج بين الخردة والزيت والشحمة . واللا لا يا عادل ؟

ولم يجب عادل . كانت الجراح تحفر أخاديد عميقة في وجهه وقلبه . ورمقه أسامة بطرف عينه فأحس بالخجل . غض بصره .

وكان زهدي يتكلم ويقوم بحركات واسعة بيده .

— على راي أبو صابر الله يكون في عونه . الاولاد مثل الجراد . يأكلون الاخضر واليابس . قبل يومين وضعت أمام الطفلين دجاجة بأكملها فلدعوها . هي في الخامسة . وهو في الرابعة . وأكلوها كلها . بلحمها وجلدها وأجنحتها . مصمصوا عظامها . صحتين وعافية . فمن أجل من أعمل اذن ؟ والليلة أكلنا راس وكرشات . اللجن كان مليان لعين ابو دينه . فتة خبز ورز ومرقة والراس والكرشات . أكلناهم وطلعنا ملحوقين . ومتطلبات الحياة كثيرة . والاسعار نار الله الموقدة . وعدا عن اللحم هناك الخبز والخضرة والفاكهة وماء وكهرباء والذي منه . وبعد ما رجعت من الكويت اشتغلت في معصرة زيتون . صاحب العمل حاول أن يستغلني بسبب قلة الاشغال . قرفت . وخرجت من عنده بعد ما نشيت هداك الطلاق اني ما أرجع عنده ولو أموت من الجوع . واشتغلت على خط رفيديا سواق سرفيس . وكانت الحالة مستورة . وسحبوا مني العرصات الرخصة . بدون سبب وحياة شواربك . وقعدت في الدار مثل النسوان . وفي يوم كنت قاعد في القهوة وايدي على خدي . كان في جيبتي ٧٠ قرش بالعدد . قال لي أبو النوف ما رأيك ؟ الشركة الفلانية بحاجة لسواق . . فكرت بالموضوع . قلت يا زهدي يا أبو العيال بدل ما تهاجر وترتمي في بلاد الناس خليك في بلدك وحط راسك بين الروس وقول يا قطاعين الروس . يعني أحسن من الغربة . والغربة مرة يا محترم . انت جربت الغربة . أنا كنت متغرب من بلد لبلد على ٤٥ دينار كويتي . يعني٣٤ دينار أردني.احسبهم . وكنت ساكن مع أربعة في غرفة مثل الزنزانة . ولما يشرف الطوز كنا نشوف نجوم الظهر الحمرا . ايش اقول لك ؟ الغربة مرة وبس . قلت يا زهدي

مالك ومال الغربة خليك في بلدك أحسن . سألت أبو النوف : اشتغل تهريب واللا ليشكا ؟

سأله أسامة مستطلعا :

ـ ليشكـــا ؟

ـ اينعم يا محترم . ليشكا يعني بواسطة مكتب العمل . أتعرف ؟ الشغل ليشكا مضمون . ولو كان أبو صابر اشتغل ليشكا لحصل على تعويض .

ـ أبـــو صابـــــر ؟

ـ الا تعرف أبو صابر ؟ ستراه حالا . طارت أصابعه . كانت تلعبط قدام المنشار مثل سمك السريدة .

كما لو كان يشهدها فعــلا تمثلت الصورة امـــام عيني اسامة . استدار بوجهه باشمئزاز . وعندما عاد ينظـــر باتجاه الرجلين كان عادل يتفحصه باشمئزاز أكبر .

أعرف يا عادل بماذا تفكر . أعرف . تتهمني بالبرجزة . سبحان مغير الاحوال . لم يبـــق الا ان تعيرني بالبنطلون والقميص المكويين كما فعل بائع الخبز . أهذا ما يسمونه بالانسلاخ الطبقي ؟ لا لا ، الانسلاخ الطبقي يكون بالفكر فقط. اما وضع عادل فهو انحدار وأي انحدار .

واستمرت أصابع أبو صابر تقفز في مخيلته ، وما زال الدم يجري في عروقه باردًا لزجا . وخطر له خاطر تلقاه بفزع ... هل سأتمكن من القيام بالمهمات المطلوبة ؟ وكيف أقتل الناس وأنا أشفق على خروف العيد من الذبح ؟

يذكر تلك القصيدة جيدا . في طولكرم جاءهم الوالد بحمل أبيض بلون الثلج المندوف . تلقاه أسامة بالاحضان . وكان يطعمه ويدلله ويلاعبه كما لو كان طفلا من الاطفال . كان يضعه أمام مرآة الخزانة فيظن أن خروفا آخر يترصد له . فيتراجع الى الخلف بضع خطوات ثم يهجم ، ولو كان قرناه

اكبـــر من حبتي التوت لانكسرت المرآة ولقامـــت قيامة أم أسامة . لكنه كان صغيرا بحجم سلة زهدي هذه . وكان سمينا ملظلظا كالكرة المنفوخة . وكان صوفه بلون الثلج المندوف . وذبحوه يوم العيد . وبكى اسامه . أضرب عن الطعام . ورثاه بقصيدة تندرت بها العائلة أسابيع طوالا . ولم يفهم القصيدة الا عادل . سبحان مغير الاحوال .

وكان زهدي يتكلـــم :

ـــ رفضوا اسعافه . أتصدق . لانه لم يعمل بليشكا . كان ناوي يتهرب من الضرائب . ضمان اجتماعي لا نتمتع به أبدا . وبدل تنظيم . وتأمين وطني .

ـــ تأمين وطني ؟

ـــ اينعم يا محترم . تأمين وطني للدفاع عنك في حالة الحرب . والضريبة يا حبيبي هي ضريبة التحرير ان غابت عنك . انت حاليا في المناطق المحررة . الم تسمع اذاعة اسرائيل تعلن هذا سنة ٦٧ ؟ أنت الان محرر يا محترم . اذا كنت لا تصدق فاســـأل الادونـــات .

ـــ ادونـــــات ؟

ـــ هو هو . انت لا تعرف هذا ، صحيح . انت ما زلت في بداية عهدك بالتحرير . بكرة تتعلم . أدون وجيفيرت واسلخلي وشالوم . كل هذا يعني أنك مؤدب ومهذب . أما عرافيم فتعني انك لص قذر وخنزير ابن قواد . آخر مرة سمعت فيها كلمة عرافيم كانت من سائق ايجيد . لعنت امه بعزا أبوه . لم يسمع ما قلت ولم يفهم . على الاقل فشيت قلبي . سلاحنا الوحيد يا ابن الاجاويد . والحالة زفت والاجر مضمون . يسحبوا الارض من تحت رجليك ويقولوا يا حبيبي . عكاريت لا يحترموك الا وهم محتاجين لذراعك .

وعندما تهبط لا يكلف الواحد منهم خاطره بـــرد السلام . الحالة في الكويت كانت والعياذ بالله . بس علقم ابن دينك ولا عسل عدوك . ما رأيك ، بماذا تنصحني ؟ هل أغادر لالمانيا او الكويت أم أبقى هنا ؟ مالك يا أستاذ ؟ انا اسالك . أغادر البلـــد أم أبقى فيها ؟

ــ سأله أسامـــة بحيـــــرة :

ــ تسألني أنا ؟

ــ اينعم يا أستاذ . مع من أتكلم اذن ؟ لم تكن تسمعني اليس كذلك ؟ ماشي الحال . لست أول انسان يفعل هذا . بسيطة . نحن نتكلم والاخرون يهزون رؤوسهم ولا يسمعون . بسيطة . الباب من هنا . اتفضل . لا والله انت الاول . عيب يا أستاذ انت ضيف علينا.

(١٦)

دفع الباب الخشبي بيده . صر الباب بنزق . ودخلوا باحة صغيرة مبلطة بالحجارة القديمة . أمام الادراج اقعى سطل زبالة يسيل منه ماء أسود بلون القزحة . والى يمين السطل جلست طفلة في الرابعة على الارض القذرة ممسكة بخرقة لا لون لها . تغمر الخرقة في قناة يركد فيها الماء . ماء قذر على وجهه قشطة صابون . وكانت تضغط الخرقة وتعصرها بيديها مقلدة بذلك كبار النسوة .

رفعت عينيها ونقلتهما بين الثلاثة ثم استقرتا على وجه أسامة . أحدثت النظرة الطويلة في نفسه احساسا غير متوقع من القلق . حاول الهرب من خجله . فأخذ يتلفت حوله . ولم ير الا القذارة والبؤس . صدمت أنفه رائحة العفونة والنتن . انقبضت روحه وتوترت أمعاؤه . وعادت النظرة تلح عليه وتلاحقه باصرار .

أهذه نظرة طفلة ؟ لماذا يفقد الاطفال براءتهم ؟؟! لماذا تعاديني ؟ لكأنها تعرف ....!

اقترب منها عادل ، قرص خدها الملسوع بالحمرة وناولها اصبعا من جوز الهند . تناولت الاصبع ولم تبتسم . لم تكن جميلة . ولم تكن مريحة للنظر . سألها عادل مبتسما :

ــ أين اخوتك ؟

لم تحول عينيها عن أسامة لكنها أجابت بعبوس :

ــ في الشارع .

ارتقوا الادراج ووقفوا أمام الباب المعلق في أعلى الدرج .

وصاح زهدي « يا أبو صابر » . أطلت امرأة في الاربعين . بدينة . في وجهها آثار الكلف . تحمل في معصميها ما لا يقل عن ربع كيلو من الذهب ، وألف تساؤل يراود نفسه .

رحبت بصوت أجش وفمها لا يكف عن اطلاق الدعوات. وهناك بين ضروب العفش المختلفة كان يتمدد أبو صابر على سرير من الصاج . كان غارقا تحت تلال من الاغطية ، ويده المصابة ملقاة على وجه السرير . رفع رأسه ، حاول رفع جثته . أسرع اليه عادل وأعاده الى وضعه السابق وهو يكلمه بصوت يشبه الهمس .

قالت المرأة « اتفضلوا » . فجلس كل منهم على كرسي في مكان ما . وطلب أبو صابر وسادة أخرى وضعتها أم صابر تحت رأسه وبدأ يرحب بالحاضرين . وقال عادل :

— هذا ابن عمتي أسامة ، جاء ليطمئن عليك .

— أهلا وسهلا . شرفت . كلفت الخاطر يا أستاذ .

وتشعبت الاحاديث واستقرت حول تعويض العطل والضرر الذي أصاب أبو صابر . وكان عادل يبدي اهتماما جادا بالموضوع ويقول بأن التعويض حق قانوني لا بد من الحصول عليه بالرغم من عدم وجود اذن العمل . وتدارسوا الامر باسهاب وأسامة يرقب ابن خاله بقلب مقبوض .

أمن السهل اقناعه بالتخلي عن موقعه الحالي وهو مندمج فيه بكل هذا الحماس ! ليشكا وشالوم واسلخلي . يا لها من حضارة ، ويا لها من ورطة . كف عن هذا يا عادل وارفع رأسك . مرض . غبار . عدم وضوح في الرؤية. للصورة أكثر من بعد واحد ، بعد الهزيمة والاحتلال . احتلال هذا أم انحلال ؟ سيان يا بلدي سيان . وهذا الشعب يهزمني أكثر من اسرائيل . يا صبر ايوب . علينا أن ننتظر طويلا حتى يكبر الاولاد . جيفارا لم يمت يا شيخ . ما زال

معي في هذا القلب . فلسطين في القلب يا نيرودا . في بؤبؤ العين في لب الحياة . ولن تغوص البلاد . سيبقى فيها أناس يؤمنون بالمستحيل .

سأله ابو صابر فجأة :

ـــ وماذا في الخارج ؟ أهناك بشائر حرب أم لا ؟ طمئني .

قال أسامة زافرا وهو يتأهب لحملة توعية من النوع الحامـــــي :

ـــ الاعتماد على الموجودين هنا .

تبادل ابو صابر نظرة طويلة وعـــادل ، لاحظها اسامة فاحمر وجهه وقال بحدة :

ـــ الناس في الخارج يؤكدون بأن الاعتماد على الناس الموجودين في الداخل .

مد أبو صابر يده السليمة يلمس بها يد عادل

ـــ قل له يا عادل .

لم يجبه عادل بل واصل تدخين سيجارته بصمت . وتذمر زهـــدي

ـــ تكلم بالعربي الفصيح ، فيه حرب واللا لأ ؟

أجاب أسامـــة بعنـــاد :

ـــ الاعتماد على الناس الموجودين في الداخل .

لوح زهدي يده بنفاذ صبر

ـــ اذن ما فيش حرب .

ـــ لأ فيه ، ولكن لا أحد يستطيع تحديد الوقت .

صاح زهدي بعصبيـــة

ـــ ايمتى ؟ يا ناس ايمتى ؟ خمس سنين يا عالم التعن أبو دينا . علي الطلاق بالثلاثة انه طوز الكويت أرحم .. اشهدوا يا جماعة ، اذا استمرت الحال أكثر من ست سبع اشهر والله ما انا قاعد في هيك بلد .

ونظر في وجه عادل ، فخفض صوته قليلا وقال بلهجة

اقـــل حــــــدة :
ـــ صحيح ان البلد للي فيها ، بس للصبر حدود يا جماعة.
وتلفت حواليه بانتظار كلمة تشجيع ، ولما لم يجد عاد
يرمق عادل بقليل من الخجل .
ـــ مضبوط مصيبتي أهون من مصيبة غيري ، لكن الواحد كل ما يتصبح بهم ويسمعهم يقولوا عرافيم يكفر بربب العروبة . للصبر حدود يا عالم . يوم يقولوا يارنج ويوم يقولوا كيسنجر ويوم يقولوا عزرائيـــل قباض الارواح لما الواحد روحه طلعت . واحنا هون نخرا وندفن وجاي الاستاذ أسامة يقول الاعتماد على الناس اللي جوه . قل له يا عادل بحياة والدك . قل له بأن الناس اللي جوه التعن دينهم . قل له بأن اسرائيل نسفت ٢٠ الف دار وأربع قرى . قل له بأن المعتقلات طافحة والشباب فيها مثل الصراصير في حمام الريشة. قل له عن ابن البحش وبنت الشخشير وبنت الحواري. والاضرط من هيك انه احنا بطولنا وعرضنا مجبورين نشتغل في كرخاناتهم عشان نعيش .
وقف أسامة محتدا . رفع يده بالتحية
ـــ سلامو عليكم .
ولم يتحرك عادل من مكانه . ووقف زهدي ومد يده
ـــ على فين يا أستاذ ؟ مالك يا سيدي نزاق ؟ احنا لسه قلنا كل اللي عندنا ؟
أمسك أبو صابر بذراع عادل
ـــ الحق به يا عادل . عيب ، الرجل لم يشرب القهوة .
قال عادل بهدوء ظاهري :
ـــ بلاش يشرب .
قال أبو صابر معاتبا زهدي :
ـــ الحق عليك يا زهدي ، انت زعلت الرجل .

رد عادل مستدركا :

ــ لا لا ، زهدي لم يقل سوى الواقع .

ــ ماذا أغضبه اذن ؟

ــ لا يريد أن يسمع .

ابتسم أبو صابر ابتسامة صفراء

ــ فهمت . يريد أن يسمع حكاية أبي زيد الهلالي .

هب عادل واقفا

ــ وقد افهمته بصراحة انني لا أعرفها .

وكان زهدي يجتر الاهانة التي وجهها له الاستاذ اسامة في الطريق .

ــ أنا حمار . حمار ابن حمار . طول الطريق وأنا أتكلم وهو يهز رأسه . ولما سألته سؤال صغير اتضح لي بأنه ما كان يسمع . كنت أظنه مثلك يا عادل يا أخي . لكن يظهر ان ابن عمتك هذا ناوي يعمل علينا وجاهات وزعامات . يا عمي كفرنا . قل له كفرنا . بحياة أبو صابر تقول له مش ناقصنا . وضرب الكرسي القش بيده وردد بحنــق :

ــ هذه هي الحال دائما . نحن نتكلم وهم لا يسمعون . مع من نتكلم اذن ؟ قولوا يا عالم . مع من نتكلم اذن ؟

(١٧)

مرت أسابيع ، ولما يستطـــع أسامة تنفيذ أي من مخططاته . فلا هو يستطيع الوصول الى عادل . ولا هو قادر على القيام بمهامه السرية . وكان هناك عامـــلان يتجاذبانه . فهو يؤمن ايمانا لا جدال فيه بأن باصات ايجيد يجب أن تنسف جميعها . وان على العمال ان يكفوا عـــن القيام بدورهم المشؤوم ذاك . لكن وجود عادل غير المتوقع بين تلك الفئة الضائعة جعله في حالة صراع لا يرحم . وكان يحاول جاهدا اقناع نفســـه بأن عادل ليس الا واحدا من الوف وان احتمال اصابته خلال العمليات المقررة هو جزء من عملية التضحية الكبرى التي أخذها على عاتقه . فهو انسان ملتزم ، والعواطف ايا كان نوعها مرفوضة في حالات كهذه . فماذا لو مات عادل ؟ وماذا لو مات عشرة مثله . لا أهمية للفرد في سبيل المجموع . وعادل نفسه لا أكثر من فرد . ولكنه يعود ويذكر طفولتهما معا . والدور الـــذي لعبه عادل في توجيهه وتثقيفه . فعن طريق عادل عرف أسماء كثيرة ، وقاما معا بمغامرات فكرية لا حصر لها . وحلما بالقيام بدور روتشيلد نفسه . وبما أن المال هو منطـــق الغرب الوحيد ، فليخاطباه اذن بتلك اللغة ، لغة المال ورأس المال . لا لا ، ذاك هو الاختلاف الوحيد بينه وبين عادل . الاقتصاد لا يصنع التاريخ . والمادة ليست المحرك والدافع والهدف . ماذا عن المبادىء والمثل ؟ ماذا عن الاخـــلاق والقيم ؟ .ماذا عن الحق والعدالة ؟ واختلفا كثيرا . ولكن ظل هناك قاسم مشترك يجمع بينهما . لا قيمة للفرد الا

من خلال المجموع . وهذا يعني أنهما متفقان على نقطة أساسية. والفارق الوحيد أن كلا منهما يعتقد أنه يقف الى جوار المجموع . وهز اسامة رأسه بحسرة . لو أن عادل خرج من المنطقة والتقى بالرفاق في الخارج لاختلف الوضع . فهذه المنطقة المحصورة ما بين النهر وسياج العدو باتت تشكل خطرا جسيما على الفكر الثوري في المنطقة . لقد استوعبوهم، ابطروهم ؛ وغسلوا أدمغتهم بالاكاذيب والليرات . وعليه أن يقوم بمهمته مهما كانت التضحيات . وعادل المغرر به قد اتخذ لنفسه وضعا شائنا لا تبرره كل الاعذار . الافواه التسعة ؟ لن يموت الناس جوعا . والكلية الصناعية ؟ في ستين داهية . فموت الرجل المريض خير من وجوده . والخدمات التي قدمها عادل لامه اثناء غيابه كانت واجبا فرضته ظروف القرابة والعلاقات الاسرية . هذه ديون باستطاعة المرء تسديدها مع الزمن . فالعمر ما زال في أوله. وحتى لو انتهى العمر بأي شكل من الاشكال المتوقعة ، فلن تموت الام جوعا حتى لو مات الخال ومات عادل . والرفاق في الخارج سيدعمون الموقف . والناس هنا سيفهمون . حتى ولو لم يفهم الكبار ، فغدا يكبر الاولاد ، وهؤلاء سيفهمون .

ووقف أمام المقهى حيث يجلس العمال في غروب كل يوم . ودفعته قدماه للداخل دفعا . لم يستطع مقاومة الاغراء . كان يريد ان يرى عادل للمرة الاخيرة . وهز رأسه بمرارة . فكل مرة يرى فيها عادل يعاهد نفسه بأنها ستكون المرة الاخيرة ، وانه لا بأس من القيام بمحاولة أخيرة . فعادل شاب لا غبار عليه . ولولا انحرافه الاخير لاصبح بالامكان الاستفادة من قواه العقلية والجسمية . فعادل يصلح للقيام بدور قيادي فعال ، فلديه كل المقومات

المطلوبة . وهو في وضعه القائم وشعبيته بين العمال يستطيع التأثير على العشرات وربما المئات . فقط لو انه يقتنع بما سيقوله له . وتذكر محاوراته مع الفتيان زملاء باسل بكثير من الامل . فربما استطاع التأثير على عادل مثلما استطاع التأثير على الفتيان . ولكن عادل لن يسمع . سيقول : للصورة أكثر من بعد واحد . وهذا عين الخطأ . ليس للصورة أكثر من بعد واحد . بعد الهزيمة والاحتلال .

وجلس على طاولة قصية ما زالت عليها فناجين القهوة وأكواب الشاي وطاولة الزهر . وكان سطح الفورمايكا ملطخا بشتى أصناف البقع بحيث بات من الصعب التعرف على لونها الاصلي .

كان ضجيج الرجال يصم الاذان . وطرقعة الزهر والحجارة تزيد أعصابه المتوترة اهتزازا . وكانت سحابات الهيشة تنطلق من فم أحد الفلاحين المجاورين بدون انقطاع . وتذكر أبو شحادة ، وما تبع ذاك اللقاء من حديث . ما زال يذكر حرفياته بمرارة وغضب . هؤلاء الرجال لا يحفظون العشرة والعيش والملح ودائما يطالبون بما في يد الغير . وبائع الخبز الحاقد يعير بالبنطلون والقميص المكويين . وأساور أم صابر تملا معصميها . واقوال زهدي المبطنة بالجهل والغرور . ماذا يريد هؤلاء ، أن يعيشوا الرفاهية في ظل الاحتلال ؟ أهذا مفهومهم للوطنية والقومية ؟ وزهدي اللعين يعرف بأن كلمة عرافيم تعني لصا قذرا وخنزيرا ابن قواد . ورغم هذا ما زال يعمل هناك ويدافع عن نفسه بالشتائم . والتهديد الوحيد الذي يملكه هو الهجرة . أي جهل ! يجب أن يتلقى زهدي وشحادة وامثالهما درسا لا ينسونه قط . وأبو صابر .. وامتلأ راسه بنظرة حزينة التقطتها ذاكرته من وجه طفلة تلعب بخرقة قذرة بجوار سطل الزبالة . لماذا يفقد

الاطفال براعتهم ؟ واهتز قلبه بجزع وهو يفكر بأن العينين ما كانتا عيني طفلة . وان النظرة كانت تحفر رأسه وتقرأ أفكاره التي تهدد والدها وأمثاله .

وهز رأسه لصبي القهوة والقلـق يقتله .. أعصابي متعبة . صرت أرى الاشياء بمنظار مهزوز . حتى نظرة الطفلة بت أفسرها بمعان مشوهة . وهي ليست أكثر من طفلـــــة .

ورائحة الهيشة تصدع رأسه . والفلاح يرغي ويزبد . والرجل الاخر يتكلم بصوت يصم الاذان .

— في الصباح راس الواحد منا يزن قنطارين . والصحة كالاجر . كل يوم بيومه . والخوف كل الخوف ليس من اليهود . الخوف من المرض والعاهات والبطالة . سكان المدينة لا يعرفون معنى هذه الكلمة . « فلان هبط » . كلمة هبط تطن في الاذن كالطبل . وتعني ما هو أكثر من الموت . أكثر من الاحتلال . هبط ... يا خوفي لأهبط وياكلني الدود ولا مين يسأل عني ولا عن الاولاد . قطاطيم لحم مين يربيهم .

وعامل اخر على الطاولة المجاورة يجأر بحقد :

— عمارة خمس طوابق لواحد من الناس اللي فوق . ولما طلبت منه أجرة مثل باقي الخلق قال لي : عيب . قال ايش الشغل عنده بنص القيمة خدمة وطنية . قلت له الدنيا غلا والمصروف كتير . قال خدمة وطنية . قلت له الايد اللي في الميه مش متل الايد اللي في النار . قال خدمة وطنية . قلت له طيب ليش الخدمة الوطنية علي وبس ؟ قال : ولازم تكون على غيرك كمان . قلت له : وانت ؟قال لي عيب تحكي هالحكي . أنا مش ناقصني واحد مثلك يذكرني بالخدمة الوطنية . وبعدين انت شايف الحال . قلت أنا مش شايف غير عمارة خمس طوابق . قال : من شر حاسد

اذا حسد . اتق شر من أحسنت اليه . رميت الاجرة المخسوفة في وجهه وقلت له . خذ بكره أنا نازل هناك . قال لي : علموكم العمالة والسفالة . طار ضبان عقلي وقلت له : ما حدش سبقنا عليهم قبلكم . مش انت أول واحد حط ايده في ايدهم ؟ وكالة الشركة اللي عندك ايش بتسميها ؟ خدمة وطنية ؟

ورائحة الهيشة ما زالت تصدع راسه . والكلمات المشحونة بالحقد تدوي في أذنيه فترتعش جفونه . وسمع احدهم يهتف بلهجة منتصرة :

ـ شيش بيش . مرس يا أبو النوف . مرس كبير اكبر من شواربك . ها ها ها . يا الله اطلب شاي .

وحملق أسامة بالوجه الضاحك بذهول . شحادة ! مش معقول ! ماذا فعل شحادةبنفسه ؟ ماذا فعلت به « حضارة » اسرائيل ؟

كان شحادة يرتدي جاكيت جلدي له ياقة من الفرو . وكان شعره الاجعد يحيط رأسه بشكل هالة لا يقل طول نصف قطرها عن عشرة سنتمترات . بينما تكوم الى جانبي خديه سالفان غليظان كشجرتي نتش صغيرتين . وكان يمسك غليونه بيده المزوقة بخاتم ذهبي ثمين ويتكلم من جانب فمه كما يفعل كبار الممثلين الاجانب .

هذه آخرتها يا شحادة ! الجريمة فيكم حلال وحق عيسى وموسى ومحمد . وأين عادل الذي هبط لهذا المستوى ؟ آه يا عادل . يا جرح القلب يا عادل .

ودخل عادل وبرفقته زهدي . وتلقفته التحايا من كل صوب . لكن شحادة لم يفتح فمه بكلمة . بل استمر يمتص غليونه وقد اتخذ هيئة تتناسب ومقامه الرفيع . مقام رجال الاعمال الناجحين . ونظر اليه وهو يقف فوق راسه مباشرة . وقال بلطف :

ـ كيف أحوالك يا شحادة ؟ الا تحييني يا رجل ؟ الاغراب يفعلون هذا فما بالك أنت لا تفعل ؟

رفع شحادة يده المزوقة بالخاتم وقال من فمه الموروب وما زال الغليون بين اسنانه :

ـ اهلا أهــلا .

وصفق يديه بعظمة وصاح بالنادل :

ـ يا ولد ، هات قهوة مضبوطة للشباب .

ابتسم عادل

ـ لا لا ، لا تتعب نفسك .

قال شحادة بتحــــــد :

ـ لماذا ؟ السنا قد المقام ؟

وأخذ يرمق ملابس عادل العمالية ولسان حاله يقول : « لا احد احسن من أحد » ثم رفع ياقته الفرو وطقطق على الطاولة بخاتمه الضخم

ـ يا محمد ، هات قهوة مضبوطة للشباب ، لكل الشباب ، لكل الموجودين .

وتساءل صاحب المقهى من وراء الدكة :

ـ أتدفع عن الجميع ؟

أجاب شحادة بتحــد :

ـ عن الجميع بما فيهم انت . تعال يا محمد . خذ .

وأخرج من جيب الجاكيت محفظة طافحة بالاوراق المالية تناول منها ورقة مئة ليرة زرقاء وناولها لمحمد بكــل أبهة وبؤبؤا عينيه يختلسان النظر من تحت جفنين ثقيلين « هل تراني يا عادل ؟ » .

قال عادل وهو يجلس على كرسي في مواجهة شحادة :

ـ لا لزوم لكل هذا يا رجل ، لماذا كلفت الخاطر ؟

اتخذت سحنته هيئة ديك حبش مستوفز

ــ الخير كثير والحمد لله . هل أطلب لك أرجيله ؟

قهقه عادل ومد يديه ببساطة

ــ ما دام الخير كتير وناوي تطبشها ما فيش مانع .

صاح شحادة وقد بدأت أساريره ترتاح :

ــ وهات أرجيلة يا محمد . وانت يا زهدي ، هل أطلب لك ارجيله انت كمان ؟

قال زهدي بتواضع :

ــ أشارك عادل بأرجيلته .

رماه شحادة بنظرة استخفاف

ــ عيب يا زهدي . احنا قدها وقدود . وكمان أرجيلة يا محمد . ونظر الى غليونه بتواضع وقال :

ــ لولا اني اعتدت هذا لطلبت لنفسي أرجيلة ، ولكني لا أحب تغيير دخاني . كما ان للسجائر مضار فظيعة اولها السرطان . رأيت فيلما في التلفزيون ، تلفزيوني أنا ، عن سرطان الرئة وعن علاقته بالدخان . وسألت أحد أصدقائي الاطباء فقال لي بأن الغليون أخف ضررا .

وكان أسامة يتأمل حركات شحادة المتكلفة من بين أصابع كفه والغيظ ينهش صدره ... أنسيت الهيشة يا شحـــادة ؟ لماذا لا تدلي بنصائحـــك النفيسة هذه لابيك يا محترم ؟ الله يرحم أبه . برطع يا سيدي برطـــع وخلي اسرائيل تخيل وتميل . وانت يا عادل انزل ، انزل ، واشرب أرجيلة على حساب شحادة الشخاخ . وجرن العلف من كان يبول فيه ؟ بول يا شحادة . بول على العروبة والارض والبلد ما دام أمثال عادل يشربون الارجيلة على حسابك .

قال عادل بلطف :

ــ وما أخبار الوالد يا شحادة ، لعله بخير انشاء الله ؟

رمقه شحادة بتوجس ، وحاول أن يستشف مـــا وراء السؤال من سخرية ، لكنه لم يجد غير وجه جاد ليس فيه

اي اثر لسوء النية .

قال باقتضاب :

ـ بخير والحمد لله .

ثم تذكر ان يرد المجاملة بالمثل

ـ وأنت ما أخبار أبيك ؟

قال عادل بلغة غريبة :

ـ من سيء لاسوأ . صحته في تدهور مستمر . مسكين.

قال شحادة بصفاقة يحسد عليها :

ـ يا سيدي نعيش قد ما عاشوا . كل واحد ياخذ نصيبه من الدنيا .

وكانت الشماتة واضحة في لهجته الفظة . واحس أسامة برأسه يكاد ينفجر . فهب واقفا واتجه نحو عادل بسرعة وقال بدون استئذان :

ـ عادل . أريدك بكلمة .

نظر اليه عادل بدهشة بينما فتح زهدي عينيه على سعتيهما . قال عادل بهدوء :

ـ الا تسلم على الشباب يا أسامة ؟

والتقت نظرات أسامة وشحادة للمرة الاولى فصاح شحادة بدهشة طفولية مرحة :

ـ اسامة !

ابتسم أسامة بفتور وسأله ساخرا :

ـ أما زلت تذكرني ؟

تراجعت النظرة الطفلة عن وجه شحادة وحل محلها حقد وتحد . وأخذ يدخن الغليون بعصبية . قال عادل :

ـ سنشرب القهوة على حساب أبو أحمد . اجلس معنا .

قال أسامة بنفاذ صبر :

ـ لا لا ، أريدك حالا ، المسألة هامة جدا .

قال عادل بمرح :

ـــ اقعد يا رجل ، لن اضيع ارجيلة ابي أحمد .
وكان للقب المجيد مفعوله السحري في أوداج شحادة ، اذ انتفخت رغم التوجس في العينين الناظرتين الى وجه أسامة .
قال شحادة بكبرياء تعوزها الثقة :
ـــ حتى أنت ستشرب القهوة على حسابي . طلبت قهوة للجميع واذا كنت ترغب اطلب لك أرجيلة .
لم يجبه أسامة ولم يتطلع نحوه ، فقال شحادة بحدة :
ـــ ألا تسمعني يا أستاذ ؟ قلت ستشرب القهوة على حسابي .
قال أسامة بحدة :
ـــ لا ، اشكرك ، لا أريد قهوة .
حملق شحادة وقد برز عرق في مقدمة رأسه
ـــ ولماذا يا أستاذ لا تشرب قهوتي ؛ مش قد المقام ؟ ابن خالك سيشرب قهوتي وأرجيلتي كمان .
وأحس بالاهانة تغمر كيانه بالعرق البارد ... هذه آخرتها يا عادل ! تجعل للانذال السنة تستطيل عليك وأنت جالس بينهم كالتنبل . الجريمة ليست منكرا وحق الاله .
ولم يجد بدا من اختراع كذبة .
ـــ أمي مريضة جدا . قد تموت الليلة .
هب عادل واقفا بينما استقام زهدي على قدميه وقال بلهفة :
ـــ أنا في الخدامة يا أستاذ أسامة .
ولانت ملامح شحادة وتراجعت النظرات الحاقدة عن عينيه .

(١٨)

وسار عادل بضع خطوات باتجاه حي السعادة ، لكن أسامة شده من ذراعه .

ـ تعال من هنا .

نظر اليه عادل مستطلعا .

ـ تعال ، اريد أن نتفاهم .

وفهم عادل . وسار مع ابن عمته في الدرب التي اختارها .

كان الظلام قد خيم على المدينة . والشوارع خالية من الناس . والرجال قد لاذوا ببيوتهم خوفا مما تحمله الظلمة من مفاجآت .

قال أسامة معاتبا :

ـ لماذا تتهرب مني ؟ منذ أيام وأنا أحاول أن القاك منفردا لاكمل معك حديث تلك الليلة . لكنك تتهرب مني كما لو كنت واحدا من رجال الدورية .

ولم يجب الاخر بل استمر يمشي بصمت .

ـ عادل . لا أعرف كيف أبدأ ، لكنك تعرف بأنك تقف في الموضع الخطأ . ماذا يقول الناس عنا يا عادل ؟ وأية قدوة سيئة بت تعطي للرجال ؟! ماذا لو علم خالي بالموضوع ؟ الم تفكر في هذا ؟ أؤكد لك بانه يفضل الموت الف مرة على أن يرى ابنه يتردى بهذا الشكل .

.. متشبث بالحياة تشبث الماضي بالحاضر . تشبث الاسبقية بالمجرم .. تشبث الفيروس بالخلية الحية . وأنا تلك الخلية . وكل عصارات الحياة في جسدي باتت مسخرة لامراضه .

ـــ لماذا تبتسم ؟ تكلم . افصح . قل شيئا . اي شيء . انت يا عادل لم تخلق لمثل هذا العمل . لا لان المسالة تتعلق بمصالح العدو فحسب ، بل لان امكانياتك تؤهلك للقيام بأعمال جديرة بالاحترام . عادل . لا تستمر في صمتك أرجوك . تكلم . دافع عن نفسك . قل بصراحة . هل انت راض عما تفعل ؟

ـــ رضى ! سلعة لا تباع في أسواق الضفة والقطاع .

ـــ عادل . لا تدع الكبرياء تجرفك . ليس عيبا أن تستمع لمن هم أصغر منك سنا ؛ ولكن العيب كل العيب أن تتمادى في الخطأ .

لم يجب . فاحتد اسامة .

ـــ لماذا تصمت ؟ دافع عن نفسك بحق الاله . أترضيك هذى الحال ؟ أيعجبك أن تهبط الى مستوى زهدي وشحادة وأبو النوف ؟ هؤلاء الجهلة لا يعرفون ما يفعلون . أما انت ! أنت تتعذب . أنا أعرف . كل ما قلته في تلك الليلة يثبت لي بأنك تتعذب . وأنا حزين . أنا تعيس . مذ حضرت الى هنا وكل شيء يقربني من حافة الجنون . لقد أبطروكم .. استوعبوكم . ولا أرك في عيونكم ومضة خجل . هذا كثير . أنا لا أفهم . وأنت تجلس في المقهى مع شحادة بالذات . شحادة الذي خانك وخـــان العشرة والعيش والملح وهجر الارض وما عليها من أجل خاتم ذهبي وغليون ومحفظة مليئة بالليرات . والانكى من هذا انك ترد على اهاناته بابتسامة عريضة كما لو كان ندا أو صديقا . ألم تره وهو ينظر الى ملابسك ؟ ألم تسمع تشدقاته ؟ نسى الهيشة ابن الاكابر وبات يدخن الغليون .

قال عادل بفتور :

ـــ وماذا لو دخـــن شحادة الغليون ؟ أفي هذا انتقاص لكرامتي وكرامتك ؟ الرجل حر في مزاجه . ومزاجه

طالع على الغليون .

قال أسامة بغضب :

— والتلفزيون ؟ ألم تسمعه وهو يقول : تلفزيوني أنا ؟

— افهمها يا أخي . شحادة يحاول اللحاق بركب طبقتنا المجيدة ، وأظننا قد سبقناه في هذا المضمار بمراحل .

— وشماتته لمرض أبيك ؟ اسمعت لهجته الوقحة ؟!

— هذا شيء طبيعي جدا . شحادة لم يحب أبي في يوم من الايام . وقد سنحت الفرصة لينتقم .

— ولكنـه انتقـــم منك أنت .

— الاباء يأكلون الحصرم . واكمل انت البقية .

احتدم الغيظ في صدر أسامة

— لماذا تتكلم هكذا ؟ افهمني بحق العفاريت ! أتريد أن تعجل في جنوني ؟ اكل هذا لانه طلب لك فنجان قهوة وأرجيلـــة .

ابتسم باشمئزاز . تراجع اسامـة

— أنا آسف . لم أقصد اهانتك ، ولكني أعجـــب من موقفك . لماذا تدافع عنه ؟ الا تعتقد بأنه يستحق لكمة على أنفـــه ؟

— لا .

— أتريد أن نتفاهم أم لا ؟

— لن نتفاهم .

— لماذا ؟ هل اصبحت مثلهم ؟

— بل واحدا منهم . اظن بأن هذا يخجلك اكثر مما يغضبك .

هز أسامة راسه بحسرة .. روتشيلد . قصيدة خروف العيد . الطحالب . وغوصي يا بلدي في الاوحال .

هتف بتشنج :

— لا أصدق . لن أصدق ، لا أصدق بأنك نسيت البلد والاحتـــلال .

ـــ انا لم انس البلد بدليل اني لم اتركها .

واحس أسامة بالطعنة تخترق صدره

ـــ انا لم اترك البلد الا لفترة قصيرة . وها انا أعود كما ترى . لو كنت نسيتها ما رجعت .

ابتسم عادل والقى قنبلة جديدة :

ـــ سمعت من العمة انهم طردوك من هناك . أصحيح هذا ؟

توقف أسامة وضرب صدره بقبضته

ـــ تقصد لولا انهم طردوني من هناك ما عدت هنا ، اليس كذلك ؟ قل لا تصمت . اليس هذا ما تقصد ؟

ـــ فسر كما شئت .

ـــ تفسيري الوحيد هو أنكم تخلفتم عن الركب الثوري . الناس في الخارج يلاحظون هذا ويكتبون عنه .

ـــ يكتبون عنه ؟ دعهم يلاقوا ما نلاقي وسنرى اي الامراض ستظهـــــــر .

ـــ لا . أنا لا أقصد الاخرين . أقصد ناسنا نحن .

ـــ عن اي ناس تتكلم ؟ عن المغتربين في الكويت والظهران ودول الخليج ؟ دع هؤلاء يساهموا في تصنيع الضفة والقطاع فنترك العمل هناك فورا . ولكنهم لن يفعلوا . أتعرف لماذا ؟ لان أي واحد منهم لن يجازف ببعض ماله، ويريدون منا أن نتحمل عبء المجازفات والتضحيات بكل شيء وحدنا .

ـــ نعم . يجب أن نفعل هذا . فنحن المسؤولون عن الصمود أولا وأخيرا .

ـــ واذا جعنا فكيف نصمد ؟

ـــ الجوع يفجر الثورة . لماذا تبتسم ؟ هذه نظرية معروفة .. الا تفهم ؟

ـــ والناس الذين تتكلم عنهم ماذا يفعلون ؟ يجوعون ؟ يا عزيزي هؤلاء يكدسون الامـــوال ويشترون الاسهـــم

والعقارات في بيروت وأوروبا . وأنت ؛ لماذا تركت البلد بعد الاحتلال فورا ؟

ـــ لم استطع احتمال الوضع . لم أستطع رؤيتهم يسيرون في شوارعنا وينتهكــون حرمة البلد .

ـــ عظيم . ممتاز . رائع . هذا هو عين الصمود .

ـــ انت تتكلم بنفس الاسلوب الحاقد الذي يستعمله زهدي وشحادة وبياع الخبز . ولم يبق الا أن تعيرني بالبنطلون والقميص المكويين .

تفحصه عادل مليا ولم يعلق . ثم انفصل عنه واتجه نحو دكان بائع الكحول . لحق به اسامة وشده من ذراعه

ـــ تعال . لم انه حديثي . لن تهرب مني . يجب أن نتفاهم . قال ببرود :

ـــ أريد أن أبل ريقي .

ودخل الدكان لا يلوي على شيء . وبقي أسامة في الخارج يكفر ... يا هذا الشعب الخائر ! يا ذا العزة . يا رب الشعب المختار . يا كل أبالسة الشعب المنكود . سطل يا عادل سطل . وأنا في بابالدكان . ألقي حسراتي بين يديأهل النكبة . والنكسة تومىء لي من خلف الجسر . وعلى أبواب الخمارة تتردى آمال العمر .

وخرج عادل يترنح . والارض تميد . وعندما تميد الارض من تحتك فكل شيء على ظهر الكرة يموج .

خذ جرعة . هذي القنينة جنية . اشرب وانس . انسى احزانك يا متعب . واشرب . اشرب نخب الوالد . والكلية وأنابيب الدم . وضحايانا تنقلها الجرافات . وأصابع أبو صابر يبترها حز المنشار . اشرب وانسى . تلك الملعونة لا ترحم . تنتف وبرك . توقف شعرك . والالة وأنابيب الدم .

ـــ أوامر بنسف الباصات .

من ينسفها ؟ انت ؟ ومرثية خروف العيد من نظمها ؟ حبر على ورق . يا أساطين العدالـــة في العواصم . احكموا وحاكمـــوا . شحادة في قفص الاتهام . والتهمـــة تدخين الغليون .

وصعدا طلوع مدرسة الفاطمية . وكان بعض العمال يقفون على سلالم طويلة يصلون ما بين المباني بحبال أوراق الزينة . والهواء يلوح الحبال فتصدر صوتا كالنحيب . وتمتم:

ــ العيد غدا . عيد المولد النبوي . أوراق زينة واضواء .

الطبقة المجيدة تكفر عن خطاياها ، ابشر يا محمد .

ووقف أمام المدرسة لا يتحرك :

ــ هنا كانوا يقفون . طوابير محنطة يخنق الجوع عويلها .

ما كانوا يبكون . لكني كنت أرى الدماء في محاجرهم .

نساء . أطفال . شيوخ . ورجال مثلي ومثلك .

ودار حول نفسه مترنحا

ــ وهذه الزينات لمن ؟ من يفرح بها ؟ الزينات ! غرسة فوق قبر الضحية . وهل ترد أغصان النخيل حياة الميت؟ تسألني عن الرضى ؟ يا شاعر المرثية العصماء . خروف العيد ما زال ضحية . ولتحكم أساطين العدالـــة في العواصم . المأساة أعظم من غليون شحادة وباصات ايجيد . وأموال الصمود من يحاكمها ؟ والخبز الازرق وأرغفة بذر المكانس .. هل تعرف الخبز الازرق ؟

وفجاة . في صدر الجبل المقابل انطلقت النيران . أصاخ أسامة السمع وهمس بقلق :

ــ الرفاق يعملون . اسمع . اسمع .

وأضيئت الكشافات . وسطع النور حول أحد المنازل . وبدأت سيارات الجيش تتحرك نحو الجبل والمصفحات تاخذ طريقها ببطء على المرتفع . وهبط العمـــال عن السلالم

بسرعة واختفوا في مداخل المنازل المجاورة . ووقف أسامة يتلفــت حولـــه

ــ بقية الفصائل تعمل وأنا هنا استمع للهاث سكير !

واشتد ضجيج المعركة . وتوقفت المصفحات أمام الدار المشبوهة . وفتحت أفواه المدافع وانطلقت القنابل . وعلا زعيق سيارات الجيش والكاتيوشا ما زالت تعمل . وقنابل يدويــة وصواريـــخ .

ــ هيا بنا . سيعلنون منع التجول . قد يشتبهون بنا .

ــ هل تعرف الخبز الازرق ؟

ــ لا أعرف ولا اريد أن اعرف . تعال من هنا .

ــ من المسؤول عن الخبز الازرق وغليون شحادة ؟

ــ الرفاق يعملون وانت تتحدث عن الخبز الازرق وغليون شحادة ؟! تعال من هنا . المدينة أقفلت تماما . سيعلن منع التجول. انظر الى الدار . أصبحت قطعة منجهنم.

ــ وغدا ترتفع الزغاريد . هل سمعت بشعب يستقبل الالم بزغرودة ؟

ــ سمعت . اتمنى لو أنك تفعل .

ــ خذ جرعة . هذي القنينة جنية . اشرب وانس . انس أحزانك يا متعب .

ــ هذي القنينة لعنة . الرفاق يتعاملون بالمولوتوف وأنت تتعاطى هذه ! هاتها . سأحطمها على رأس كل واحد من عائلة الكرمي .

ــ ليتك تفعل . وغدا تنطلق الزغاريد . أسمعت بشعب يستقبل الالم بزغردة ؟

ــ سمعت . أقسم اني سمعت .

(١٩)

صاحت أم صابـــر :

ـــ يا عطاف . اسألي أم بدوي ان كان عندها شوية طحين .

وقفت عطاف على ظهر السطوح ورآها احد الجنود فصاح بها :

ـــ انزل . أسور * ممنوع .

ولطمت أم صابر صدرها .

ـــ يا سخامك الكحلي يا عيشة . شو اطعم الاولاد ؟ يا كسرة قلبك يا عيشة ! شو اعمل اذا استمر منع التجول كمان يومين ؟

وتجمعت النسوة على الشبابيك في الاحياء القديمة كل منهن تحاول اقتراض ما تيسر . والحالـــة والعياذ بالله . اكثرية سكان الاحياء القديمة عمال وبائعو خضار ولحم وفلافل وطمرية . وهؤلاء في العادة اخصب من اراضي الغور قبل الاحتلال . والاولاد محبوسون داخل البيوت الضيقة يسببون لامهاتهم الصداع والجنون . ذاك تحت السرير . وتلك فوق الخزانة . والرضيع يصرخ . والرجل يفش خلقه بالحرمة المستورة . وابو صابر يتمتم : تب علينا يا رب من هـــذي الحال . وزهدي يلعن اليوم الذي حرم فيه من طوز الكويت : علي الطلاق بالثلاثة ما أنا دايق العدس . وقذف شبشبه على رأس احد الاولاد ، فارتفع الصراخ من كل جانب ..

---

* أسور ، كلمة عبرية وتعني ممنوع بالعربية .

ملعون ابو اللي نفضكم يا أولاد الكلب .. وفتحت سعدية الباب وهي تصيح ... روحوا فقعوا اليهود بدل ما تفقعوني انا . وفتحت أم صابر الباب واطلقت سراح الاولاد وأبو صابر يصرخ من فراشه .. يا مجنونة ! اليهود يملأون الشوارع .

وخرج الاولاد من كل بيت . ووقفوا في الزوايا المعتمة كالفئران . يتطلعون نحو الجنود يتغامزون ويضحكون . والجنود يحملون الرشاشات ويلبسون الخوذات . وركض احد الصبية من بيت لآخر . فانتهره جندي وناوله شتيمة . فترددت أصداء ضحكات الاولاد . ورددوا الشتيمة بنغمات مختلفة . وربط احدهم علبة بندورة بذنب قطة واطلقها . واستدار الجندي شاهرا سلاحه . وترددت ضحكات الاولاد وقد اعجبتهم اللعبة . وركض الجنود خلف الصبية . فاختبأوا في بيوتهم واغلقوا الابواب . ثم عادوا وفتحوها . فاندفع جندي نحو احدهم واعمل فيه ضربا . والامهات يستنزلن اللعنــات على كل من ساهــم في بناء الدولة . والازواج يسمعون السباب ويرمشون .

ومرت مجنزرة محاطة بالمدافع من جوانبها الاربــع . وحجارة الشوارع تتفتت تحت دواليبها الحديدية . واختبأ الاطفال في الزوايا المعتمة حتى ابتعدت قليلا ، ثم تبعوها مصفقين مهللين ... فتح . فتح .. فتح . واستدار الجنود واطلقوا الشتائم وصوبوا الرشاشات فاختبأ الاولاد . ووقف طفل في السادسة وفتح بنطلونه الكالح وصوب حمامته نحو الجنود معتمدا مبدأ الدفاع عن النفس . وامتلأ الشارع هرجا مرجا . ودب في الصبية حماس جنوني . وأمسك الجندي بصبيين من عنقيهما كزغلولين منتوفي الــريش ، واركبهما في سيارة الدورية بعد أن أشبعهما صفعا . والبنات يطبلن على علب السمن الفارغة والصبيان يهتفون .. ثورة

ثورة حتى النصر . ثورة ثورة حتى النصر . وتدلت ام صابر حتى منتصفها من الشباك وصاحت تنتهر الجندي :ـ يكسر ايدك . سبعين عين تطرقك . تعدم أولادك . يكسركم كسره ما الها جبره بجاه سيدنا محمد . والاولاد يهزجون ويصفقون واصداء هتافاتهم ترن في فراغ الشارع :

الاليف الله أكبر
البا باب الحرية
والجيم جبهة شعبية
والدال ديمقراطية
والشين شمر دراعــك
عرفات رمز التضحية
والميم ميم المحبـــة
والواو وحـــدة عربيـــة

وكان مهندسو جيش « الدفاع » يقيسون ارتفاع وانخفاض أحد البيوت البالية في طرف الشارع . والرجـال يحملون الفراش على ظهورهم . والنسوة تتراكض بين الدار المحكوم عليها بالاعدام وبيوت الجيران . والجيران يتلقفون المتاع ويحفظونه في بيوتهم . وساد الصمت . واختبأ السكان في زوايا الدور .. فتحوا النوافذ . أغلقوا آذانهم . وانفجر اللغـــم .

تحطمت أركان الدار . وهوى السقف كتلة واحدة على فتات الجدران . وانطلق الدخان . ووقف صاحب الدار الكهل على احد الاسطح المجاورة وأذن بصوت منتحب .. الله اكبر اللـــه اكبـــر .

وردد الجيران التكبير بصوت واحد . وانطلقت الزغاريد من افواه النسوة في الشبابيك . واعملت البنات اكفهن على علب السمن . وهتفت احداهن بصوت حاد .. اليف الله اكبر . وردد الصبيان .. اليف الله أكبر . البا باب الحرية ..

وكان أسامة يقف في الشباك ينظر الى الصبية بعينين دامعتين . « ما زالت الدنيا بخير » . وردد باسل من احدى الزوايا « احنا رجال أبو عمار » . « ثورة ثورة حتى النصر » « ثورة ثورة حتى النصر » .

واقترب جنديان وأمسكا به دون مقاومة تذكر . ألبسوه كيس خيش في رأسه ووضعوه في سيارة الدورية ونــوار تنظر من النافذة بذهول . وصاح الوالد من الداخل « ما شاء الله وكان . ماذا يظن الولد انه فاعل ؟ سيحرر فلسطين ؟ » وانتحبت الام وولولت . وتأملت نوار وجه والدها المحنط بنفور . وعادت تنظر من النافذة لتطمئــن على الصغار . وكانت الطبلة ما زالت تعمل باجتهاد .

كلاشنكـــــوف يا مدمـــــر الدبابات
آربيجيـــه يا محطـــم الطيارات

(٢٠)

دارت سيارات الدورية مع الفجر في انحاء المدينة واعلنت انتهاء حالة منع التجول من خلال مكبرات الصوت . تنفس السكان الصعداء . وانطلق الشيوخ والكهول في حي السعادة نحو الجامع الكبير ليؤدوا الفريضة . وفتح بائعوا الخضار دكاكينهم وبدأوا يلقون بالخضار المعفنة الى الشارع . وامتلأ برميل السمك بالهياكل التالفة . وانطلق الاولاد نحو الدكاكين يشترون الطحين والشاي والسكر . وتوجه العمال نحـو باصات ايجيد وعيونهم ما زالت متورمة .

ــ صباح الخير أبو الشباب .

ــ يسعد هالصباح .

وقال زهدي وهو يسير بجوار عادل :

ــ أخذوا حمادة العرصات .

قال عادل باكتئاب

ــ وكذلك باسل .

ردد زهدي بنقمـة :

ــ طوز الكويت أرحم .

وتطلع نحو وجه عادل العابس . استرد انفاسه وأطلق ضحكة جافة .

ــ بتهـون .

—

وفكر عادل بصمت . بتهون ؟ متى تهون ؟ النسف والقتل والاعتقال وفلسفات اسامـة وابتسامة نوار المتوارية وخرير الالة . وباسل ينام على برش في أحد السجون . والوالد الصنديد لم يكلف خاطره بالسؤال عنه ، لكنه سيجعل من

الحادثة عملا بطوليا فذا أمام مصوري التلفزيون ، وسيلقي خطبة بليغة بانفعال ، وسيرفع رأسه ويقول للجيران : هذا ابني ، ابني أنا .

تكلف زهدي ضحكة :

— السجن للرجال هه هه .

— السجن للفتيان والصبيان . والرجال ينطلقون في باصات أيجيد ليكملوا بناء الدولة .

قال زهدي مدافعا عن نفسه والاخرين :

— أحسن من الغربة . واللا لا ؟

والتفت نحو عادل مستجديا الجواب . هز الاخر رأسه كما هزه الف مرة من قبل .

— طبعا .

— وهناك كثير من الرجال في السجن . والنساء أيضا .

— نعم .

صالح والياس وحمزة وانطون ، ونائلة ويسرى وأمل وفتحية ومريم . وأنا هنا . وحدي . أطرز مسالك تل أبيب . وأردد كلمات لا أجد لها أي صدى ، الظلم المشترك . أطماع البرجوازية الاسرائيلية . استغلال الرأسمالية العالمية . وشلومو ضحية . حرية . اخاء . مساواة . عدالة . سلام . تضيع في واد سحيق . أنا أتكلم وأنا أسمع . والذين يسمعون هم خلف جدران الزنزانات . وأنا هنا . وحدي . أطرز مسالك تل أبيب . لعنة الله عليها من عيشة . لكني لست وحدي . أنا معهم . مع زهدي والرجال . ودوري ليس اقل من الادوار الاخرى . حتى ولو لم يفهم الاغبياء .

ونظر شرقا . كانت السماء شديدة الزرقة . واشعة الشمس الربيعية تخترق الغيوم المتباعدة فتتلقفها مسام البراعم بتعطش . وأشجار الصنوبر في قمة عيبال تسبح في

فضاء ابدي الامل . وهبت نسمة باردة مشبعة بالرطوبة والندى . وارتعشت أوراق الاشجار أمام مبنى البلديـــة وتلألأت . الربيع . والامل . وأحلام الحرية والسلام . وامتلأ قلبه بالحب وتدفق . ومشاعر الابوة تطغى على كل ما يراود النفس من احساس بالعجز والهزيمة . وقال بتفاؤل:

ـــ يجب أن يحصل ابو صابر على تعويضه . علينا ان نبدأ مسلكا جديدا . خطوة فخطوة ونتعلـــم كيف نصبح أسيادا لا ضحايا .

ردد زهدي بحماس :

ـــ مضبوط . البركة في همتك يا أبو الشباب . انت تقول واحنا ننفذ .

داعبـــــه عـــادل

ـــ وطوز الكويت ؟

ـــ يا شيخ ! هل تصدق كل ما أقول ! علي الطلاق بالثلاثة ان القعدة في قهوة الهموز أحسن من العالم كله .

وركبا الباص مع الراكبين . واستلقيا على أحد المقاعد في المؤخرة وكل منهما يفكر بالكفالة المحترمة التي سيضطر لدفعها . ودخلوا المصنع بوجوه مقطبة . وأخذ عادل طريقه نحـــو الكراج بينما انطلق زهدي والبقية نحـــو اشغالهم المختلفة . وكان العمال الاسرائيليون يتجمعون أمام قاعـــة الماكنات وقد علا الوجوم وجوههم . والمسئول يقف أمامهم ويتكلم بالعبرية ويهز رأسه ويديه . وناداه المفتش :

ـــ يا زهدي ، تعال .

ماذا يريد هؤلاء ؟ الا يكفيهم حماده ؟ لو قال لي احدهم « عرافيم » سأفتح رأسه بهذا المفك .

وتذكر أقوال عادل . أصحيح بأن هؤلاء مظلومون مثله ؟ وأنهم مغررون ومضللون ! أصحيح بأنهم ضحايا مصالح اقتصادية وانهم ليسوا أكثر من أدوات تستغلها أطماع فئة

صغيرة ؟ ولكنهم ساعة الحرب يلبسون خوذاتهم ويحملون الرشاشات ويطلقون الرصاص ويقتلون . وحماده من أخذه ؟ وباسل وصالح وبقية الصبيان والفتيات والشباب ! وهز رأسه بحيرة وقبض على المفك بقوة . اذا قال لي أحدهم « عرافيم » سأفتح رأسه بهذا حتى ولو كان جبريل عليه السلام . وسأله المفتش مستجيرا :

— قل لهم يا زهدي . اليس سعر السكر في عمان مواز لسعر السكر في اسرائيل ؟

أجاب زهدي بفطنة وشماتة :

— هو هو ! سعر كيلو السكر في عمان لا يزيد عن ثمانية قروش .

وتصايح العمال . وهزوا قبضاتهم بغيظ . قال زهدي بفخر :

— وسعر كيلو السكر في سوريا ستة قروش لا أكثر . والرغيف هناك يشبع عائلة بأكملها وسعره لا يزيد عن نصف قرش .

وفتح العمال عيونهم بدهشة وازدادت اهتزازات رؤوسهم حدة . وأفواههم لا تكف عن النقاش والصراخ .

سأله المفتش بغضب :

— أواثق انت مما تقول ؟

ابتسم زهدي بارتياح :

— كل الثقة .

وتراجع عن المجموعة وهو يلوح بمفكه الضخم تاركا العمال في عاصفة من الهياج والتذمر . وابتسم بشماته .. وحماده من يدفع ثمن رعبه ؟ ودموع سعدية والاف السعديات والتعسيات ؟

والتفت وراءه بعد أن خفتت الاصوات . ورأى الارهاق يعلو وجوههم ، فأحس بالاشفاق وفكر بحيرة . ربما كانوا

مظلومين فعلا . لو كانوا يعيشون حياة مرفهة لما سالوا عن ارتفاع الاسعار ! ولكنهم مميزون . اقل واحد فيهم يقبض ضعف ما يقبضه اي عامل عربي مهما بلغ من كفاءة واجتهاد . وهم يتمتعون بامتيازات لا ينالها عادل نفسه . يأكلون في غرف نظيفة ، يجلسون على كراسي وطاولات . يقبضون بدل مواصلات وبدل غلاء وبدل وبدل . ويتمتعون بفوائد التأمين الاجتماعي وتأمين العجز والشيخوخة وما الى ذلك . كما انهم ينتخبون اعضاء الكنيست . ونحن لا كنيست لنا ولا جيش ولا حكومة . وبعد هذا يقول عادل بأن شلومو أقرب الي من صاحب معصرة الجفت ! مستحيل . انا لا أصدق . لا أستطيع أن أصدق .

وبعد ساعة أو أكثر اقترب شلومو وساله :

ـ أسمعت الاذاعة ؟

هز زهدي رأسه نفيا وهو منكب على أجزاء الموتور يجمعها .

قال شلومو بضغينة :

ـ المخربون هجموا بالكتيوشا على بيسان وأحرقوا بيتا وقتلوا مدنيا وامرأة .

ولم يجبه زهدي ، بل واصل اعمال مفكه في الموتور . قال شلومو مستفزا :

ـ أراك لا تجيب ! أتعجبك اعمالهم ؟

ابتسم زهدي وتساءل ببرود :

ـ عم تتكلم ؟

ـ الم تسمع ما قلت ؟

ـ وهل قلت شيئا ؟

ـ كنت اكلمك عن عملية بيسان والمخربين .

ـ وماذا فعلوا ؟

ـ الم تسمع ؟

ـــ لا لـــم اسمـــــع .
ـــ قتلوا مدنيا وامرأة واحرقوا بيتا .

آه .. شيء لذيذ . عادل يقول بأن القتل سينتهي في يوم من الايام . وسيعيش الناس كالاخوة . يلبسون من قماش واحد . يأكلون من طعام واحد . ويرضعون من ثدي واحد . كلام فالصو . لا أصدق . يجب الا أصدق كل ما يقال . اللعنة على الزعماء العرب واسرائيل . علمونا كيف نشك في كل ما يقال .

ـــ وماذا أيضا ؟ هل فعلوا شيئا اخر ؟
ـــ قتلوا امرأة ومدنيا واحرقوا منزلا وتريدهم أن يفعلوا شيئا اخـــر ؟

قتلوا امرأة ؟ كم امرأة قتلت يا شلومو يا مظلوم يا من ستعيش معي كالاخ في يوم من الايام الوهمية ؟ ومدنيا ؟ أنسيتم بحر البقر ودير ياسين وقبية ؟ والمنزل ؟ كم منزلا نسفتم يا أولاد الحرام ؟ أول امس نسفت انت يا شلومو منزلا في حي السعادة .حي السعادة يا رجل لم يعرف السعادة يوما . البركة في مهندسي جيش الدفاع . وقبلكم بريطانيا . وقبلها تركيا . وقبلها وقبلها .

ضرب الرجل كتفه متوددا . بقوة . سقط المفك من يده وتهاوى جسده على حافة الموتور المسننة . حاول تفادي السقطة . اتكأ بثقله على حافة الموتور . اخترق الحديد كفه وسال دمه .

قال شلومو ضاحكا .

ـــ مالك سرحان ؟ انا أكلمك يا بني آدم !

وقف زهدي بعد أن تناول مفكه وحاول أن يستعيد هدوء أعصابه . وتمنى أن يتركه الرجل لشأنه قبل أن ينفجـــــر غضبه . وفكر متصبرا . اتركني يا شلومو الله يستر عليك .

اعرف بأنك لم تنسف الدار في حي السعادة . ولم تصل الدار الاخرى في جرزيم بمدفعيتك . وانك غير مسؤول عن اعتقال حمادة وباسل والاخرين . ولكنك مسئول ! أنت مسئول غير مسئول !

دمدم شلومو وهو يتجه نحو مكان عمله :

— مخربين عرافيم ملوخلاخيم *

استدار زهدي . صاح هادرا :

— ماذا قلت يا شلومو ؟

التفت اليه شلومو وقد بدت على وجهه علامات الدهشة والمفاجأة . ورأى المفك بيد الرجل الضخم فبلع ريقه

— ماذا قلت يا شلومو ؟ قلها مرة اخرى ان كنت شاطرا .

قال شلومو متراجعا :

— انا لم أتكلم عنك .

— وماذا قلت ؟

— لم أقل شيئا .

— قلت .

— لم أقل .

— قلت .

— لم أقل .

— قلت عرافيم ملوخلاخيم .

— طيب قلت .

— وانا أيضا ساقول . خذ ...

وصاح شلومو . فهب لنجدته اخرون . ورمى أبو النوف مفتاحه ونادى الاخرين . والتحم الفريقان في معركة ضارية جنونية دون أن يتساءل أي واحد منهم عن سبب المعركة . وصاح أبو النوف وهو يتهاوى على الارض ... يا بو

---

*جملة بالعبرية تعني عرب قذرون .

الشبـــاب ...

وحاول عادل التدخل لحل النزاع في الشرق الاوسط . فتلقى لكمة على أم راسه . وقال كلمات كثيرة ضاعت في معمعة الشتائم واللكمات . وتلقى لكمة على أذنه اليسرى فدار حول نفسه وقد بدأ العالم يهتز . وعندما تهتز الارض من تحتك فكل شيء على ظهر الكرة يموج . وطارت من حوله المفكات والكماشات . وتساقطت من السماء الواح الخشب. وتلقى صفعة على خده الايمن فصاح بغضب .

ـــ لست المسيح وحق الاله .

ونسي كل شيء . الظلم المشترك . والسلام الموعود . وأحلام الاخاء . وحقوق العمال . واهتزت قبضته بعنف وهو يتشمر . للكمة سلطان على هذا الراس أكثر من كل مفاهيم السلام . ولا شيء يحمي ما بداخل الرأس الا الشاكوش .

واستلقى العمال على الارض . وزعقت سيـــارات الاسعاف المدللة . وتدخل المفتش وبقية المسؤولين . ونقل الجرحى الى المستشفى . وتقدم رجال الشرطـــة وامسكوا بزهدي . وركب العمال الباص تاركين وراءهم المصنـــــع واجورهم اليومية ..

(٢١)

فتح باسل عينيه بصعوبة . ورأى وجوها كثيرة تتفرس فيه . حاول أن يرفع يده ليرد صفعة عن وجهه ، فأحس بالآلام تسري في جسده كتيار كهربائي لا يرحم . واغلق عينيه بشدة وبكى وهو يتذكر صدر أمه وعيني عادل . . سيضربونني ثانية . بصقت في وجوههم وصحت . . ثورة ثورة حتى النصر . . آه . للنصر ثمن باهظ . وشد على أسنانه وتأوه . . يمـــــه .

ويد تربت على كتفه المتألم برفق . فتح عينيه الدامعتين وحركهما في الوجوه الكثيرة . واستقرتا على وجه يعرفه جيدا . وهتف بلهفة :

ــ صالح !!

وغاب عن الوجود ثانية . وبدأوا يدلكونه برفق . وسقوه شايا بالمعقة . ومسحوا وجهه بالماء . وصاح أحدهم ضاحكا:

ــ مبروك عليك أو قتله . تعيش وتاكل غيرها . قم يا باسل ، لقد أصبحت رجلا .

ودبت الحياة في جسده تدريجيا . وانتعش صدره بالامل والفخر . لقد أصبحت رجلا ولن يجرؤ الاستاذ على مناداتي « يا ولد » بعد اليوم . جلس على البرش يقص عليهم اخر أخبار العالم الخارجي وهم يستمعون اليه بلهفة ، نسفوا دار الحبش . وفتحوا المدفعية على دار هواش . يقولون بأن أبو عمار كان مع الرجال . قتل من الجنود عدد كبير . وكانت سيارات الدورية تنقل الجرحى بالعشرات . وهرب الرجال للضفة الشرقية وقتل بعضهم وأسر آخرون . البسوني

كيس خيش وقادوني للعمارة وبصقت في وجوههم فلعنوا ديني .
ـــ تعيش وتاكل غيرها . السجن للرجال يا باسل .
سنحيي لك حفلة لم يسمع التاريخ بمثلها . ارفع رأسك
ولا تخفضه . السجن للرجال يا ابو العز .
أبو العز ؟ شيء جميل . لقد أصبحت واحدا منهم . ما
اروع أن تكون أبا لشيء ما ، ترعاه وتربيه وتحافظ عليه .
ابو العز . اسم جميل . اجمل من كل ما قيل وما سيقال .

وطال الحديث وتشعب . وتعرف على الاخوان جميعا .
وكانوا يعاملونه باهتمام شديد وينادونه «أبو العز» . والاسم
يملأ صدره بالعزة . أبو العز . اسم جميل . أجمل من
كل الاسمـــاء .
وسأله صالح بلهفـــة :
ـــ وما أخبار عادل ؟ والوالد ؛ ونوار ؟ هل رأيت أهلي ؟
ما اخبارهم ؟ وأمي ولينة ؟
ـــ عادل بخير . والوالد من سيء لاسوأ . ونوار في حالة
يرثى لها . دائما تبكي .
وتفحصه بنظرات قلقة وهمس :
ـــ الا تحبها أنت أيضا ؟

غض الشاب بصره والتزم الصمت ، فواصل :
ـــ واختك لا تنقطع عن زيارتنا . وأمك لم أرها منذ مدة .
لو كنت أعرف مسبقا بحضوري لزرتها . ولكني لم
أخطط لمشروع .
ـــ قد تخطط لمشروع كهذا في يوم من الايام . قعدتك معنا
لن تطول . ثمن البصقة ليس باهظا . أيام ، أسابيع
وتخرج ، فهل ستعود ؟
ارتج عليه القول وأخذ ينقل بصره بين الاخوان بحيرة .
فأخذوا يضحكون بما فيهم الياس . ونادى صالح الياس وقال

له مداعبا :

ــ تعال يا الياس وآنس أبو العز .

وقام الياس من زاويته واقترب . تأوه باسل باشفاق وهو ينظر في الوجه المشوه والشفة المشرومة . وكانت العين الوحيدة في الوجه المشوه تنطق بالسعادة . فها هو ضيف جديد صغير سيسلي المجموعة بأحاديثه لمدة أيام . وسيعيد لكل نفس ذكريات الاهل والشوارع وضوء الشمس .

وشد صالح على ذراعه

ــ الياس سيد الرجال جميعا . أنظر الى الاوسمة في وجهه ويده .

ومد الياس يده اليسرى محييا .

ــ الاسم الحركي أبو أحمد .

وضحك ، فانفتحت شفته المشرومة عن اسنان مهشمة . وتقلصت عضلات الوجه المكرمشة ، فامتلأ قلب باسل بالفزع . لكنه مد يدا باردة تتصبب بالعرق . وسلم على اليد اليسرى وهو ينظر نحو الاخرى . وكانت مغطاة بكيس من الجلد الاسود . آه . للنصر ثمن باهظ . اسم أبو العز ليس جميلا . ولن أخطط لأي مشروع في يوم من الايام .

وحضر العشاء . والتف الاربعون معتقلا حول أكياس النايلون المفروشة على الارض . ونظر باسل الى وجبته الاولى بدهشة . حساء مايص فيه قطع متفرقة من الفلفل الحلو والبندورة والكوسا . خمس حبات زيتون . نصف قرن فلفل حلو . قطعة فجل صغيرة ، وكوب شاي . لم يكن الحساء مقبولا فعافته نفسه . ونظر الى الاخرين فرآهم يأكلون بنهم شديد . وخجل أن يظهر تبرمه ؛ لكنه لاحظ بأن كل واحد منهم يضع أمامه بيضة مسلوقة . وخجل أن يسألهم عن بيضته . واخذ يزدرد الخبز بصعوبة . ولاحظ صالح بأن الفتى لا يأكل ، فسأله مستطلعا :

ـــ لم لا تأكـــــل ؟
وضحك اخر وصاح معلقا :
ـــ هاتي يا أم عادل صحن الجبن المقلي وبيض العوينات .
ولا تنسي المتبلات . بابا غنوج وحمص وسلطة طحينة ومكدوس .

تصايحوا وتضاحكوا . وقال اخر :
ـــ لا تردي عليه يا أم عادل ، فنحن في حالة رجيم قاس ونخاف السمنة . نريد سلطة خضار فقط بالخس والبندورة والليمون . واذا كان لديك طحالات محشوة بالثوم والبقدونس والشطة فلا مانع لدي .
صاح آخـــر :
ـــ اخرس يا حمزة ، الله يمغص قلبك . دعنا نأكل بدون غصة .
وناوله صالح بيضة وقال باسما :
ـــ يعطوننا البيض في الصباح فنخبئه للعشاء ، فالوقت طويل من الغروب حتى نهاية السهرة . واذا أكلنا هذا العشاء الفارغ فقط نقضي بقية السهرة بمعد خاوية .
خذ بيضتي فأنت ضيف علي هذه الليلة .
وصـــاح آخـــرون :
ـــ بل ضيف علي أنا .
وتكوم البيض أمامه وكل يحلف عليه أن يكون ضيفه . لكنه رفض بخجل وادعى بأن البيض يسبب له المغص . فاسترجع كل بيضته وباسل ينظر الى الكوم الذي بدأ يختفي من أمامه بحسرة . آه يا أمي . لم أكن أعلم بأن البيض بمثل هذه الروعة . البيض جميل يا عالم . انظروا كيف صبها الخالق في قالب يصعب تقليده . وقشرتها الرقيقة تشبه طبقة من الكريم على وجه حسناء ذات بشرة ندية . وعندما تزيل الكريم وتلمس الوجه الضاحك تصاب برعشة جنسية لذيذة .

البيض لذيذ يا عالم . الذ اكلة في الوجود وحياة محمد .
وسحب صالح بيضته أخيرا وهو يتساءل :
ـ امتأكد أنت بأنك لا تريدها ؟
هز باسل رأسه نفيا ، وخبأ وجهه في كوب الشاي الاسود.
وتكوم الاخوان والرفاق في المنطقة السفلى من الغرفة . وبداوا يعدون برنامج الاحتفال ، بينما جلس صالح على برشه يراجع كتبه وأوراقه ، وغاب عن الجمع في دوامة الاقتصاد السياسي .
وجلس الياس يقص على باسل قصته :
ـ كنت اقف على رصيف الدوار والقنبلة في يدي هذه . ومر باص السياح أمامي .اردت ان القنهم درسا في سياحة الاراضي المحتلة . وخفت الا أصيب الهدف تماما فتنزلق القنبلة الى الشارع وتصيب السكان . هجمت على الباص وهو ما زال سائرا . اردت أن أتعلق بحديد النافذة لتسقط القنبلة في جوف الباص تماما . لم اكن أعلم بأن زجاج النافذة مغلق ، فارتطمت القنبلة بالزجاج وانفجرت وهي ما زالت في يدي . لا تبتئس . القتلى كانوا اكثر من الجرحى . ولكني فقدت عيني ويدي وجانب وجهي وتمزقت شفتي . ما بالك حزين ؟
طقطقت تفاحة آدم في عنقه . لكنه قال مكابرا :
ـ لست حزينا ولكني . لكني .. لا أعرف
اسم أبو العز ليس جميلا ، بل مخيفا . لن أعود الى هنا أبدا . ولن افكر بأي مشروع في يوم من الايام .
وابتدأ الحفل . وقف حمزة امام الجمع وقال :
ـ أيها الرجال . يا ثوار هذا الجيل . ويا من تحملون شعلة الحرية بيد من حديد لتضيئوا بها طريق العدالة والسلام في كل مكان . نقدم لكم الليلة شعلة جديدة من جبل النار ، الرجل الذي بصق في وجه الطغاة وصاح

هادرا : ثورة ثورة حتى النصر .
وصاح الاخوان بصوت واحد تزلزلت له أرجاء الغرفة :
ثورة ثورة حتى النصر .
واكمل حمزة الافتتاحية :
ـ أقدم لكم الليلة البطل المقدام محرر الاوطان باسل الكرمي الملقب بأبو العز .
وصاح الرفاق والاخوان : أبو العز ، أبو العز .
ووجد الفتى نفسه واقفا الى جانب حمزة وقد صوبت اليه العيون . واصابه الفزع ولم يعرف ماذا يقول . ونظر الى صالح مستجيرا . وفي الوجه العريق السمرة رأى ابتسامة عريضة . واستمد شجاعته من النكات والتعليقات التي سمعها من هنا وهناك . وقال بحياء طفولي :
ـ اخواني . اعذروني اذا لم أستطع التعبير عن نفسي بوضوح . فهذه هي المرة الاولى التي أقف فيها خطيبا . ولانني لا أعرف ما أقول ، فيكفيني أن أردد أمامكم ما قلته للغزاة : ثورة ثورة حتى النصر .
وصاح الاخرون هادرين : ثورة ثورة حتى النصر . وجلس بين صالح والياس يخبىء خجله وانفعاله بين كتفي الرجلين .
وغنى أحدهـــم :

كلبش ايدي كلبش ايدي
لما اعتقلني كلبش ايـــدي
ولـــــدي يـــا ولـــــدي
كلبشـــس ايـــدي
انـــا واخــــــوي في الزنزانـــــــة
والمدافـــــع مـــن حواليـنـــا
ومـــن اكــل السجـــــون طعمونــــا
عـــدس مغلي وسمك مطحــــــون
كلبش ايدي كلبش ايدي

والقى أحدهم قصيدة للشاعر كمال ناصر قال فيها :

يا أيها الجـــلاد اضـــرب فلـــن نرهب
هـــذي الجبـــاه الســـود
بعرقهـــا المعقـــود
تنـــوء بالقيـــود
لتنشـــر الخلـــود
فانحـــر ولا ترهـــب

ورقص بعضهم على ايقاع سطل فارغ . ودبك اخرون . وامتلأت القاعة بالتصفيق والصفير والهتاف . وقدمت منوعات فكاهية ، وأجريت مساجلة شعرية . واختتم الحفل الصاخب بنشيد جماعي جعل دموع باسل تسيل بدون توقف . وكانت الاصوات تنقله الى عالم لم يعرفه من قبل . عالم يمتزج فيه الالم بالامل . وتنتصر فيه ارادة الحياة على أسوار الزنزانات:

نعـــم لـــن نمـــوت ولكننـــا
سنقتلـــع المـــوت من أرضنـــا
هنـــاك ، هنـــاك بعيـــدا بعيـــد
سيحملني يـــا رفيقـــي الجنـــود
ويلقـــون بـــي في ظـــلام رهيـــب
لقـــد فتشـــوا غرفتي يـــا أخـــي
فما وجـــدوا غير بعض الكتـــب
واكـــوام عظـــم همـــو اخوتي
يئنـــون مـــا بين أم وأب
لقـــد أيقظوهـــم بركلاتهـــم
وقـــد اشعلـــوا في العيـــون الغضـــب
وأمـــي تئـــن انينـــا طويـــلا
ومن حولهـــا اخوتـــي يصرخـــون
ومن حولهـــم بعض جيراننـــا

وكـــل لـــه ولــــــد في السجـــــون
ومـــــــا زال وجـــه أبي ماثـــــلا
أمامـــي يسلحنـــــي بالامـــــل

ووقف الياس وقد نزع الكيس الجلدي عن يده المشوهة . ورفعها كما يرفع الجندي علم بلاده . والاخرون ينشدون بـــــدوي :

هنـــاك أرى عامـــــلا في الطريـــق
أرى قائـــد الثـــــورة المنتصـــــر
يلـــــوح لـــي بيـــد من حديــــد
واخـــرى تطايـــر منهـــا الشـــــرر

وخبأ باسل وجهه في كفيه . وبكى بحرقة .. للنصر ثمن باهظ . وعندما نام على برشه لصق صالح نظر الى ضوء النيون الساطع وتمتم :

ـــ صالح . عندما أخرج من هنا لن أرد على أحد الا اذا ناداني بأبو العز .

ـــ نعم . اسم أبو العز يلائمك تماما .

وهمس الفتى حالمـــــا :

ـــ اسم أبو العز جميل . أجمل من كل الاسماء . اجمل من كل ما قيل وما سيقال .

واغفى وهو ممسك بيد صالح . وحلم انه نائم على صـــــدر أمـــه .   ه

(٢٢)

لا فجر ، لا ليل ، لا نهار بين جدران الزنزانات . نور النيونات الساطع يملأ القاعات والغرف في كل الاوقات . وفي الوقت المحدد يصرخ الضابط بعد أن يعد الموجودين «تمام» . وينتقل نحو قاعة أخرى فأخرى .

ــ وحدوه . يا خم النوم يا حمزة . هذا برش وليس فراش زفاف .

وتأمل باسل المكان بعينين ذاهلتين وقلب مقبوض . أين انا ؟ وكم ستطول هذي الحال ؟ رفقة الاخوان مسلية . ولكنهم كبار . أكبر مني بكثير . وغدا ينسونني فأموت من الوحدة والضجر . وصالح هذا صامت كعادل ، ينام على الكتب ويستيقظ عليها . ماذا يفعل بكل هذه الاوراق ! لو انني أحمل شهاداته ، أقسم برب العزة الا افتح كتابا طوال حياتي . وما لزوم الكتب بعد نيل الشهادات ؟ يقول الحاج عبد الله ادرسوا يا أولاد . فيقول هاني . ماشي الحال . هاني . كم كذبة سأكذب عليك يا هاني ! عندما أخرج فتأهب لسماع أضخم كذبات عرفها التاريخ . ضربت الجندي وضربت الضابط وسرقت الكرباج من يد الجلاد وأشبعته به سلخا . وبضربة رائعة قلعت عين الضابط وصار مثل الياس . ومزقت شفته وهو يلعن والدي . والجنود يطرقون الباب وأنا ما زلت أضرب الجندي والضابط . والجندي فارق الحياة . والضابط ارتمى على الارض مضرجا بدمه . اترى يا هاني ؟ ليس صعبا أن ننتقم للياس . كيف اخرجوني من السجن بعد هذا ؟ آ يا سيد . اسمع . الكفالة تصنع المعجزات .

والصليب الاحمر ورئيس البلدية . علمك يا سيد هاني .
ــ كيف أحوال أبو العز ؟ صبح يا جميل يا جميـل صبح . الفجر أهو لاح والليل رواح . صبح يا جميل صبح صبح . عزيزي المستمع بصبح عليك . تم ترم لم لا لم . تارا لارا لا تم . الحب والجمال والامل . ووجه السجان يذكرك بتاريخ ما قبل الانسان ونظرية داروين . لا تبتئس عزيزي المستمع واستدر بوجهك نحو صالح . واملأ قلبك بالنور . تم ترم لم لا لم . تارا لارا لارا لا تم . عزيزي المستمع أنت نشيط . يلعن دينك يا حمزة . ولك فز عن هالبرش المقلعط بعدين معاك ! عزيزي المستمع نأسف لهذا الخلل الفني الطارىء . الحب والجمال والامل . ضحك ولعب وجد وحب . تارام تارا لارا لارا . بوبو برمبم بم بم .

وقهقـــه باســـل حتـــى ابتلـت أجفانـــه . واكـــل فطـــوره بنهـــم . واجهز علـــى البيضـــة المسلوقة والاخرون يبسمون للمغص المزعوم .

وفتحت مدرسة الشعب أبوابها . والتم الاخوان والرفاق في جماعات صغيرة . هنا محو امية . وهناك تحضيـر للاعدادية . وفي تلك الزاوية تتكامل التوجيهية . صالح والياس يعملان بجدية . وحمزة لا ينفك يطلق الضحكات الماجنة ويلعن دين هذا وذاك .

والغذاء كان كريها . لكن باسل اكل بشراسة . لا وقت للحزن والتعاسة . الاستاذ صالح لا يقول لي « وله » . يبتسم ابتسامة صغيرة . أصغر من أن تبرطني وأكبر من أن تحبطني . شيء جميل . عندما أخرج من هنا سأتفوق على بقية الاولاد وسأهشم أساطير علاماتهم الخرافية .

وبعد الغداء توجه الجمع نحو المصنع . وطوى باسل الملقب بأبو العز عشرات أكياس النايلون . وتناول أجره بدون امتنان . ثمانية سجائر من صنف عمر . صنف قذر الهيئة منه أجمل . وتقاسم الاخوان حصة أبو العز وناولوه

شفطة من هنا وشفطة من هناك . بلاش تتعلم هالكار الوسخ . وهات من طيبات ما رزقوكم .

وتناول عشاءه الثاني بدون تلكؤ وشرب الشاي متلذذا . وصاح مع الصائحين « الله » حين فرش أنطون مواويله بامتداد الفضاء الازرق فوق صنوبر عيبال .

بلادي ، يا قطعة سما
اسمك على لساني صلاه .

وابتدأت الندوة المسائية . فتح صالح أوراقه ونزع ابتسامته الصغيرة عن وجهه وانهمر الكلام . وسمع باسل الملقب بأبو العز اصطلاحات ضخمة هزت ثقته بنفسه وجعلته ينظر الى الاخرين باعجاب أكبر : برجماتية . ديماغوجية . راسمالية . شيوعية . اشتراكية . كمبرادورية .

يا هو ! ما هذا ؟ تهيأ للكذبات يا هاني . وتهيأ لاشياء اخرى لا تعرفها . كمبرادور . أبوك كمبرادور يا هاني . مجرد واسطة لتسويق بضائع الدول الراسمالية . لهذا لم يصعب عليه تسويق بضائع اسرائيل . أبوك متخلف يا هاني . لم يتطلع الا للربح المضمون ولم يسع لمصلحة البلد . لا ليست كل البرجوازيات هكذا . البرجوازية الاوروبية كانت قيادية . كانت رائدة . لم تكن خم نوم وكمبرادور . لا لا . أنا لا أدعي بأن والدي أحسن من والدك . الله يلعن لحية الاثنين . لكن اسمع . هل يعجبك لقب أبو العز ؟ لن تناله ولو دفعت ثمنه عشر قزازات كولا ولوحين شوكولاته وعلبة تونه . يا سلام ! الواحد مشتاق يا عالم . الواحد جوعان يا بشر . يا ريتني ما أكلت البيضة الصبح . وصالح يتكلم والاخرون يسمعون :

ـــ من المسؤول عن عدم تصنيع البلد ؟ من المسؤول عن تخلف العمال ؟ لا ثقافة ولا تقنية ولا انتماء حقيقي للوطن . من المسؤول ؟ هذه الاسئلة لا بد من الاجابة عليها مهما جرحتنا الحقيقة . انت مسؤول . انت مسؤول وانت وهو

وهي وانا قبل الجميع . لا يكفي أن أقول أنا مسؤول لامارس عملية التكفير واستريح . أعمق من هذا . يجب أن أعمل واقرأ واخطط . غضوا النظر عن الماضي وتطلعوا نحـــو المستقبل . الاحتلال لن يدوم . هذا مؤكد . وبعد زوال الاحتلال ماذا نفعل بالعمال ؟ لم يعد هناك فلاحون ولا صغار تجار ولا صغار حرفيين . أصبحوا جميعا عمالا نتيجـــة الظرف القائم . وبعد الاحتلال ماذا نفعل بهم ؟ أموال البترول مخزونة في بنوك اوروبا تشغل الصناعة وأسواق التجارة هناك . ماذا اذن ؟ حين تضع أموالك في البنوك يستثمرونها . وتعمر اوروبا ونبقى نحن على نفس المنوال . عدالة التوزيع. احتياطي البترول . يجب أن يتم التصنيع قبل فوات الاوان . احتياطي البترول لن يستمر طويلا . ثم ماذا بعد هذا ؟ ماذا بعد هذا ؟ ماذا هذا ؟ ماذا هذا ؟

تعال اسمع يا هاني . الله أكبر يا ناس ! هيك الثقافة واللا بلاش . هكذا يكون العلم والا فلا . من أين جاء الرجل بكل هذا الكلام ؟! المسألة ليست صعبة . يغش عن الكتب. باستطاعتي أن أغش مثله . غدا أبدأ . وسنرى ان كنت لا اقتحم مثله جميع أصناف الاية . شيوعية . اشتراكية . امبريالية . ديماغوجية . كمبرادوريـــة . ها ها ها . كمبرادورية . كشفتك يا حاج عبد الله . سرقتك حلال وحق الاله . فلتحذر صناديق الكولا مخططاتي الجهنمية . والبزر والفستق والقضامة . الواحد بطنه يقرقع يا عالم . آه يا أمي . صحن شوربة فريكه أحلى من افخاذ سعاد حسني عليها السلام . البنات حلوين يا بشر . لما البنت تمشي على الارض تهتز السما من فوق وترقص النجوم عالوحدة ونص ، البركة في العادة السرية . هاهاها . قالوا بت رجلا . سأخرج من هنا واثبت هذا فورا . بنات المصانع ماليين البلد .. ورقصها يا جدع على وحده ونص .

(٢٣)

فتح الجندي باب الغرفة رقم ٢٣ فدخل زهدي حاملا خمس بطانيات وقصعتين وكوبا من البلاستيك . نظر الجميع اليه وعلامات الاستفهام مرسومة على وجوههم . لم يرحب به احد . وظلوا ينظرون اليه بتوجس . فأحس بغربة شديدة . اشد من تلك التي عاناها طوال الايام الخمسة الماضية في الزنزانة . وطفرت الى حلقه غصة مريرة حين سمع همسة من احدهم .. يعمل في اسرائيل . دوت في أذنه كالقنبلة ، فانتفخت أوداجه واتسعت خياشيمه ولهث . لا يعرفون بأني اشرف منهم جميعا . واني فتحت رأس شلومو بمفكي . وهم هنا لا لشيء الا لانهم هتفوا في المظاهرات ورددوا بعض الشعارات كما فعل باسل وحماده . ونظر حوله بلهفة . فعسى أن يكون حمادة في تلك الغرفة بالذات . ولكن ، أمن المعقول أن يكون اعتقال حمادة مستمرا حتى تلك اللحظة ؟ لا يمكن . مستحيل أن يكفل عادل أخاه ويبقي حمادة في السجن دون أن يكفله أيضا .

كانت الغرفة مكتظة . والرجال يجلسون في حلقات مختلفة . وعرف بعض الوجوه لكن أحدا لم يتعرف عليه . فالقى البطانيات وجلس وسط الغرفة تماما . وبقي جالسا هناك أكثر من ساعة دون أن يخاطبه أحد أو يسأله عن شأنه أو أحواله . وبدأت معنوياته تنزلق في مهاو لم يعرفها من قبل .

ما هذا ؟! الا يعبأ بي أحد ؟ حتى اليهود لم يفعلوا هذا . حتى الضرب والتحقيق كانا أخف وطأة من هذا الاهمال

المريع . على الاقل يشعر المرء حينئذ بأنه انسان ذو قيمة . وأن لديه أشياء هامة تصبوا اسرائيل لمعرفتها . والاصرار على التحدي ، والنظر في وجه المحقق باستخفاف وشراسة . كل ذلك يجعل المرء كبيرا في عيني نفسه . أما الان . فلا تحد ولا تحقيق ولا ضرب ولا اي شيء له قيمة .

وقبل العشاء بقليل اقترب منه كهل في الخمسين وخاطبه بلهجة فلاحية وسأله عما اذا كان مدنيا أو قرويا . وعندما عرف بأنه من سكان المدينة تراجع عنه واستدار بظهره وعاد يرقب اثنين يلعبان طاولة الزهر . وبعد لحظات من المكابرة لمس زهدي كتف الرجل بيده السليمة .

ــ وانت من أيــن ؟

اجابه الرجل وهو ما زال منشغلا بمراقبة حجارة الزهر :

ــ من عصيرة الشمالية . لماذا ؟

ــ سألتني فسألتك . هل في ذلك جريمة ؟

لم يجبه الرجل بل ظل صامتا لا يأبه الا لتنقلات حجارة الزهر على الطاولة .

وحضر العشاء . ودار اثنان من النزلاء يسكبان الحساء في القصعات واثنان اخران يصبان الشاي في الاكواب . واكل زهدي عشاءه وحده بينما تكوم الرجال في حلقات مستديرة وهم يمازحون بعضهم ويضحكون . أية غربة ؟! أهؤلاء عرب مثلي ؟ أو بالاحرى هل أنا عربي مثلهم ؟ العمل في اسرائيل ليس عمالة . لماذا لا يفهمون ؟ سحبوا الرخصة مني .. فمن اين آكل اذن ؟ من سيطعم سعدية والاولاد ؟ وازدرد اللقمات بصعوبة وعظام رقبته تطقطق . اذا كان هؤلاء يعاملونني هكذا وأنا معهم في السجن فكيف سيعاملونني وأنا خارجه ؟ ما أقساهم ! حتى شلومو نفسه لم يكن بمثل هذه القسوة . وتذكر الرأس المفتوح والعينين الجاحظتين

بكثير من الاسف وتأنيب الضمير . شلومو لم يكن سيئا . الان عرفت هذا .

وانتهى العشاء . واقترب منه ثلاثة رجال ضخمين تبدو على وجه أحدهم أمائر الحنكة والذكاء . وسأله الرجل عدة اسئلة والاخران يسمعان . متى اعتقلت ؟ ما السبب ؟ هل انخرطت في أي تنظيم ؟ لماذا ضربت شلومو ؟ ماذا قالوا لك ؟ ماذا قلت لهم ؟ أرنا آثار التعذيب في جسمك . وزهدي يجيب على الاسئلة بفظاظة وحيرة . وصاح بهم اخيرا :

ــ ماذا تظنون ؟ أنا لست جاسوسا . كفوا عن توجيه هذه الاسئلة السمجة .

وتراجع الثلاثة عن زهدي وهو يرقبهم بطرف عينه. ولاحظ بأن الرجل الذكي عاد ليجلس في الزاوية العليا ويمسك بدفتر وقلم ويبدأ بتدوين شيء ما .

وفي الصباح تكررت العملية . جاء اثنان اخران وسألاه نفس الاسئلة . متى اعتقلت ؟ ما السبب ؟ لماذا ضربت شلومو ؟ ماذا سألك المحقق وبماذا أجبت ؟ وصاح بهم ثانية :

ــ أنا لست جاسوسا يا جماعة . لماذا تعاملونني هكذا ؟

وتراجع الرجلان . ولاحظ زهدي بأن أحد الرجلين اقترب من الرجل الذكي الذي استجوبه في الليلة الماضية وأخذ يهمس في أذنه ، والاخر يسجل ما يقوله الرجل . وبعد الظهر اقترب منه الفلاح وسأله نفس الاسئلة . فتصاعد الدم الى راس زهدي وصاح به وهدده بأنه سيفتح راسه كما فتح راس شلومو اذا عاد الى تساؤلاته . وطرفت عينا الفلاح وقال له متراجعا :

ــ كنت أريد أن اتسلى معك فلماذا غضبت ؟

ولكي يبرهن على حسن نواياه أخرج من جيبه رسالة مدعوكة وقال لزهدي متوددا :

ــ اقرا لي هذه الرسالة فأنا أمي .

سأله زهـدي متوجسا :
ــ الم يقرأها عليك أحد ؟
قال الفلاح ملاطفا :
ــ قراوها علي ثلاث مرات فلم أشبع منها . عندما أسمع ما بداخلها أتذكر كل شيء . اقرأها الله يستر عليك .
وبدأ زهدي يقرأ والرجل يهز رأسه ويبتسم ويطلق همهمات متواصلة « نعلمك بأن مسعودة ولدت عجلا أبيض » .
فتح زهدي عينيه وتساءل :
ــ مسعودة ولدت عجلا ؟
أجابه الفلاح هاشا باشا :
ــ آ . مسعودة البقرة . اقرأ اقرأ .
وواصل زهدي القراءة وهو يبتسم للمرة الاولى منذ دخوله السجن : « نعلمك بأن كنتك منيرة جابت ولدا سميناه على اسمك . »
هز الفلاح رأسه وعلق :
ــ ولد بين خمس بنات عقبال عندك . عندك أولاد ؟
ــ عنـــدي .
قال الفلاح ضاحكـا :
ــ اخيرا جاء من يحمل اسمي . الحمد لله اني عشت حتى رايت هذا اليوم .
ــ اسمك محمـود ؟
ــ آ ، اسمي محمود وينادونني أبو سالم . لو اني كنت في البلد لذبحت له ذبيحة . اقرأ اقرأ . اقرأ عـن البيتنجان والبندورة .
وقـرأ زهدي بتسليـة :
« زرعنا البيتنجان ويا ريت ما زرعنا . سعره في السوق مش مثل السنة الماضية . »
علق الفلاح بحسـرة :

ـ البيتنجان الاسرائيلي ضرب السوق . يعني معقول نقدر
ننافسهم ؟ كمل كمل ..
« البندورة جابت سعر نضيف بس خسارتنا في البيتنجان
لا تعوض . »
وهز الفلاح رأسه بحسرة :
ـ الله يكون في عونك يا سالم . أمك واخوتك ومرتك
وبناتك والولد والارض ومسعودة والعجل . والله ما
أنا عارف كيف سيدبر حاله .
اجابه زهدي وهو يذكر سعدية والاولاد
ـ بسترها الله . بتهون .
وسأله زهدي بعد فترة صمت :
ـ أهكذا عاملوك حين دخلت السجن ؟
ـ بالعكس . اقاموا لي حفلة تطن وترن . كان زملائي
هنا وعرفوا علي البقية فأمنوا جانبي .
حملق زهـــدي
ـ ماذا تقصد امنوا جانبك ؟ وانا الا تأمنون جانبي ؟
هز أبو سالم كتفيه ولوى فمه بحيرة
ـ أنـــا داري !
وكانت النقطة التي طفحت كيل زهدي اذ امسك بياقة
الفلاح وهز رأسه بعنفه
ـ انت داري ! كيف يعني انت داري ! يعني أنا جاسوس؟
والله لاشرب من دمك .
وأمسكت الايدي بذراعي زهدي تحاول افلات ياقة الرجل،
لكن زهدي تشبث بالرجل وهو يصرخ :
ـ يا عرص . أنا جاسوس ؟ والله لالعن دينك .
وأحس بذراع غليظة تحيط بعنقه من الخلف . فازداد
رأسه اشتعالا ، وأفلت الياقة واستدار نحو الاخرين وهب
واقفا عن الارض . وركض نحو سطل الحساء الفارغ وأمسك

به ووقف أمام الجميع متحديا وقد أضاع رشده تماما .

ـــ تتآمرون علي يا أولاد العرص . والله ما أنا خارج من هون لاجرم في واحد منكم . يا الله . الرجال منكم يطلعلي .

وكان بعضهم يقفون حوله يتابعون حركاته . واخرون يجلسون على الارض يرقبون الموقف بصمت . واحس بالعيون تحاصره من كل جانب . وتقدم نحو الرجال المحيطين به وقد أعماه الغضب

ـــ تعال انت . ان كنت شاطر فرجيني شطارتك .

وتراجع الرجل نحو الحائط . فاستدار زهدي نحو اخر وقال مستفزا :

ـــ وانــــت ؟

فتراجع الاخر وهبط على برش لصق الحائط . وأخذ زهدي يذرع الغرفة طولا وعرضا غير عابىء بأواني الطعام المصفوفة على الارض . وأخذ يركل الاقداح والقصعات ويضرب الابراش تحت قدميه كطفل أهوج . واقترب من الحائط حيث تصطف الكتب على رف صغير . وبدأ يلقي بالكتب على الارض ونحو الوجوه المحملقة والنوافذ المسدودة بالطوب والاسمنت .

ـــ خذوا . خذوا . ماذا تظنون ؟ أنا لست جاسوسا يــــا غجــــــر .

واقترب منه الرجل الذكي وخاطبه بصوت هادىء . ومد يده بحركة تدل على رغبته في مصافحة زهدي

ـــ اهدأ يا زلمة . اهدأ ماذا جرى لعقلك ؟

صاح زهــــدي بجنــــــون :

ـــ ماذا جرى لعقولكم أنتم ! انا عقلي صاغ مية في المية . أم انك تظنني لا أفهم الاعيبكم ؟

ـــ اهدأ يا رجل . اهدأ . سلم على ايدي الممدودة لك .

ـــ لن أسلم على أحد ، وسأظل اتصرف هكذا لاثبت لكم أن مؤامراتكم علي لن تفلح . ماذا تظنون ؟ أتظنون اني لا افهم حركاتكم ؟ وهذا كتاب سمين . خذ .

والقى به نحو الجدار البعيد . فتناثرت الصفحات وارتمت على الارض والاخرون يستديرون برؤوسهم تارة نحــو الصفحات المتناثرة . وتارة نحو جثة الرجل الضخم الذي بدا هائجا كثور اسباني . وما زالت اليد ممدودة .

ـــ سلم على ايدي يا رجل . عيب . احنا اخوان . سلم ! أنا اسمي عادل وانت ؟

ورن اسم عادل في أذنه فارتعش فؤاده ونخزه الحنين . شتان ما بين عادل وعادل . هذا عادل وذاك عادل . وكم عادل غير عادل في هذه الدنيا !

ـــ يا رجل سلم . هات راسك أبوسه . عيب يا زلمه . احنا اخــوان .

ـــ اخوان ؟ رأيت نوعية اخوتكم حين جلست ملطوعا على البرش أكثر من ساعة وتركتوني مثل الكلب الاجرب بدون حتى كلمة مرحبه .

ـــ طيب طيب . امسحها بهاللحية . هات راسك أبوسه.

وتقدم نحو زهدي وعانقه وقبل رأسه . فبدأ الغضب يذوب بنفس السرعة التي جاء بها . وأحاطه عادل بذراعه وسحبه نحو برشه في الزاوية وأجلسه بجانبه وهو يبتسم ولا ينفك عن ترديد الكلمات اللطيفة :

ـــ اهلا وسهلا . اهلا وسهلا . يا الف مرحب . مالك يا رجل باين عليك عصبي .

استرخى زهدي على البرش واسند راسه على الحائط وهو ما زال يلهث . وأحس برغبة شديدة في البكاء لكنه تجلد . ومسح وجهه بكفه وهو يلعن الشيطان الرجيم . واخذ ينعف الكلام بدون وعي :

— يعني أنا تركت سعدية والاولاد لمين ؟ وفلقت راس شلومو لمين ؟ وضربوني ولبسوني جاكيت الجلد حتى خرجت عيوني من راسي لمين ؟ اذا كان السجن لعنة فأنتم العن . واليهود والعرب والمصنع والرخصة المسحوبة وطوز الكويت! انا عارف ! والله ما أنا عارف راسي من رجلي . واللا يعني علشان أنا عامل على قد الحال وأنتم تقرأون الكتب ؟ أتظنون انني أمي ؟ هات أتخن كتاب وسأقرأ لك أصعب صفحة منه . هات الكتاب يا سيد . هات

وكان عادل يمسك بالصفحات المنزوعة محاولا اعادتها الى اماكنها الصحيحة

— هـــات .

وانتزع زهدي احدى الورقات من يد الشاب . فانشطرت وبقي نصفها في يد عادل ونصفها الاخر بيد زهدي . وبدأ زهدي يقرأ بصوت مرتفع والاخرون يسمعـون ويدارون الابتسامات . بينما جلس أبو سالم على البرش وقد ارتسمت على وجهه امارات الحيرة والغفلة . وزهدي يقرأ بصوت جهوري . يكسر الكلمات ويشوهها غير عابىء بالفواصل والنقاط والحركات . وبدأت قراءته تتعثر . وصوته العالي ينخفض تدريجيا حتى توقف نهائيا . وألقى بنصف الصفحة على حجره وهو ينظر في الوجوه المتطلعة اليه بصمود مكابر . وأخيرا طأطأ رأسه ، وامسك بنصف الصفحة وملس حوافها ومدها نحو عادل . فتناولها الشاب من يده بصمت ووضعها داخل الكتاب بهدوء . وقال بترو :

— ماذا فهمت مما قرأت ؟

قال زهدي بصدق طفولي :

— لا شيء .

وعاودته نزعة التحدي فمد يده نحو الكتاب محـــاولا

اختطافه من يد عادل

ــ هات . سأقرأ على مهلي وسأفهم .

ابتسم الشاب وهز رأسه

ــ لا لا . بالتدريج ستفهم . هذا كتاب جاف . سأعطيك واحدا اخر مسليا . هل قرأت شيئا لنجيب محفوظ ؟

ــ من هذا ؟

ــ طيب سأعطيك كتابا لنجيب محفوظ ، قصة مسلية . هل تقرأ القصص ؟

ــ اسمع القصص . أبو صابر كان يقص علي كل ما يقرأ . ابو زيد الهلالي وعنتر وعبلة والشاطر حسن وغيرها . أبو صابر جاري وصديقي وحبيبي . فرم المنشار أصابعه وأخذت تلعبط مثل سمك السريدة . رفضوا اسعافه العكاريت . ولكن مالي ومال هذا الكلام ! قل لي . لماذا تعاملون الناس هكذا ؟ تركتوني جالس عالبرش مثل الكلب اكثر من ساعة . لم يقل لي واحد منكم كلمة مرحبه . سألتوني أسئلة بايخة واجبتكم عليها مرة وتنتين وتلاته . ولم يعجبكم . احنا ما خلصناش من التحقيق ؟ تحقيق عند اليهود وتحقيق عند العرب ! والله ما أنا عارف شو اقول .

هز عادل رأسه موافقا .

ــ الحق معك . بس اعذرنا . بكره تعرف . يا الله يا شباب لموا الاغراض وخلونا نحتفل بزهدي .

ولم الشباب الاواني واعادوا تنظيم المكان وجلسوا مصطفين في حلقة واسعة حتى لم يبق في الغرفة الا مسافة ضيقة في الوسط . وتشاور عادل وبعض الرفاق . وأخذوا يتهامسون وزهدي يرقبهم بتوجس وقلق . ووقف عادل وقال كلمات غريبة لم يفهمها زهدي . ولكنه فطن الى أن في الامر مكيدة ، فتأهب للدفاع عن نفسه .

وامسك بعض الشباب بطاولات الزهر وجلسوا أمام الباب يهزون الطاولات كما يهز ناقرو الدفوف آلاتهم . بينما امتلأت الغرفة بضجيج الضرب على السطول الفارغة . والاصوات تغني والاكف تصفق واحدهم يرقص في الوسط ويهز خصره . وزهدي يحملق في كل ما يحيط به من جنون بحيرة .. أهذا احتفال يا عالم !

واقترب الجنود من الباب وصرخ أحدهم :

ــ شـــو الدعـــــوة ؟

ولم يجبه أحـــد . واستمرت الاصوات تدوي ومزاهر طاولات الزهر تخشخش والسطول تقرع . وتراجع الجنود عن الباب وهم يسدون آذانهم .وارتفعت الضجة أكثر . أكثر. حتىكادت أذنا زهدي‌ان تصابا بالصمم .فأخذ يصرخ‌بهم كي يكفوا عن الضجيج . لكن أحدا لم يسمعه أو يلقي بالا اليه . ورآهم يجرون رجلا ويحبسونه في الزاوية . بينما تشمر اثنان من القبضايات وبدأا يكيلان له اللكمات وهو يصرخ . لكن الصرخات ضاعت في ضجيج الاحتفال الجنوني. واستمرت عملية الضرب أكثر من ربع ساعة . وتورمت عينا الرجل ونزل دمه وتهاوى على الارض والاقدام تركله في كل مكان . وصاح زهدي بحيرة :

ــ ستقتلون الرجل !

وحاول أن يقوم لنجدة الرجل . لكن الايدي شدته الى مكانه ونظرات عادل وحركاته الواثقة توحي بالموافقة على كل ما يحدث . فتسمر زهدي في مكانه وهو يرقب المشهد بصمت . وحمل الرجل والقي به قريبا من زهدي وعادل . وتحلق الرجال حوله وقد هدأ الضجيج وابتدأ التحقيق . أخرج عادل الاوراق وبدأ يقرأ منها اقوالا متضاربة كان الرجل قد ادلى بها . وكان عادل يفند الاقوال ويقارن بينها ويهيب بالرجل أن يعترف . وقال باصرار :

ـــ تتعامل معهم . المسألة واضحة تماما . منذ متى ؟ منذ متـــى ؟ قـــــل .

وبدا الرجل يعترف وزهدي يستمع الى الاعترافات وقلبه يضرب بعنف . جاسوس ! فهمت .

أصيب*زهدي بامساك محكم . فنصحه الاخوان والرفاق بالاكثار من أكل الخضار وخصوصا الخس . وبدأوا يعددون له أصناف الخضرة والفواكه حتى تطاير الشرر من عينيه . وأخذ يهددهم باستعمال قبضته الحديدية اذا لم يكفوا عن مداعباتهم السمجة . وعندما بدأوا تمارينهم الرياضية في المساء ورآهم يتطايرون أمامه كالعفاريت ، أحس بكماشة ضخمة تحيط بجبينه وتحيله الى قاعدة حربية . رمـى « زقاق المدق » من يده وانزوى في ركن قصي وهو حائر ما بين رأسه وبطنه . ورآهم مشغولين عنه بتمارينهم وعرقهم المتصبب . وابو سالم يجلس الى الفدائي السوري يستمع الى اخر أخبار مسعودة وعجلها الابيض . وعادل يصوب نظرات ساهمة نحو الشباب المتطايرين ويعود لينغمس في كتبه وأوراقه . فأحس زهدي بوحشة حادة جعلته يخبىء وجهه في الجدار ويختلس ذرف دمعات معدودات .. أيـن سعدية والاولاد ؟ أين حماده ؟ هل خرج من السجن أم ما زال معششا فيه كزغلول مكسور الجناحين ؟ وعادل وابو صابر وأغاني فريد الاطرش في الدوار . وصاجات بائع السوس والخروب مختلطة بتلاوة عبد الباسط عبد الصمد . وبدأت ملامح المدينة تتضح وتتلون في مخيلته . كل شيء هناك جميل بما في ذلك برميل المسمكة النتن . وكل شيء هنا كالح وكئيب وبارد . وعادل هذا لا يحمل قلب عادل ذاك . صحيح انه يقول كلاما مشابها لما يقوله عادل الاول . لكنه مشغول عن الناس بكتبه . وكيف يتقد القلب بدفء الحنان

اذا لم يحتك بحرارة الحياة ! عادل ذاك لم يكن يتكلم كثيرا . لكنه كان ثرثارا حتى في صمته . والاخرون لا يتكلمون الا حين يفتحون أفواههم . أما عادل الكرمي فشيء اخر . شيء كبير . أكبر من الصداع والمغص والوحشة المستمرة . وسعدية والاولاد والافواه التي لا تتوقف عن المضغ . من سيصرف عليهم ؟ من سيطعمهم ؟ واذا استمر اعتقاله اكثر من اشهر أخرى فقل على أساور سعدية السلام . لا بأس يا سعدية . سأشتري لك غيرها . لا تمدي بوزك بهذا الشكل . تصبحين كالقردة . قلت لك هذا الف مرة . انا لم أشتر لك الاساور لتزيني بها يديك المحروستين . للاساور منافع أخرى لا يعرفها الانسان الا حين يعتقل . هذا هو بنك التوفير المضمون خصوصا وان البنوك اثبتت عدم جدواها . وماذا تفعل أبواب البنوك أمام جيوش الاحتلال ؟ تصمد ؟ حتى الصمدية لا تصمد فما بالك بصمود هذا الشعب الخائر؟ جود يا باسط . وقل أعوذ برب الناس فلن يستمع اليك امثالي من المغوصين المصدوعين . لا جدوى للصمدية وهذا الامساك يحجب عني الصمود ويذكرني بالعدس وركن المراة . سقا الله أيام العدس يا سعدية . حتى العدس بات نفيسا يا عالـــم !

والشباب يرفعون حمالة الاثقال . صنعوها من اسمنت « البنيان »[1] وعلب البلاستيك الفارغة . يرفعونها برفق . ينزلونها برفق . يمسكون بها كما يمسك الاب الرحيم طفلا ذكرا بين عشر بنات . ويلفونها بالبطانيات عند خروجهم « للفورة »[2] ويخبئها صبري وراء باب المستشفى في صبيحة

١ــ البنيان : البناء .

٢ــ الفورة : نزهة السجناء اليومية

يوم التفتيش . والجنود الابالسة يحملقون في كل شيء ، وعيونهم تبحث عن الممنوعات والمحرمات . وكل شيء ممنوع ومحرم الا اللواط والتجسس . لكن عادل ورفاقــه يقفون للانحرافات الجنسية والخلقية بالمرصاد . وابو سالم نفسه حوكم بتهمة اغتراف كمية اكبر من الحساء . عقدوا له مجلسا تأديبيا وطلبوا من الفدائي السوري ان يقوم بمعاقبته . تردد الاخر . فنال الاثنان علقة محترمة اثناء احتفال جنوني قرعت خلاله السطول وخشخشت طاولات الزهر . حكومة داخل حكومة . وعادل يتربع على قمة الغرفة رقم ٢٣ ويدعي بانه ضمير الثورة . لكنه بارد القلب يا عالم ! ويا خوفي أن يصبح كبقية الحكام . هو يأمر ونحن ننفذ . ويعيد التاريخ نفسه متخذا أسماء حسنى براقة . ديمقراطية . اشتراكية . بروليتارية . ثم يرفع ستالين منجله ويحصد رقاب الملايين والجماهير تهتف وتصفر لرب العزة والقدرة ، وتتغنى بأمجاد موسكو والصين الشعبية . يا عادل الكرمي سلام اللهعليك. الان ، بات كلامك مفهوما .

يا هذا المغص المجرم . وأساور سعدية قاربت على النفاذ . ونصائح ركن المرأة لن تجد أذنا صاغية بعد اليوم . ولا عبد الباسط . ولا فريد الاطرش . وفي الدوار ترتفع العمارات وينخفض الناس . كلما ازدادت العمارات عملقــة ازداد المتجولون قزمية . البنايات ترتفع . والارض تنخفض بمن عليها من عباد الله المتسكعين . وندوات عادل المسائية تفسر الامور بشكل يصعب على المغوصين فهمه . وزقاق المدق هو أول الطريق نحو البداية والنهاية . والكتب الناشفة تطل براسها من حافة الرف المرتفع ولا تطالها الا ايدي المثقفين . ويداي لا تجيدان الا استعمال الكماشة والمفك . وهــذا الراس لا يحلم الا بخسة خضراء مليئة بزيت البارافين . وملعقة من زيت الخروع أحسن من كل ما في رأس عــادل

من تفسيرات واصطلاحات .

واقترب عـــادل

ــ مالك يا زهدي ؟ أما زلت تفكر بسعدية والاولاد ؟ انس يا رجل . ما زلت في أول الطريق .

. . . أنسى ! وكيف ينسى الانسان لحمه ولقمته ؟ وسعدية تجيد طهو الخضار بشكل يدعو للانحناء .

ــ ما زلت في أول الطريق . أول بداية النهاية . وقد رايت ما تعنيه كوية البنطلون للبرجوازي الصغير . عزت عليه كويـــة البنطلون اكثر مما عزت عليـــه اخته . البرجوازي قضى على نفسه بعد أن قضى على ضحيته . هذا الوطن مليء بالزبالة . وانا وانت سنكون فريقا من عمال النظافـــة .

. . . يا ألف نفحة عنبر على ذكر اسمك يا عادل الكرمي يا أخي . اتسمع ما يقوله الرجل ؟ سيجعل مني عاملا من عمال النظافة . فهل أقبل ؟ والنظافة لن تتحقق دون تلويث الايدي . ويا خوفي أن تعتاد هذه الايدي لعنة التلوث وتحترف اقتلاع الاخضر واليابس . ورأس شلومو مفتوح والدم يجلل الوجه المألوف بالكراهية والقرف . شلومو لم يكـــن سيئا تماما . كان ابن ناس مثلي ومثلك . لكنه حمار . كما كان الاف الشلوميين من قبله . وانا ايضا حمار . حمـــاران يتقاتلان على حزمة برسيم وبردعة فصلها المصنع . وماذا نلنا من هذا كله ؟ هو في المستشفى وانا في المعتقل . والمصنع ينتج وعباد الله يستهلكون . وتزداد عمارة شالوم ارتفاعا . وتزداد كروش الضفة انتفاخا . وتردد اذاعة اسرائيل أنشودة اورشليم الذهبية . وتصدح فيروز لاروقة المعابد في زهرة المدائن ، وانا هنا . وأنت هناك . وكلانا يلبس بردعـــة فصلها المصنع . ويحترف اكل الهوا وما يتخلله من شعارات .

قـــال عــــادل :

ـــ في سبيل الوطن تهون الحياة .

... وفي سبيل الحياة يهون الوطن . انت قلت هـــذا . ماركس قال . أنت قلت أم ماركس قال ؟ لا أعرف . المغص في راسي . والصداع في بطني . وقد اختلط الاثنان حتى أصبح الامساك قاسما مشتركا يجمع بين الاضداد . لقمة وفرشة وفرج . وفخذا سعدية يتلألآن في الخاطر كرمال ميناء حيفا . وانا في المعتقل أسمع اناشيد الحماس وأتلوى بالحنين لصحن دافيء من شوربة العدس . وعادل يردد الامثال والعبر . حل عن ديني يا عادل . كـــل كتبك وتفسيراتك لا اشتريها بملعقة من زيت الخروع .

سأله الفدائـــــي الســـوري :

ـــ شلونك هلـــق ؟

ـــ قطـــــران .

ـــ ولو ! نعملك كباية شاي تنعنش قلبك . هات السطلين يا أبو سالم .

وانشغل الاثنان بتجهيز الموقد المبتكر وزهدي يرقبهما ويده على بطنه . وضعا السطلين متقابلين . وأعادا تمكين خيطان القنب في خرمي كيلة المربى الفارغة وعلقاها على عصا مكنسة التنظيف بين السطلين . وبدءا يمزقان كرتون البيض الى قطع صغيرة وضعاها تحت الكيلة . واشعلا النار بعد أن ملاءا الكيلة بالماء . وصاح رئيس احدى المجموعات في الزاوية السفلى .

ـــ احجزوا لنا الدور بعدكم .

وتساءل عادل :

ـــ هل حسبتم حسابي معكم ؟

أجاب السوري بنخـــــوة :

ـــ تكرم عينك أخي . ولـــو !

وتناول زهدي كوبا واخذ يرشف الشاي بصوت مسموع يوقع الحسرة في قلوب بقية المنتظرين . وقال السوري مواسيـا :

ـ مالك يا زهدي ؟ تكلم يا رجل . اذا تكلمت تنسى كل ما بك . شكلك يوحي بأنك لست ممغوصا فحسب . بل مستوحشا أيضا . يا سيدي بتهون . بكره موعد الزيارة وسترى أهلك . اما أنا فيا حسرتي ! خمس سنوات لم أر فيها أحدا .

ولم يجبه زهدي بل استمر صامتا كمدفعية الحدود اللبنانيـة . وسأله ابو سالم :

ـ هل أقص عليك اخر أخبار مسعودة ؟ المجل الابيض أعطاك عمره . الله يلعن الحظ الوسخ .هذا هو العجل الثالث الذي يموت قبل مرور شهر على ولادته . لا أعرف ماذا أصاب هذه البقرة الملعونة . تلدهم كالبدور فيصبحون في القبور . حظ وسخ بعيد عن كبر قدرك .

ولما لم يجبه أحد لزم الصمت هو الاخر . وأخذ يتأمل انعكاس صورته في صفحة الشاي . قال بعد فترة :

ـ غدا أحلق لحيتي قبل موعـد الزيارة . واللا فان أم سالم لن تعطيني المسخن كما هددت اخر مرة .

تهلل وجه السوري .

ـ مسخن بالدجاج والبصل ؟ يا سلام ! اخي أبو سالم ! أوعى تنساني .

ـ اى معقول أنساك ؟ أنسى الجميع ولا أنساك . كيف يا رجال ! انت هون وحيد لا أهل ولا اقارب وبعيد عن بلدك وناسك . أنت في عيوننا .ام سالم وعدت أن تحضر لك دجاجة خصوصي . ولكنك تعرف أحكـام الغرفة . عادل يأخذ كل شيء ويوزعه على الجميع لقمـة لقمـة .

علق عادل بجدية

ـــ مثلما وزعت عليك حصصا من طعام غيرك . هذه هي الاشتراكية .

لكز ابو سالم كتف زهدي وهمس :

ـــ يلاحقنا بالاشتراكية والرأسمالية حتى في اكل المسخن . أنا داري !

واخذوا يرشفون الشاي وكل يتأمل سحنته داخل كوبه .

وقال السوري والحنين يعبث بصوته :

ـــ ماذا ترون داخل الاكواب ؟

قال ابو سالم :

ـــ أرى طابون أم سالم وبداخله تتربع المراة مشمرة الذراعين وعرقها يتصبب على جبينها . ويداها ترقان العجين وتفردان الارغفة على الحجارة الملتهبة . وأنت ماذا ترى ؟

قال السوري حالما :

ـــ ارى وجه طفل لا أعرفه . يقولون بأنه ابني . اسمه نضال . وأتخيل خده موشوما بشهوة حمراء بحجم التوته . لا بد أن ذلك قد حصل فللحكاية تاريخ لا ينسى . كنا نمشي في الصالحية . وكانت ازدهار في أول أشهر الحمل . ورأينا شجرة توت مرتفعة تطل من وراء سور احدى الفيلات . كانت التوتة شامية حمراء . وطلبت مني ازدهار حبة توت حتى لا تطلع للطفل شهوة في وجهه فتشوه منظره . أمسكت بحجر ورميته الى أعلى . فاطل صاحب الفيلا من وراء السور واخذ يلعن . أمسكت ازدهار بيدي وقالت بأن حبة التوت لا تساوي البهدلة .

قال عادل واجما :

ـــ هذا يفسر الامور بشكل اوضح . أنت الان في المعتقل

من أجل صاحب التوته والفيلا . أنت قدمت حياتك في سبيل الدفاع عن مصالحه . أما هو فقد ضن عليك بحبة توت . هل تفهم ؟

لم يجبه السوري بل استمر يتأمل سطح كوب الشاي ويحلم .

ــ أرى وجه ازدهار . احببتها من اول نظــرة . كنت أمر بمنزلها في طريقي الى العمل . طوال سنوات وأنا أمر بنفس الطريق دون أن الحظها أو أنتبه لوجودها . وفي احدى المرات . كنت أمر تحت درجات منزلهم . احسست برشاش من الماء البارد ينصب على رأسي وثيابي . قفزت . تراجعت . وصحت « عمى » . رفعت رأسي الى أعلى فرأيت فخذين مضيئين كالبلور . كانت تحمل مكنسة القش بيدها وابريق ماء باليد الاخرى . تربط شعرها بمنديل احمر . وفي جانب فمها سن ذهبي يلمع . وقالت بصوت كهديل الحمام .. لا تؤاخذني أخي . بس فتح عينيك منيح مرة ثانية . وقلت وأنا أفتح عيني جيدا واتأمــل بياض الفخذين .. مفتح وشايف بس انت شوفي حالي . والتقت عيوننا في ومضة كهربائية صاعقة . عيون غزلان ورموش دباحة . يا لطيف .. ! ولما ابتسمت صحت .. أنا دخيل مكنستك وابريقك يا ست . صبي بقية الابريق على راسي ويلعن أبي اذا تحركت من هون . وقرقرت بضحكـــة كمعزوفة «ستي» . ومن يومها وأنا رايح جاي جاي رايح . أتصبح وأتمسى وعيونا تضرب صواعق وكتيوشا .

وابتسم زهدي وقد عبث الحنان بقلبه . وواصل السوري متابعة الخيالات داخل الكوب

ــ وتزوجنا . وحبلت . ولما رشحوني للعملية قلتلها .. اذا كان اللي في بطنك ولد سميه نضال . وسمته نضال .

ردد عادل بتجهم

ــ نضال الطبقات المسحوقة .

ولم يستمع اليه حد . كان الثلاثة مشغولين عنه وعـــن تفسيراته بذكرياتهم السعيدة البعيدة .

وواصل السوري

ـــ وعدني الصليب الاحمر بتدبير الامر مع السلطات . وقد يسمحون للاهل بزيارتي . وها أنا انتظر منـــذ سنوات . لم أعد أصدق . ولكني أستمر في التصديق . ولولا هذا الامل لاصبحت حياتي مثل وجهك يا زهدي .

ابتسم زهدي . هز رأسه . قال :

ـــ ها أنا أبتسم . الا يعجبـــك ؟

ووقف فجأة وقال معلنا النبأ السار

ـــ أظنها جـــاءت .

وهرع مسرعا نحو المرحاض .

(٢٥)

اختلس زهدي نظرة نحو جاره . كانت أصابعه المدبغة بصفرة النيكوتين تهتز والمقص الصغير يرتعش في يده . وقال زهدي محاولا ادخال روح المرح الى قلبه :

ــ سأسمعك نكتة قذرة يا أبو نضال .

لوى الفدائي السوري فمه ببرود .

ــ هــــات .

وأخذ زهدي يقص النكتة وهو يطلق قهقهات مدوية اثر كل جملة . وكان السوري يبتسم ببرود وافكاره تهيم في أجواء بعيدة . وعندما أنهى زهدي النكتة قهقه جميع المعتقلين بضجيج . وابتسم أبو نضال مجاملا لكنه لم يضحــك . واجتاحت زهدي موجة من المرارة والندم .. انا اضحك ، وهو مكسور الخاطر محسور الفؤاد . كلنا نستمتع برؤية اقاربنا واحبابنا وهو محروم من نعمة الاطمئنان على زوجته وطفله . غدا عيد ميلاد الطفل . أصبح في الخامسة . وهو لا يعرف عن أبيه سوى الذكر الحميد . والرجل يصاب بنوبات حنين صامت ينفثها بالبكاء المختلس وأحلام الكوابيس . وكم مرة استيقظت ليلا ورأيته يخبىء دموعــه تحت البطانيات ووجهه مستدير نحو الجدار . لكنه اقدر الناس على ضبط انفعالاته أمام الاخرين . وفي الايام الاخيرة أصبح أكثر نحولا وشحوبا . فقد دب اليأس في قلبه وما عادت وعود الصليب الاحمر تجدي في حقنه بامصال الامل الزائف .

وعاد يختلس النظر نحو جاره . وكان الاخر مشغولا عنه بادخال الخيط في خرم ماكنة الخياطة . لكن يده المهزوزة ما

كانت تفلح في اصابة الهدف . وطلب من زهـــدي أن يقوم بالمهمة مدعيا ضعف النظر . وادخل زهدي الخيط في ابرة الماكنة وعاد يتشاغل بتركيب جيب القميص وهو يهمس :

ــ سأكف عن التدخين . وسأنضم لفريق الرياضة حتى أحافظ على نضارة عضلاتي .

سأله السوري بلهفـــــة :

ــ ولمن ستعطي اجرك من السجائر ؟

همس زهـــدي بأهميـــة :

ــ سأعطيه لك . ولكن لا تقل لأحد .

وتلفت حوله خوفا من أن يكون صوته قد وصل لأي رجل اخر . لكن الجميع كانوا منشغلين عنه وعن جاره بماكنات الخياطة والقمصان . قال أحدهم معلنا نبأ هاما :

ــ تسربت الينا أنباء من المطبخ مفادها أنهم سيتحفوننا بأكلة كوسا محشي .

ــ كوسا محشي ! قل غير هذا يا رجل . أمن المعقول أن يقوموا بهذه الفعلة ؟ تبقى مصيبة . اذا أرادوا ان يقدموا لكل سجين كوساية واحدة فهذا يعني بأن على الطباخين أن يقوموا بحفر ٨٠٠ كوساية أو أكثر . هذا اذا اقتصرت العملية على سجن نابلس وحده . أما اذا تجاوزتها وشملت بقية السجون في الضفـــة والقطاع واسرائيل فعليهم أن يسخروا أجهزة الدولة كلها للقيام بهذا المشروع الخطير . فاهنأوا يا رفاق وأبشروا باهتزاز ميزانية الدولة اذا كان الخبر صحيحا .

قال آخر وهو منكب على كم أحد القمصان :

ــ لا تتعجلوا الهناء . فاذا كان الخبر صحيحا فسيسخروا افانين التكنولوجيا للقيام بهذه المهمة . آلة واحدة من آلاتهم قد تحفر ٥٠ كوساية في الثانية الواحدة . وبهذا فلن تضطر أجهزة الدولة للانشغال بأكلتكم الموعودة

ان صح التعبير .
قال آخـــر متأففا :
ـــ أنت انهزامي المواقف دائما ؛ ومغرم بسد منافذ العزاء في وجوهنا . دعنا نأمل يا أخي . أفي ذلك جرما ؟
ـــ آمال المهزوميـــن هزيلـــــة .
قال زهـــدي محتـــــدا :
ـــ علي الطلاق ما أنا معطيك ولا سيجارة بعد اليوم .
ابتسم المتهم بالانهزامية ورفع رأسه عن ابرته
ـــ النية معقودة قبل سماع أقوالي يا زهدي . فلماذا تتخذ من انهزاميتي ذريعة لتنفيذ وعد قطعته لجارك ؟
وتبادل الاثنان نظرة تحد طويلة . وأطلق زهدي اثرها ضحكـــة مدويـــــة
ـــ سمعتني يا عـــرص !
ولكز جـــاره بكوعـــــه
ـــ أسمعت يا أبو نضال ؟ هؤلاء الابالسة لا يفوتون شاردة ولا واردة .
قال آخـــر بفخـــــر :
ـــ للسجن فوائد كثيرة أهمها انه يعلمك الحذر واستراق السمع لما يدور حتى داخل المراحيض .
وضج الجميع بالضحك بما في ذلك زهدي . لكنه عاد وتساءل بعد أن دارت له النكتة :
ـــ ماذا تقصد يا طويل اللسان ؟
قال الاخر متهربـــا :
ـــ لا أقصد أبعد من كلماتي . ولست مسؤولا عما يدور في رأسك ورأس الاخرين من تكهنات .
ـــ تملصت بسهولة يا عكروت . طيب . وماذا في ذلك ؟ وعدته بأن أعطيه سجائري . أفي ذلك جريمة ؟

قال الاخـــر مداورا :

ـــ لا شيء اطلاقا . ولكن لماذا لا تدلي بهذا علانية ؟ الاشتراكية لن تحرمك حرية التصرف بما تنالـــه بعد التوزيع . فمثلا انت حر في أن تتصرف بكوسايتك كما تشاء . تأكلها . تبروزها . تحنطها . انت حر . وانت حر كذلك في ان تهديها لي . وأنا أيضا حر في قبـــول هديتك . وسأقدم لك فروض الطاعة والولاء منذ الان .

وقهقه الاخرون بما في ذلك أبو نضال . وهز زهدي راسه متحسرا .

ـــ أعوذ بالله من هؤلاء الشياطين ! كيف أستطيع منافستكم وقد أصبح للواحد منكم رأس كراس بن غوريون نفسه ؟

قـــال آخـــــر :

ـــ ولتحذر اسرائيل من فعلتها . فعلى نفسها جنت براقش . أصبحت سجونها مزارع رؤوس بدلا من أن تكون مدافن كتيوشا . وسيصعب على التاريخ اطـــلاق حكمه . الاحتلال كان نعمة أو نقمة ؟ هذا هو السؤال العويص .

وخرج زهدي من المخيطة وفي يده ثماني سجائر . ووقف في الساحة المشمسة ينتظر أبو نضال لتحقيق وعده . وبالرغم من ان منظر السجائر كان مثيرا لكل الرغبات الفسيولوجية الا انه كبح جماح نفسه وقرر الا يتراجع عن قراره ولو لمدة ايام ثلاثة . لقد تورط وانتهى الامر . وكلمة الرجال اقطع من حد السيف . وقال لنفسه بمرح مصطنع : الرجل يرتبط من لسانه لا من رجله . لكنه حين رأى الجنديين الاسرائيليين الواقفين وراء الباب الحديدي يشعلان السجائر لبعضهما مد يده نحو واحدة وهو يتمتم . ماذا يضير أبو نضال لو أخذ سبع سجائر بدلا من ثمانية ؟ وهل كان الرجل يحلم بهذا الكنز ؟ والشمس دافئة . والاتكاء على جدع الشجرة يذكر الانسان بدنيا الناس والحرية . وسرت بذاكرتـــه أشرطة

متتالية من العالم الخارجي . وبوجه الخصوص شريط رحلته اليومية الى تل أبيب .

.. في الصباح تكون المدينة مغطاة بالغطيلة البيضاء . ونركب الباص ورؤوسنا مثقلة بالنوم . وعلى مشارف طولكرم تهب رائحة زهر البرتقال . وتلــوح أشجار الكازورينا في مدرسة خضوري كقلاع الرب في سماء الكرمل . وصوت عادل الكرمي يرنم السمع ويملأ القلب بالحنين وأحلام الاخاء . يا عادل الكرمي سلام الله عليك . تعال وعلمهم كيف تكون المحبة أعظم من كل الاحزان . ولكن ، ماذا تصنع الايام بعادل الكرمي لو انه مر بتجربة السجن الرهيبة ؟ هل يبقى بنفس الجلال ونفس المحبة ؟

وأشعل السيجارة . وسحب نفسا طويــلا وهو يرمق الباب المؤدي الى بوابة السجن الضخمة . ورأى الجنديين يفتحان الباب وبينهما طفــل لا يتجاوز الخامسة . واندفع الطفل راكضا نحو الساحة . ووقف وسط المكان . واخذ يتلفت حوله وهو يبحث عن وجه ما بين الرجال . وركض نحو زهدي وسأله بلهفة :

ــ انت بابا ؟

سقطت السيجارة من يد زهدي . قلبه يضرب بعنف . تلعثمت الكلمات في فمه . نظر حوله في وجوه الرجال بحيرة . وكان هــؤلاء يرقبون المرأتين الواقفتين بالباب . وكرر الطفــــل بالحـــاح :

ــ انـــت بابـــا ؟

ومد زهدي ذراعيه ورأسه يـــدور

ــ انـــت نضــــــال ؟

والقى الطفل نفسه بين ذراعي زهدي وبكى نائحا

ــ بابا . بابا .

وضغط زهدي الجسم الصغير المرتعد الى صدره وبكى

بحسرة . وكان الرجال يحملقون في الطفل بذهول . انسحب بعضهم نحو ممر الغرف خوفا من رؤية المزيد . وآخرون خبأوا رؤوسهم في جدران الساحة وبكوا بصمت . والمرأتان المتقدمتان برفقة الضابط تمسحان دموعهما بالمناديل .

وتأمل زهدي الجنديين الواقفين على الباب بحيرة . تبكيان ! أنتما تبكيان ! كل ما ترونه من وحشية وتعذيب داخل جدران الزنزانات لا يبكيكما . ويبكيكما طفل لا يتجاوز الخامسة ؟!

واندفع السوري من المخيطة راكضا . تناول الطفل من ذراعي زهدي والتحم به وبكى . ومسيرة البكاء طويلة . أطول من عمر النضال . وازدهار تقف وراء الطفل تمسح دموعها . والجدة المتلفعة بالسواد كادت أن تتهاوى على الارض فتلقفتها أيدي الرجال . وصاح واحد بصوت هادر : الله اكبر يا رجال . عاشت فلسطين حرة عربية .

ودوت الحناجر في صمت الساحة الكئيب :

ـ عاشت فلسطين حرة عربية .

ومسح الجنديان دموعهما . وأغلقا الباب من الخارج . واختبأا في الزاوية وراء أعمدة الاسمنت المسلح .

(٢٦)

مر عادل بالدكان فوجد باسل جالسا بين الفتيان كعادته يقص عليهم كيف خلع رقبة الحاكم العسكري نفسه . وان ذلك حدث طبعا أثناء فترة اعتقاله التاريخية . وقف عادل بباب الدكان وسأل أخاه :

ـ وما آخرة هذا ؟ ودروسك ؟ لم يبق الا أسابيع معدودات على الامتحانات فمتى ستراجع دروسك ؟ الم يكفك ما أضعته وانت في السجن ؟

وتلقف باسل كلمة السجن بروح انتهازية محضة

ـ دائما تقولون السجن . دائما . في الصباح والمساء . في الليل والنهار . دائما تذكرونني بالسجن وويلات السجن . وهل انا مسئول عن سجني وسجن غيري من الرجال ؟ لا يا سادة . انا لست مسؤولا عن تصرفات الاحتلال ومصالح الاحتلال . كما أن ما رأيته من أهوال داخل السجن هو جزء من واجبي الوطني .

وابتسم عادل وهو يحدج أخاه بما معناه « علينا ؟ » . لكن باسل واصل مدعيا عدم الفهم

ـ قالوا لي في الداخل : السجن للرجال . وان من لا يدخل السجن ولو ليوم واحد لا يصبح رجلا ولو نبت له بدل الشاربين أربعة .

تساءل أحـــد الخبثـــاء :

ـ وابوك هل دخل السجن أم لا ؟

وضحك الاولاد ومعهم باسل . وعادل يكرر التساؤل :

ـ وماذا بعد هذا ؟ ودروسكم يا أولاد ؟

قال هاني محتجـــا :

ـــ لسنـــا أولادا !

ـــ طيب رجال . ولكن على الرجال أن يقوموا بمسؤولياتهم ولا يتهربوا منها . وأنتم حاليا مسؤولون عن دروسكم فهل درستم ؟

قال هاني وهو يستدير بوجهه نحو الدكة : أنا درست . وقال اخر : وأنا درست . وصاح ثالث : وأنا درست كل دروس الاسبوع القادم . هز عادل راسه غير مصـــدق ادعاءاتهم وقال موجها الكلام لاخيه :

ـــ قـــم لـــــدروسك .

ـــ درست .

ـــ متى درست ؟ انت لم تفتح كتابا منذ خروجك من السجـــن .

والتفت باسل نحو الفتيان شاكيا همه

ـــ اذا رفضت القيام من فراشي صباحا قالت لي نوار : « الله يرحم أيام السجن . » واذا رفضت اكلة من الاكلات قالت لي أمي : « الله يرحم قرف السجن » . واذا تلكأت في تنفيذ رغبات الوالد قال لي : « لماذا خرجت من السجن ؟ » . متى تفهمون يا ناس ؟ أنا لست مسؤولا عن سجني وعن السجنات الاخرى التي سأنالها في المستقبل .

وتلفت حوله ليرى وقع الكلمات . فوجدهم يتوقعون المزيد . وفتح فمـــه ليبدأ من جديد . لكـــن عادل اسكته بنظـــرة صارمـــة .

ـــ قم لدروسك حالا .

واستدار عن الباب تاركا باسل في موقف لا يحسد عليه . وقال له أحدهم :

ـــ قم يا باسل واختصر الشر .

قال باسل متذمـــرا :

ـــ ماذا يظن الرجل نفسه ؟ ولي امري ؟ الا يكفيني اوامر الوالد ؟ والله ما انا قايم .

وأكمـــل بصفاقـــــة :

ـــ اتخن مثقف في السجن كان عاملا أميا لا يفك الحرف .

وتلفت حوله محتـــــدا :

ـــ الا تصدقون ؟

سالـــــه احدهـــم :

ـــ وصالح ، والياس ؟ وانطون وحمزة ؟

قال باستهانـــة :

ـــ هؤلاء لا يعرفون الثورة الحقيقية . الثوار الحقيقيون لا يحملون الكتب . بل المدافع . والخناجر . الخنجر له مفعول مضمون . تذكروا هذا القول جيدا .

وانطلق صوت الحاج مدويا في الباب :

ـــ وأنتم لا تحملون هذا ولا ذاك . يا الله اتفضلوا من غير مطرود . كل واحد يروح على بيته ودروسه . يا الله قوموا بلاش أكل هوا .

وتبادلوا النظرات . وتلكأوا . وانسحبوا وهم يلوون الشفـــاه .

*****

صعد عادل درجات منزل ابو صابر . وكانت أم صابر تنزل وهي ممسكة بيد أحد الاولاد . رفعت المنديل الاسود عن راسها ورحبت

ـــ أهلا وسهلا بأبو الشباب . اتفضل . أبو صابر فوق بانتظارك . سأمر بالدكاكين لاشتري بعض الحوائج وسأعود سريعا لنشرب القهوة معا .

ورحب به ابو صابر وهو ما زال بالبيجاما

ـ اهلا وسهلا . يسعد صباحك . كيف حالك وحال الشغــل ؟

جلس عادل على كرسي القش وتناول خيارة عن الطاولة واخذ يقرطها . وراحا يراجعان اخر ما توصلت اليه قضية التعويض من تطورات . وكان عادل قد اقنــع ابو صابر بضرورة المطالبة بالتعويض عن عطله وضرره طبقا للقوانين الاسرائيلية والمحلية .وقام ابو صابر بمقابلة الحاكم العسكري بعد كتابة عدة رسائل لرئيس البلدية والحاكم العسكري العام للضفة والقطاع . وقال له الحاكم العسكري في نابلس بأن الحكم العسكري غير مسؤول الا عن القضايا التي تختص بالامن وسلامة الدولة . لكنه أعطاه رسالة توصية لمؤسسة التأمين الوطني في الناصرة . وسلمه مدير المؤسسة كتاب رد على رسالة الحاكم . والحاكم بدوره قرأ الكتاب وكتب رسالة اخرى للمدير . والمدير قرأ الرسالة الثانية وسلمه ردا آخر وقال له متبرما : لــن نفيدك بشيء . والحاكم العسكري قرأ الرد وردد نفس الجملة : ونحن أيضا لــن نفيدك بشيء . راجــع الدوائر المدنية ووكــل محاميا . وأردف ابو صابر :

ـ ماذا افعل يا عادل ؟ أنا خايف مصاريف المواصلات تروح علي مثلما راحت أصابعي . بعت اسوارة من أساور أم صابر وصرفت ثمنها على المواصلات ولم انل سوى الروحة والجينة والتعب . أنا يئست يا عادل . وصابر لازم يترك المدرسة وينزل الشغل بدلا مني . هذه قسمتنا ويجب أن نرضى بها . والمكتوب على الجبين لازم تشوفه العين . وان كان غريمك القاضي تشكي همك لمين ؟

ـ باطل يا أبو صابر ! وتترك حقك يضيع بدون ملاحقة ؟ أهذا ما اتفقنا عليه ؟ شوف محمود كيف صبر ونال . وانت كمان لازم تصبر حتى تنال حقك . وصابر لازم

يستمر في الدراسة حتى ينفرج الحال .

وطفرت الدموع من عيني أبو صابر بتأثر . وامسك بيد عـــــادل

ــ والله يا عادل يا ابني ما انا عارف كيف أرد لك جميلك . وقفتك معي بهذه المحنة بتسوى الدنيا . ولكني لا أعرف ماذا افعل . والبلد ملخبطة والحال مايـــل واليهود مش سائلين عني ولا عن غيري . فهل سأستفيد من كثرة الملاحقة والسفر المتواصل ؟

ــ يا أبو صابر . اذا كنت تنتظر أن يأتيك حقك وانت جالس في بيتك مرتاحا ، تبقى غلطان . لازم تلاحق . لازم تتعب . والمسألة مش مسألة اسرائيلي وعربي وبس . المسألة مسألة عامل وصاحب عمل . واذا كنت لا تعرف كيف تخلص حقك في هذه القضية ، فكيف ستتعلم كيف تطلب حقوقك في القضايا الاخرى ؟ يجب أن تواصل . وعليك بتوكيل محام .

واتفق الاثنان على الفكرة وأخذا يناقشان تفاصيلها . وقال ابـــو صابر هامسا :

ــ أم صابر لن توافق على بيع اسوارة اخرى ما لم تكن واثقة بأن ثمنها سيصرف على الغذاء . المراة لا تصدق باني سأنال تعويضا من اليهود . تقول بأنهم سرقوا بلادا بأكملها فكيف لا يسرقون تعويضي أنا . فما رايك؟

ابتسم عادل وهز رأسه وهو يعرف بأن التساؤل ما كان تساؤل أم صابر بل تساؤل أبو صابر نفسه . لكنه تجمل بالصبر وقـــال :

ــ ولو كان الامر كما تقول أم صابر فعليك الا تسلم لهم الامر بسهولة . يجب أن توجع رأسهم بملاحقتك للقضية مقابل ما سببوه لك من عطل وضرر . على الاقل ازعجهم يا

أخي ، وهذا أضعف الايمان . وعلى كل حال هناك عمال اخرون نالوا حقوقهم بعد اصرارهم على ملاحقة الامور . وقد نالوا تعويضات ممتازة . والشركة ملزمة بتعويض العامل سواء كان بليشكا أو بدونها . فلماذا لا نفعل مثلما فعلوا ؟

تلفت ابو صابر يمنة ويسرة وهمس :

ـ أنا فاهم . بس الحرمة رأسها يابس ولا تفهم الا في قضايا المطبخ والاولاد . سمعتها الليلة تهمس في أذن صابر محاولة اقناعه بترك الدراسة . والمسكين وافق . وأدعيت أنا النوم . دعنا نغفل الموضوع قبل أن تحضر أم صابر وتسمعنا .

ورأى ابتسامة على وجه عادل فهب للدفاع عن نفسه

ـ لا تبتسم . غدا تتزوج وتعرف معنى المسؤولية .

يتزوج ؟ هو يتزوج ؟ كيف ؟ ومتى ؟ والافواه التسعة والالة ؟ وعدا عن ذلك فمن سترضى الزواج من عامل مثله ؟ لن تقبل الزواج منه الا واحدة من العاملات . وهؤلاء في العادة جاهلات لا تجيد الواحدة منهن الا الطبخ والنتف والفقس الوفير . وحتى هؤلاء أصبحن ذوات تطلعات برجوازية . والضياع الطبقي قد فرض وجوده على الزواج أيضا . ونفض رماد سيجارته بقرف وهب واقفا .

ـ أنا ذاهب . اراك غدا .

ـ تذهب بدون قهوة ! علي الطلاق ما انت رايح بدون قهوة . سأصنعها بيدي . تعلمت كيف أستخدم يدي الاخرى . اجلس يا رجل . اجلس . ما زال الوقت باكرا . واليوم السبت والبلد مليانة عرب ويهود . تروح فين ؟

وعاد أبو صابر حاملا فنجاني قهوة وقال باسما :

ـ نسيت أن أقص عليك اخر أخبار زهدي

فتح عادل أذنيه بلهفة
ـــ زهدي ؟ ما اخباره ؟ هل قابلته سعدية ؟
ناوله أبو صابر فنجان قهوة وعاد ينظر من النافذة
ـــ الحرمة تاخرت ؟
وجلس على حافة السرير ورشف قهوته
ـــ الرجل أصبح مثقفا . اتعرف ماذا طلب ؟ طلب كتبا .
ـــ زهدي طلب كتبا !
ـــ آ والله . زهدي لم يطلب اكلا ولا سجائر ولا ملابس . طلب كتبا فقط . اتصدق ؟
ـــ وأي نوع من الكتب ؟
ـــ كتبا لم أسمع بها من قبل . سعدية تحفظ أسماءها عن ظهر قلب . وبالمناسبة . المراة ترجوك ان تمر بهـــا لتحدثك بشأن الكتب . المهم أن الكتب ليست قصصا ، بل أبحاثا . هيء هيء هيء . زهدي يقرأ ابحاثا . من يصدق هذا ؟ سبحان المغير ولا يتغير . زهدي يقرأ الكتب ! والله عال يا زهدي . ولكن اسمع . ربما كان يطلبها من أجل زملائه .
ـــ وربما من أجل نفسه . فالرجال يستغلون أوقاتهم جيدا في الداخل . ولولا خوفي عليك يا أبو صابر لتمنيت لك ستة أشهر لتصبح مثلهم .
حدجه أبو صابر عاتبا وأشار نحو خزانة مكسورة الزجاج ترتاح على أحد رفوفها بضع كتب مهلهلة
ـــ انسيت بأني قاريء ممتاز ؟
وحمل كتابا ضخما ناوله لعادل
ـــ البؤساء . أروع كتاب في التاريخ . من أين لزهدي أن يقرأه ؟ هذا الكتاب بحاجة لصبر أبو صابر ودمـــاغ أبو صابر . أما الكتب التي طلبها زهدي فلا أعتقد بأنها كتب جدية كهذا . أنظر .

واخذ يقلب الصفحات المكتظة باعجاب مبالغ فيه . وعاد ينظر من النافذة بقلق :

ــ الحرمة تأخرت . لا بد انها تقف الان تحت نافذة أم بدوي تستفيبان بقية نساء الحارة . سأعرف كيف أداويها . المرأة تتركني ساعات طوالا ولا تسأل عني . وعندما أسألها تدعي المشاغل والمسؤوليات . عندما تحضر سآخذ منها اسوارة أخرى ولو ملأت الدار صراخا وشتائم .

وتناول عادل خيارة أخرى عن الطاولة وهو يبتسم .

(٢٧)

ضربت أم صابر يد ابنها الممدودة نحو صندوق الاسكدنيا .

ـ اترك من ايدك . هذه الفاكهة ليست لنا .

قال البائع مشفقا :

ـ دعيه يأخذ حبة يا أم صابر وحدي الله .

وتناول البائع بضع حبات وناولها للطفل . فاحتجت أم صابر بخجل

ـ بس الاسكدنيا غالية يا أبو حمدي !

رد البائع وقد أخذته حمية الشهامة والكرم :

ـ سلامة خيركم يا أم صابر . ما يغلى على الناس الطيبين غالي . كل يا ابني صحتين وعافية . قبل الاحتلال كانت الاسكدنيا طعام العصافير . أما الان فهي مدللة وبنت أكابر . أصبح الكيلو منها بـ ٩٠ قرشا . الله يلعنها من عيشة . كل يا ابني كل . الله يقطع الاحتلال ويومه .

واجتاحت أم صابر موجة من التأثر لكرم الرجل فأخذت تكيل له الدعاء والثناء . وانتحت بالطفل جانبا ورفعت اصبعها في وجهه محذرة

ـ اذا قلت لاخوتك أطلع روحك .

ولم يجبها الطفل واستمر يلتهم الحبات والعصير يسيل على ذقنه ويديه . واقترب ضابط من الدكان وسأل أبو حمدي بلهجة مكسرة مشيرا للبرتقال .

ـ بكم هاتابوزيم ؟
فرك البائع يديه ورسم ابتسامة تجارية
ـ تؤمر يا أدون . السعر واحد والرب واحد . الكيلو بخمسة وعشرين . تابوزيم أبو صرة مثل الذهب .
لوى الضابط بوزه واستدار نحو زوجته الشابة التي تقف خلفه وخاطبها بالعبرية . وهزت المرأة رأسها نفيا بينما أشارت ابنته الصبية الشقراء نحو الاسكدنيا ورطنت . واستدارت أم صابر نحو العائلة وأخذت ترمقها من تحت المنديل بغيظ وحقد ... انشا الله تدشعوها . يا ريتها سم الهاري على قلبك وقلبها وقلبها . أولادي يشتهون الاسكدنيا وأنتم تبرطعون كالوحوش السايبة . يا ريتها فانية أمة محمد اللي خلت الانذال يسرحوا ويمرحوا ببلدنا وحاراتنا . سبعين عين تطرقكم يا عدوين .
ونهرت ابنها وهي تجره من يده
ـ تعال يا محمد . يا الله امشي نروح عالبيت .
وضرب الطفل قدمه بالارض وأشار نحو قطف الموز . فعادت تشده من يده وهي تختلس النظر نحو المرأة . وكانت تلك تتأمل الطفل بحنان حقيقي . لكن النظرة أشعلت فتيل الغضب المتوحش في قلب أم صابر . فصفعت ابنها بعنف على مؤخرة رأسه فبكى وارتفع صراخه . وهزت الاسرائيلية رأسها ومدت يدها تدفع بها الصفعات وقالت :
ـ لا لا . مش منيح . مش منيح .
شدت أم صابر وضع المنديل على رأسها وعروق رقبتها تنبض .. مالك ومال ابني يا عايبة . شفقانة عليه ؟ اسألي جوزك عن أصابع جوزي ان كنت مشفقة فعلا .
وتأملت كتف الضابط ونجومه بحقد .. كم رجلا قتلت يا قواد ؟ كم معتقلا خصيت ؟ تبتسم ؟ لا والله مؤدب ابن أكابر! وتدفع نقودا ثمن الفواكه ؟ كتر خيرك وخير ديانك . خليها

علينا يا ادون . البلد بلدكم والخير خيركم والدفع ليش ؟ تضحكوا علينا ؟ الدنيا كلها تضحك علينا فكيف لا تضحك انت!

وباخت الضحكة في وجه الضابط حين التقت عيناه بعيني ام صابر الحاقدتين . ودمدم كلاما عبريا موجها لزوجته . فلوت المرأة رقبتها وتشاغلت عن الطفل وأمه بانتقاء حبات الاسكدنيا الطازجة .

وفجأة . كأنما انشقت الارض عنه . قفز شاب ملتم الرأس بكوفية بيضاء . رفع يده اللامعة كالبرق وهوى بها على مؤخرة رأس الضابط . فغاص الخنجر في العنق حتى النصاب . أطلق الضابط آهة عميقة وهوى على صندوق الاسكدنيا والدم يتدفق كالنافورة . وصاحت الزوجة وحملقت برعب . وغطت الصبية وجهها بكفيها . فسال شعرها الاشقر على جبينها ويديها . وشدت أم صابر يد ابنها بعنف وتراجعت للخلف وهتفت : تسلم ايدك يا بطل . التفت الشاب وحملق في وجهها لحظة وقال من خلال كوفيته : روحي بيتك بسرعة .

صوت تعرفه ! عينان تعرفهما ! من أنت ؟ من أنت ؟ أعرفك . رأيتك . ولكن اين ؟

وأطلق الشاب ساقيه للريح دون أن يوقفه أحد . ووقفت أم صابر لصق الحائط تلهث وهي تشـــد راس طفلها الى ساقيها . وضرب البائع راسه بكفه وصاح : يا خراب بيتك يا أبـــو حمـــــدي !

والضابط يشخر والناس ينظرون اليه بوجوم . ثم اندفعوا متزاحمين . وامتلأ الشارع بالراكضين . والزوجة تصرخ وهي تشير الى الشاب الملثم الذي بدأ يختفي بين الجمع المتدفق .. امسكوا .. امسكوا .. لكن أحدا لم يمسكه . والصبية رفعت كفيها عن وجهها ورأت والدها متكوما فوق الصندوق والخنجر مغروس في عنقه . مدت يديها بحركة لا واعية وقد عقد الفزع لسانها . ثم أخذت تدق رأسها بحديد

مظلة الدكان . وتهاوت على الارض .

والتقت عينا أم صابر بعيني المرأة . النظرة الجزعة تنادي عينيها . تستغيثان . تستصرخان . وشيء ما يزعزع أبواب القلب المغلقة بدون استئذان . وبياض العينين النادبتين يطلق رياحا باردة كعصف السموم . وترنحت أعماق أم صابر وتهمتمت .. رحمتك يا رب . والطفل بين ساقيها ينقل بصره بين القتيل والمرأة والصبية ويصرخ. وفخذا الصبية المكشوفان حتى العورة ذكراها بأفخاذ ولاياها وكل الولايا . خلعت المنديل عن رأسها دون وعي وجللت به الفخذين العاريين . وتمتمت وهي تنحني فوق الصبية المغشى عليها .. يا حسرتي عليك يا بنتي . وشدها محمد وهو ما زال يصرخ . وكان الناس ما زالوا يتدافعون هنا وهناك يغلقون أبواب الدكاكين . ينطلقون بين الازقة . ويختبئون في الزوايا المعتمة . وأبو حمدي يقف وسط الشارع طالبا النجدة . لكن أحدا لم يقف الى جواره أو يهب الى نجدته .

وشد محمد ثوب أمه للمرة الاخيرة . ثم تركها وانطلق هاربا بين الناس . نادته أم صابر وهي تنقل بصرها بين ابنها وبين الصبية . وانتزعت نفسها عن الارض . لحقت بالطفل وشدته من ياقته وهو يصرخ ويتلوى . ومدت أم صابر يدها نحو المرأة المولولة بالعبرية . ولمست كتفها برفق وهتفت .. بعينك الله يا اختي . بعينك الله .

ويد قوية تشدها من الخلف .. روحي لبيتك يا أم صابر . والتفتت نحو الرجل . كان عادل يقف خلفها مباشرة . فهمست ضارعة . « عادل ! » . سحبها ودفع بها بين الراكضين وقال بحزم ... روحي لبيتك وأولادك . فانطلقت المرأة بعد أن لمست كتف الاسرائيلية مرة أخرى بحيرة وهرولت نحو بيتها .

ألقت المرأة الاسرائيلية رأسها على كتف عادل فهمس

بعطف .. بسيدر ؛ بسيدر * ورش ماء على وجه الصبية فتحركت . وصاح به أحد المنطلقين ..

ـــ سيبك منهم يا عادل . سيارات الدورية جاية .

لم يلتفت للتحذير . اتجه نحو القتيل . امسك بيده يجس نبضه . صاح به اخر وهو يشده من كتفه ..

ـــ الدورية . سيبك منه الخنزير مش شايف نجومه !

ومد عادل يده نحو النجوم . انتزعها . القى بها على الارض . حمل الصبية على كتفه . ومشى في عرض الشارع الخالي والمرأة الباكية تتبعه بصمت .

---

* بسيدر ، كلمة عبرية تعني لا بأس

(٢٨)

اختبأ اسامــة في زاوية معتمة من الشارع . انتزع الكوفية عن رأسه . القى بها على الارض . التفت يمنــة ويسرة . انطلق بين الجموع المتدافعة . أحس بالانظار تنهش وجهه ، واصابع كثيرة تشير الى يده المشدودة على مقبض خنجر وهمي . واصل الركض في اخر الشارع . سيارات الدورية . تتقدم ببطء . ارتقى درجات دار خاله . وكــان باسل بالانتظار . لم يتبادلا كلمة واحدة . اخذا يركضان في الساحة السماوية . نحو أحد الممرات الضيقة خلف أعمدة الرخام . وقفا أمام جدار . عبث باسل ببلاطة ما . انفتح باب سري يقود الى قبو أثري .

اشعل باسل مصباحا كهربائيا صغيرا . نزل الدرجات المتآكلة واسامة في اثره . قال باسل بصوت لاهث :

ــ هل عرفك أحــد ؟

نفس طويل . رائحة العفونة اللاذعة . صناديق المتفجرات في طرف القبو . تحسس خشبها البارد . أجاب :

ــ لست واثقا ، ربما كان سعفان .

استدار باسل فجأة . صوب المصباح على وجه محدثه .

ــ سعفان ؟! مصيبة ، أواثق انت ؟

ــ لست واثقا . هيا تقدم . يجب أن أختفي بسرعة . المجازفة لا تجدي . ربما كان سعفان . وربما كان يعرفني . رأيتــه في الدكان مرة . المهم . الرجــال ينتظرونني هناك . وانت هل تعرف مسؤولياتك ؟

ــ اتكل على الله وعلي . أنا وهاني سنقوم بتوزيـــع الكمية المطلوبة . وكلمة السر أعرفها .

شـــد كتفـــــه .

ــ حاذر يا باسل ، المسألة جدية . أنت تعرف العاقبة . لن أذكرك بما أوصيتك به سابقا . نصيحة نهائية . لا تقطع بأي موضوع دون استشارة لينه . فتاة صلبة. لديها خبرة . والان ، دعني أقبلك . قد لا أراك ثانية . كن رجلا يا باسل . لا تثق بأحد . وخصوصا سكان هــذه الــدار .

واصلا المشي في القبو البارد الطويل . عند نهايته فتح باسل الجدار من الداخل فوجد أسامة نفسه في متوضـى الجامع الكبير . وخرج مع المصلين . ركب سيارة أجرة ، توجهت به نحو احدى القرى . وضاعت معالم المدينة .

ساعة بدون توقف . مشى في الممرات الجبلية الوعرة ثم جلس على حافة صخرة . خلع حذاءه . وكنزته . فتح قميصــــــه .

الشمس تأخذ طريقها نحو الغرب . نسمات أيار من خلال السرو والزيتون . تمدد بطوله على الاعشاب البرية . متكيء برأسه على حضن الصخرة الاملس . احساس بالضياع . رغبة في النشيج . عيناه تحومان في الفضاء الازرق فوقه . ظلال البلوطة . زيتون وصنوبر في بطن الجبل . كــروم العنب في السفوح .

رفع يده . تأملها . نفس اليد التي كتبت قصائد الحب والسلام . وخروف العيد !

يتأمل تكسر الاشعة فوق عروق يده . دهشة . ذهول . واحد في قطيع الحساسين الحيارى . تحسس التراب . عاشق . ولكن ! مضى زمان الشعر وأحلام الهوى . وهذه اليد . هذه اليد ! يدان تخبئان وجها مذعورا لصبية شقراء .

الام تصرخ : امسكوا . يد خفية تمتد الى اعماق القلب . وحدة . وحشة . صمت . وصوت فلاح بعيد ينفخ في شبابة وآخر ينشـــد

أوف أوف
يا جبل حيي السهل والـــوادي
وحيي الشجر بسفوحها بــــلادي
وان كان العدا حصدوا زرعنا
بزرع أنا في الارض أولادي .
أوف أوف

ضبابة شاعرية خيمت فوق راسه . لماذا توجعنا الاغاني الجريحة ؟ شعب رومانسي النزعة ؟الكنا لم نعد كذلك . تكسر الحب عند تدميك يجعل الروح سلعة في سوق الدم . لكنني هنا . في هذي الارض . وبالرغم من كل شيء . فانا هنا . سأبقى هنا . فليقذفني الزعيم الى أنحس طيارة في مطار عربي . ولتطوح بي قاذفات اللهب الى لشبونة وأمريكا ودول النفط . وليقذف بي أي قاذف في هذي الارض الى ما شاءت له قريحته من مناطق مجهولة الموقع والتاريخ . فأنا هنا . وقد عدت . لهذي الصخرة . لهذي الحفرة . وهذه اليد . ملطخة بالدم . لكنها جسر الحرية في نهر الاحزان . وأنا حاليا أرفعها . أطلقها . جناح نسر يجرح حاجز الصوت بنصال حده . وصوتي هادر . لعلعة الكاتيوشا والنابالم . فلتهتز الارض لوقع قدمي اذا مشيت . ولترقبني الاعين الغافلة اذا غفوت . فأنا للصحوة أسري من بين دياجير السخط .
وربط حذاءه ، ومشى جذلا يصفر .

(٢٩)

دوت الطرقات على الباب المحتضر فتزلزلت أركانه . وهبت المرأة من فراشها وبسملت ألف مرة قبل أن تطأ قدماها أرض الغرفة . وعادت الطرقات تدوي فارتفع ضغط الدم وكاد القلب الضعيف أن يتوقف عن الخفقان .

سترك يا رب . اللهم اجعله خيرا ، لو ان الجسر مفتوح بالليل لظننته أسامة . وصوت هادر وراء الباب يرطن .

ــ افتاخ هاديلت ! *

اليهود ! رحمتك يا رب ماذا يريدون !

وأضاءت النور وهرعت نحو الباب وفتحته ، فاندفع الجنود للداخل كالعاصفة . وصاح احدهــم :

ــ أسامة الكرمي هون ؟

امسكت بجــدار الزاوية تتفادى السقــوط ، والعينان مفتوحتان على سعتيهما واللسان معقود والقلب يترنح . وتناثر الجنود في الغرف الاربعة ، وبدأت أبواب الخزائن تئز وتتلاطم ، والبنادق مشهرة تبحث عن الطريد . وهتفت بصوت مبحوح لم يسمعه أحد .

ــ أسامه ؟ أسامــة ؟

ووقف قبالتها ونهرها

ــ أين أسامة يا ست ؟

ــ أسامة ؟ أسامة في عمان ، سافر .

ــ أيــن أسامـــــة ؟

أسقطت يدها وحملقت في وجه الجندي بعينين كليلتين ، أمسك الجندي بيدها وجرها نحو الخزانة .

---

* جملة عبرية تعني افتح الباب .

ـ هذه ملابس من ؟

ـ ملابس ابني أسامة .

ـ وأيـــن أسامـــــة ؟

ـ سافر الـــى عمـــان .

ـ لم يسافر الى عمان لكنه مختبيء هنا في مكان ما .

وتركها واقفة أمام الخزانة وبدأ يبحث تحت السرير ، تحت الطاولة ، وراء ستائر النوافذ ، وفتح الجوارير وأخذ ينقب الاوراق ويبعثر الكتب .

ـ ابنك مهتم بشؤون العمال ، لماذا ؟

جلست على حافة السرير ، ما زالت ترتجف . الجندي يقلب قصاصات الجرائد والمقالات المطبوعة .

ـ ابنك يجمع أخبار العمال ، لماذا ؟

ـ ابني أسامة الله يرضى عليه متعلم ويهتم بكل شيء .

ـ ابنك أسامة الله يرضى عليه مهتم بشؤون العمال فما صلته بهم ؟

الجمتها اللهجة الهازئة . رفع عينيه مستطلعا الجواب . جوبه بنظرة اشمئزاز طويلة . خفف من حدة لهجته .

ـ أين كان ابنك حين طافت السماعة بالبلد تطلب من الرجال اثبات وجودهم في مدرسة الصلاحية ؟

قالت ببطء :

ـ تقصد يوم مقتـــل .. الـــ ..

ـ نعم يوم مقتل الضابط . أين كان ابنك ؟

نظرت الى طرف شبشبها فتنبهت الى وضعها . لا حول ولا قوة الا بالله . قابلت الرجال بقميص النوم فقط ، وهبت مذعـــــورة .

صاح الجندي شاهرا السلاح .

ـ مكانـــــك .

تأملت رشاشه ببرود .

ـ انزل هذا الشيء من يدك بلاش مسخرة . اريد ان ارتـــدي روبـــي .

مدت يدها نحو الرشاش تزيحه من طريقها ، ومشت نحو المشجب . وقف خلفها وما زال شاهرا سلاحه .

ـ لكانك تتوقعين حضورنا !

لبست روبها . تحجبت بيانس الصلاة . ولم تجب .

ـ الم تتوقعي حضورنا ؟

ببـــرود شديـــد .

ـ لا .

ـ ولكنك لست خائفـــة !

ولم تجب ... أخاف ! علام الخوف ؟ لم يبق من العمر الكثير . الوحيد الذي أخاف عليه بات مهددا ، هل اخاف على شيبتي ولا أخاف على شبابه !

ـ تتصرفين كما لو كنت قد اعتدت وجودنا في دارك ؟

اعتدت وجودكم في منازل الجيران . لا أفارق النافذة الا للنوم . امسكت مسبحتها . جلست على حافة السرير . بدأت تسبح . رفعت عينيها . يحدجها بغيظ .

دمك ليس خفيفا لا والله . لولا خوفي على ابني لدعوت الله أن تثكلك أمك . استغفر الله العظيم . وقل لن يصيبكم الا ما كتب الله لكم . لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . له ملك السموات وما في الارض ...

عـــاد يلـــح

ـ سألتـــك !

ـ مـــاذا تريـــد ؟

نفخ من خلال شاربين كثيفين .

ـ مـــاذا تريـــد ؟

ـ يا ست ! تتصرفين وكأنك تتوقعين زيارتنا .

ـ ومن لا يتوقع زيارتكم ؟ احتلال .. ماذا ننتظر ؟

ــ هل كنت تتوقعين زيارتنا ؟
ابتسمت . لم تعلق . تدمدم وتبسمل . صاح .
ــ أنا أسألك يا ست .
اشتد وجيب قلبها . رمشت عيناها . حملقت .
ــ وماذا تريد ؟ الدار أمامك فتش كما تريد . أسامة في عمان . اذا كنت تريده فاتبعه
هز رأسه . دمدم .
ــ سنتبعه الى عمان ، أتظنينها صعبة ؟
ابتسمت ... نسيتم الكرامة !
بلطف
ــ لماذا ابتسمت يا ست ؟
هزت مسبحتها . واصلت دمدمتها . لم تجب .
استدار عنها وأخذ ينعف الملابس من الخزانة ويلقي بها على الارض . ملابسها ، ملابس ابنها ؛ أحذيتهما ، وكيس الجوارب التالفة . فتح الكيس وأخذ ينثر الجوارب فردة فردة . وكيس نايلون مليء بقمر الدين ، فتحه ونظر اليه بتوجس وقربه من أنفه يشمه .
ــ ما هذا ؟
ــ قمر الدين .
ــ آه ، قمر الدين ، أتصومين رمضان ؟
أصوم رمضان ، وأؤدي الصلوات الخمس يوميا وأدعو الله أن يأخذكم جميعا ويخلصنا من شوفتكم . وتكومت الملابس في تل صغير على الارض أمامها بينما تناثرت الكتب والاوراق في كل شبر من أرض الغرفة . ودخل الجنود وهزوا رؤوسهم نفيا ورطنوا بالعبرية .
وقفت واستدارت نحو النافذة ، ورأت الجيران يحملقون من وراء زجاج النوافذ المضاءة ، وكانت أم صادق تختفي خلف الستارة تسترق النظر من شق صغير بين الضلفتين .

والتقت نظرات الجارتين . ابتسمت أم صادق مشجعة ، ردت أم أسامة بحركة من رأسها ودمدمت . وارسلنا عليهم طيرا أبابيـــل ، ترميهم بحجارة من سجيـــل ، فجعلناهم كعصف مأكـــول .

وتشاور الجنود ، خرجوا من الغرفة ، وبقي واحد . أمسك بالاوراق التي اشار اليها الجندي السابق . جلس على كرسي المكتب وسأل بلهجة متحضرة :

ـــ أين ابنـــك ؟

ارهاق وملل .

ـــ وماذا تريدون من ابني ؟

ـــ لا شيء ، سنأخذه دقائـــق معدودات ونعيده اليـــك بالسلامـــة .

لا سلم الله فيك موخز ابرة يا ابن الحرام ، تضحك على شيبتي يا لعين الوالدين !

ـــ سافر ابني الله يرضى عليه الى عمان قبل ثلاثة أيام ولـــم يعـــــد .

ـــ متى سيعـــــود ؟

ـــ بعد أسبوع أو أسبوعين لا أعرف .

ـــ متى غادر الدار ؟

ـــ قلت لك قبل ثلاثة أيام .

ـــ متى رأيته اخر مرة ؟

فكـــرت قليـــــلا .

ـــ اكل فطوره الله يرضى عليه ونزل .

ـــ وهل اخذ معه ثيابا ؟

تذكرت بأنه لم يأخذ . اجتاحتها قشعريرة . تماسكت .

ـــ أخـــــذ .

ـــ وماذا أخذ ؟

لا تفرفط روحي الله يسم بدنك في ساعة هالمسا .

ـ أخذ بدلة وغيـــارا .

وسأل سؤالا اخر لم تسمعه . كانت تفكـر بموضوع الملابس الذي لم تنتبه اليه حتى تلك اللحظة ، وكان رأسها يميد تحت ضربات الصداع الناتج عن ارتفاع ضغط الدم . أحست بثقل يجثم على صدرها ، وبدأ العرق يتصبب عن جبينهـــا .

ـ يا ست ، سألتك ولم تجيبي .

قامت من مكانها تبغي الوصول الى زجاجة الدواء ، ترنحت ، سقطت على حافة السرير باعياء .

ســـأل بلطـــف :

ـ هل تشكين من شيء ؟

أشكوكم لله يا مجرمين . ستأخذون ابني ! أين ذهب ابني ؟ لم يذهب الى عمان . عملتها يا أسامة الله يرضى عليك ؟ تكذب على أمك يا منى عيني ؟ وماذا فعلت ؟ أين ذهبت ؟ والضابط قتله شاب ملثم بكوفيـــة بيضاء . كوفية ابيك يا أسامة . لا لا ، غير معقول . أسامة يخاف علـــى النملة من وطيء نعليه . أسامة حنون ، رقيق القلب وديع كالحمل . سقا الله أيامك يا خروف العيد ، وتلك القصيدة المضحكة . ابني يبحث عن وظيفة ، وبمجرد أن يجدهـــا سيتزوج من ابنة خاله نوار ، نوارة الدار : الشعر الاملس ، والبشرة الصافية كالحليب . يا ما أحلى الصلاة على النبي . فليطمئن قلبي ويهدأ . ولكن عبثا . لا هدوء ، ولا راحة ، ولا انزاح الثقل عن الصدر المضغوط .

لهثت وهي تمسح عرقها بحافة يانسها .

استغفرك وأتوب اليك . الله يرضى عليك يا أسامة يا حبة عيني . الله يرضى عليك ويجعل لك بكل خطوة سلامة . سترجع باذن الله محروسا بجند الله وملائكته .

ـ هل تشكين من شيء يا ست ؟

سقطت المسبحة من يدها . أمسكت بحافة السرير وراسها يتمايل .

وقف الجندي قبالتها وسأل :

ــ ألديك دواء ما ؟ هل أساعدك ؟

لهثت وانفاسها تتقطع .

ــ افتح الشباك ، افتح ، نادي أم صادق .

فتح الجندي النافذة ونادى أم صادق ، اختفت المراة خلف الستائر بذعر . وصاح الجندي ثانية

ــ يا أم صــــادق ...

ولم تجبه ، فعاد يصرخ بحـــــدة :

ــ يا أم صادق تعالي لجارتك .

وانسحب من الغرفة وهو يلقي على المراة نظرات قلقة . فماذا لو ماتت السيدة ؟ سيشيعون في المدينة ان الجنود قتلوا امراة في السبعين بدون سبب . اشاعات وعرائض وشكاوي من رئيس البلدية والصليب الاحمر . وسمعـــة اسرائيل المسالمة ستتعرض للتشويه والنهش . وهذه المراة لا تساوي ما سنتعرض له من مهـــازل . ونزل الدرجات مسرعا ،وركب الجنود السيارات تاركين الحي مضاء النوافذ .

ودخلت أم صادق تلهث . واقتربت من المراة .

ــ أم أسامة ! سلامتك يا حبيبتي ، أين الدواء ؟

أشارت أم أسامة بيدها نحو الطاولة المليئـــة بالاوراق المتناثرة . ونعفت أم صادق الاوراق والقصاصات وعثرت على الزجاجة بعد بحث طويل . ناولتها حبة وكوب ماء وهي تنثر الادعية والبسملات .

ــ خذي يا أم أسامة ، اشربي بالهنا والشفا ، روحي الله يقطع شوفتهم يا شيخة ، والله أنا كان قلبي عليك من أول ما دخلوا بيتك . كنت اتمنى أن أكون بجانبك ، ولكن العين بصيرة ، ما انت عارفه . كنت شايفه كل اللي جرى .

الجندي الاول أبو الشوارب الله لا يعطيه العافية ، شفته وهو مصوب عليك الرشاش فوقف قلبي وقلت : رحت بشربة ميه يا أم اسامة . الله لا يعطيهم العافية ، يا ريتهم سود بجاه الرب المعبود . تعالي يا ختي ، نامي منيح ، نامي . انا جنبك لحد الصبح ، ولا يهمك يا أم اسامة ، الناس للناس يا حبيبتي ، شدة وبتزول .

وذرفت أم أسامة الدمع السخين ... ابني ، حبيبي ، يا نرى انت فين يا أسامة يا روح أمك ؟ معقول تكون عملتها يا أسامة ؟ معقول يا ملاك يا أمير يا ابن الامير ؟ معقول ؟!

وهتفت أم صادق مواسية :

— ولا يهمك يا أم أسامة ، شدة وبتزول .

وفكرت المراة ودموعها تسيل في مشاركة وجدانية حميمة .. يا حسرتي عليك وعلى شبابك يا أسامة ، بكرة يطلعوك من تحت الارض ويسلخوا جلدك . أولاد الحرام عرفوك ، والجواسيس كتار . الله لا يعطيهم العافية ، وأمك ما فرحت فيك ولا بشبابك يا ولدي .

ونادتها أم أسامة بصوت واهن

— بعيوني يا أم أسامة ، اطلبي يا حبيبتي .

وتنهدت أم أسامة وظلبت منها أن تبحث لها في الجارور العلوي عن كوفية زوجها البيضاء .

— أعطيني الكوفية يا أم صادق خليني اتبرك من ريحة المرحوم :

وفتحت المراة الجارور فوجدته فارغا ، وأخذت تعبث بكوم الثياب الملقاة على الارض فلم تعثر للكوفية على أثر . وكانت عينا أم أسامة تبحثان مع المراة . وأخيرا هزت رأسها بيأس وواصلت البكاء ... عملتها يا أسامة ! الله يرضى عليك ، عملتهـا .

وفتحت عينيها على اثر نخزة في ذراعها ، وكان عادل يقف الى جوار الطبيب يخاطبه همسا . وجلس على حافة فراشها وقبل يدها

ــ عمتي .. سلامتك يا عمتي .

وأمسكت بيده وذرفت دموعــا حــــارة

ــ عملها أسامة يا عادل ، عملها .

طأطأ عادل ولم يجب . وعادت تنوح

ــ لم افرح به يا عادل يا ابني ، كنت أنوي ان أزوجه من نوار ، لكنه عملها وكسر قلبي .

وتتالت الصور الكئيبة أمام عينيه . الضابط القتيل ، وزوجته النادبة ، والصبية الملقاة أرضا ، عارية الساقين الا من منديل أم صابر . والناس يركضون ، وصياح أحدهم يدوي .. سيبك منه الخنزير . وطفرت المرارة الى حلقه . ابن عمتي يقتله وانا أحمل ابنته ، مأساة أم مهزلة ؟ ولكن ! ذكرى رأس الاسرائيلية الملقى على كتفه تفتح آفاق العالم الضيق رغم كل الحدود .

(٣٠)

عالم الحرية والناس ! والشوارع المتوتـرة بالحياة والحركة ، والشجر ونوار أيار . ورائحة العشب الساخن وأشعة الشمس تحتضن الوجود .واهتز قلبه بانفعال وركض بضع خطوات على الرصيف الخالي من الناس . وركب زهدي سيارة سرفيس ، وسمع اغنية مرحة في المذياع فازداد خفقان قلبه . سعدية والاولاد وعادل الكرمي وابو صابر . حياك الله يا نابلس ، ذبحني الشوق وحق الاله .

ونزل في الدوار ، وتلقفته التحايا والسلامات والقبلات على النواصي وفي الدكاكين والازقة . يا الف حمد اللـه عالسلامة يا زهدي ، اتفضل صحن كنافة حلوان خروجك من السجن . اتفضل يا رجل ما انت ملحق على أهل الدار . بكره تزهق من صوت الحرمة ودوشة الاولاد .

أزهق ؟ وكيف أزهق ؟ رحم اللهأكـواب الشاي وشاشـات التلفزيون بداخلها ، والوجـوه تصبحني وتمسيني فطورا وعشـاء .

وازدادت خطواته اتساعا . وعندما أطل على فوهـة الحارة ورآه بائعو الخضرة واللحم المجاورون لمنزله أطلقوا صرخات الدهشة والفرح ، وبدأوا يصيحون .. يا أم حماده . لكن أم حماده كانت مشغولة عن العالم الخارجي بحمامها الاسبوعي ، وكان بابور الكاز يملأ رقعة الحمام الصغير بالضجيج والبخار .

قفز زهدي الدرجات وقلبه يضرب . دفع الباب بقدمه .

أطلق الباب صريرا نائحا وانفتح . وكان عمار الصغير يجلس على أرض الممر يلعب بأغطية الطناجر . وحملق الطفل في وجه أبيه بدهشة وهتف :

ـــ بابا ! انت جيت يا بابا !

أسكته بقبلة . وكانت سعدية تشق الباب وتنادي :

ـــ ميـــن ؟

دفع باب الحمام والتحم بالجسم الساخن المبلل بالماء . وشهقت سعدية وبكت ، وتأملت وجه زوجها من خـــلال سحابات البخار والرعب مرسوم على وجهها الملفوح بسخونة الحمام وحرارة الانفعال .

ـــ هربـــت يا زهــــــدي ؟

ـــ لا لا ، لم أهرب ، أطلقوا سراحي . اسكتي . . اسكتي .

وأخذ يقبل اللحم الساخن ويغرز انفه في عبير الصابون وأمواج الانوثة . دعيني انسى ، دعيني . حلمت كثيرا ، حلمت ، حلمت ، لكني لم احلم بلقاء أسخى وأكرم . هذا الصدر ، وتلك العجيزة ، شواطىء الامان اليتيمة في بلد محتل . والجنس البشري يتكاثر رغم كل المصائب ، متعة الشعب المضمونة . وهذا الكنز يذكرني بقلاع لا يغزوها دخيل . والارض الخصبة تتلقف البذار وتحيله غزارة في الانتاج والاستهلاك . وعندما يتغيب المنتج عن موقعه تجوع أفواه في مواقع أخرى وتتساقط الاساور عن الزنود المكتنزة .

أين الاساور يا سعدية ؟ طارت جميعها ؟ سأشتري لك غيرها ، وسيأكل الاولاد كثيرا . غدا أنزل غربا أبحث عن عمل . ما زالوا بحاجة لايدينا ، يضمنون سكوتنا . ولكني تعلمت كيف أسكت بحذق وأتكلم بحذق . وعندما أتكلم أنا فاصغي أنت ، لا تتحركي ، ودعيني أنسى ، أنسى . حلمت كثيراً ، حلمت حلمت . آه يا سعدية . لماذا لا يتركني العالم لشأني . لقمة وفرشة وهذا . . . هو كل ما يطلبه أمثالي من

الطيبين . وأنت طيبة . ما أطيبك !

وجلس على السرير محفوفا بأولاده .

حماده ؟ كيف أحوالك يا رجل ؟ والله زمان يا حمادة . ماذا فعلوا بك قل لي . ضربوك ؟ لا بأس يا بني ، الضرب يقوي العضلات الرخوة ويقدح زناد الراس . ماذا فعلت الدراسة برأسك ؟ أين وصلتم في التاريخ ؟ درستم عن الثورة الفرنسية ؟ وأنا يا بني درست . درست كثيرا وسمعت أكثر . ورأيت الطفل ابن الخامسة يقتحم أسوار المعتقل فيذرف الاباء دموع السخط والالم . حتى الجنود بكوا ، تذكروا أبناءهم وبكوا . وقرأت رسائل أبو سالم ، وسمعت أخبار مسعودة وعجلها الابيض . مات العجل وبقيت مسعودة متورمة الثديين تحلب وتطعم أطفال الغير . بروليتاريا الانسان والحيوان والاستنزاف المشروع في عرف التشريعات السماوية والدنيوية . لا تبتئس ، فحركة التاريخ لا تتوقف ، وكل شيء مرهون بردود فعلك .

ماذا لديك يا سعدية ؟ حتى العدس بات ارستقراطيا ؟ لماذا ؟ بكم الكيلو ؟ لا بأس ، انزل يا حماده اقترض من البقال وقل له سأسدد حسابي بعد أيام قليلة ؛ فغدا أتوجه غربا للبحث عن عمل . ووقف خلف زوجته في المطبخ المعتم يرقبها وهي تجهز الطعام . مسكينة . برغم الضحكة العريضة التي تملأ وجهها الا أن الخدود المتهدلة تشي بواقع الايام الصعبة التي مرت بها . وهذه الجوقة من جراد لا يهدأ له سن . سبحان المعطي ! لماذا ينهمر الاطفال علينا كالمطر فيعمون قلوبنا ولا يفعلون الشيء ذاته بقلوب الاغنياء ؟ حكمة ؟ اية حكمة ؟ الحكمة أن تظل القاعدة الشعبية وفيرة العدد خاوية البطن كي تظل الوجاهات قلة متخمة الكروش . ومن ندوات عادل السجن استفدنا ، ومن عادل الكرمي سنستفيد .

ـــ عادل الكرمي ! بالاحضان يا أخي . الله يسلمك ويسلم عمرك واحبابك . اقعد يا زلمه . تعال نقعد في الغرفة . كيف أحوالك يا رجل ؟ والله زمان . ايه يا عادل ؛ لو انك تعلم . سأقص عليك كل شيء . والكتب التى بعثت بها وصلت . كتر خيرك . جميلك على الراس والعين وانشاء الله نسدك بالافراح . تشرب شاي ؟ بالله عليك ؟ لا والله لازم تشرب ؛ علي الطلاق لتشرب . هات شاي يا حمادة . شاي بالعطريه . أتعرف كيف كنا نصنع الشاي في السجن؟ نمزق كرتون البيض ونضعه تحت الكيلة ، والكيلة معلقة على عصا المكنسة بين السطلين ، وكان شايا فخما خصوصا انه يعرض علينا مسلسلات تلفزيونية لا تخطر لك على بال . ازدهار ونضال وطابون أم سالم والمسخن وأقراص الزعتر وفطيرة الحلبة ومسعودة والعجل المرحوم . الله يسهل على الرفاق . أينعم رفاق . دخلت أونطجي وخرجت رفيقا . حصلت على الاعدادية في السجن ناهيك عن الندوات المسائية . بروليتاريا ورأسمالية وبرجوازية وكمبرادورية والذي منه . وعادل السجن رجل رهيب . عقل يفكر ويد تفتح الراس دونما حاجة لاستعمال المفك . سأقص عليك كل شيء . ولكن ما أخباركم أنتم ؟ ما أخبار ابو صابر ؟

ورشف عادل الشاي بالعطرية ولم يبتسم .

ـــ غدا صباحا سنسافر أنا وأبو صابر الى حيفا لمقابلة المحامي . خسارة ؛ لن ننزل الشغل معا في الصباح . وقد كنت أحب ان أرى كيف سيستقبلك الشباب . على كل حال بسيطة . المهم يا سيدي ان أبو صابر حصل على قرار من المحكمة لصالحه . محكمة البداية في نابلس حكمت له بـ ٨٤ الف ليرة اسرائيلية كتعويض .

ــ عال عال . عظيم جدا ، بكره الرجل يفتح دكانا ويرتاح . ممتاز ، وتقولون عكا وخمه .

تنهـــد عـــادل .

ــ ما بك يا عادل يا اخي ؟ خير انشاالله ؟ أيحزنك أن يحصل الرجل على تعويض ؟ لا تكن كأولئك المتحذلقين . الغضب لا ينفجر في رأس أحبطه الجوع ، كن على ثقة .

ــ اعرف أعرف . أنا لم أفكر بهذا . لكن الشركـــة ادعت الافلاس ، ويبدو اننا سنواجه بالكثير من أمثال قانـــون « الحاضر الغائب » .

ــ والنتيجـــــة ؟

ــ والنتيجة ، ان أبو صابر لم يحصل على التعويض .

ــ قل غيـــر هـــــذا يا رجـــل !

ــ آ والله هذا ما حصل . ومحكمة حيفا بعثت لابو صابر بنسخة عن بيان الافلاس المزعوم وكأنه الرد النهائي الاخير .

ــ وماذا فعلتـــم ؟

ــ حتى الان لا شيء ، ولكني أقنعت ابو صابر بأن يواصل ملاحقة الموضوع ، وغدا صباحا سأذهب معه الى حيفا لنرى المحامي . في العادة ، وفي قضايا كهذه أعتقد بأن القانون ينص بأن تشكل لجنة من قبل المحكمة للتحقق من أمر الافلاس المزعوم .

وفكـــر لحظـــــة

ــ أتعرف يا زهدي . ما يؤلمني هو نظرات أم صابر . المرأة تنظر الي ولسان حالها يقول بأني كنت السبب في كل ما ضاع من جهد وتكاليف في سبيل قضية خاسرة أصلا .

هتف زهـــدي مشجعـــــا :

ــ مالك يا زلمة ؟ كأنك يائس حقا !

تمتم عـــادل بشـــــرود :

ــ يائس ! لكنني أصارع اليأس بيأس . هل تفهم ؟ حتى انا

لا افهـــم هذا الخليط الغريب . لا اعرف كيف افسر لك ما أفكر فيه ، ففي رأسي خليط لا استطيع تحديد معالمه ، وبالتالي لا استطيع تحديد موقعي بوضوح . سلام .. اخاء .. آمال البهائم وأحلام العصافير . لكنني ما زلت أحلم . أحلم بالمحال . ولكن ، هل باستطاعتي ان استخرج من الشوك وردا ؟!

ـــ الشوك لا يصنع الورد لكنه يحميه .

ـــ أما أنا فما زلت أحلم .

ـــ فسلام الله عليك اذن .

ـــ وعلى الدنيا السلام .

(٣١)

عبير الطابون . والزبل المحروق . وانسام الليل الباردة تنقلها أغصان الخوخ . وتحت ظلال الجوزة الباسقة يجتمع الرجال. يوقدون نارا . ويغلون الشاي بالميرمية .ويسمعون الترانزستور وتصريحات وزير الحربية الاميركية . فانتوم . ومزيدا من الفانتوم . وبليارات الدولارات تتدفق على خزينة اسرائيل . ويستمع الشيوخ وهم يبسملون ويحمدون الله ويدعون لامة محمد بالخير الوفير . ويلعن الشباب منهم السموات السبع ويكفرون .. بترول العرب يتحول الى فانتوم ! كفرنا يا عروبة كفرنا .

وكيما ينسوا جراحهم يطالبون أسامة باعادة القصة على مسامعهم . سالت الخنجر في عنقه كما تغوص الملعقة في وعاء اللبن . ركضت في عرض الشارع دون أن يوقفني أحد . لا تسل عن الشماتة . التشفي . احداهن صاحت « تسلم ايدك يا بطل » . تشجيع الجريمة لا يدل على روح انسانية ، هذا صحيح . ولكن ! ماذا بقي في هذا الصدر ؟ الحقد . أورام الغضب .

والسنة النار تموج أمام وجوه الفلاحين . وهدر ابو الرعد:

— هذه الارض لكم . استرجعوها بقرار من هيئة الامم . استرجعوها بأبيات الشعر واغاني العودة . وصلوا لله مليون ركعة بدون مبرر . فلن ينصر الله الا اليد المشدودة على الزناد .

والانسام الباردة . وعبير الطابون والزبل المحروق .

وشبابة من بعيد تناجي أهداب القمح الحاصد . وماج الحنين في عيني أسامة . ويظل في القلب نزعة نحو الجنوح والجنون. وتلك الشبابة تذكر بأعراس لم تولد بعد . الايدي متكاتفة . والمناديل الملونة . والاقدام تضرب الارض فتطير الروح في سابع سما . وتطير الطيارة من مطار عربي حتى لشبونة . ويقذفك الزعيم من مطار الى مطار . وتلفظك البلدان وتتلقفك ارضك . يا هذي الارض المعبودة . يا صبوة قلب ملفوح بهجير الصهد . يا موسم حب مسفوح في الغربة ومواويل الشـــوق .

وأبو الرعد ما زال يرعــد :

— لا تقل انسانية . لا تقل محبة . مات الحب يا أخي .

وعليك أن تتسلح بأنياب الذئاب كي لا تظل حملا وديعا يحلل الطغيان سلخــه .

والسنة اللهب ما زالت تتراقص في وجوه الرجال . وشربوا الشاي بالميرمية . وماتت النار في الموقد تدريجيا . وانسحب الشيوخ وبقي الشباب . ورسم أبو الرعد خريطة بدائية على التراب تحت الجوزة .

— في الفجر نكون هناك بانتظار الباصات . العمال . ارهبوهم فقط . لا تضربوا في المليان .

ومشى الرجال في الطرق الجبلية . يعرفونها كما يعرفون دروب حياتهم . والليل . والنجوم . وما من قمر . والسكون. ونقيق الضفادع البرية . ومواويل الزيز بين فروع الخــوخ والزيتون . أحذية مطاطية . وملابس مدنية . والكوفيات الحمر . وجيوب منتفخة بالعبوات والقنابل اليدوية .

ومرت سيارة عسكرية في الشارع تحت المرتفع . اختبأوا خلف الصخور حتى اختفت . وعادوا يسيرون . ثم ربضوا . وبدأت مصابيح الباصات تتلألأ في ظلمة الوادي البعيد . عناقيد متتالية من المصابيح . والعمال داخــل الشاحنات

والباصات يلقون برؤوسهم على أكتاف بعضهم ويغطون في نوم متقطع . واقتربت الشاحنة الاولى . صاح أبو الرعد :

ـــ اضــــرب .

وانهمر الرصاص . وانفجرت قنبلة بالقرب من الشاحنة فتناثرت الشظايا في كل اتجاه . وانفجرت الاطارات . ودارت الشاحنة حول نفسها والعمال يصرخون . وفتح أحدهم الباب والقى بنفسه . وقفز اخرون . ووجد زهدي نفسه مستلقيا في احدى الحفر وشظية ما تستقر في كتفه .

وصــــاح اسامــة :

ـــ اضرب . اضرب الباص الثاني .

وانهمر الرصاص . وتطايرت شظايا الصخور . وانفجرت اطارات الباص . وتوقفت الباصات الاخرى في المسافات البعيدة . واستدارت شرقا . وولت الادبار .

والعمال يركضون في الظلام . يختبئون وراء الصخور . في الحفر . وراء الشجر . بعضهم أصيب باصابات طفيفة . وواحد أو اثنين بدون حراك . وهتف زهدي بقلب جريح

ـــ يا عكاريت ! تنهشون لحمكم ! سألعن دينكم . أنت يا اسامة . عرفتك . انت يا فواد . أنت لا تعرف . لا تعرف . لو أني امسك بك !

ووقف بعد أن توقف الضرب . بدا يسير باتجاه المجموعة. يداه حول رأسه . قامته مثنية في مستوى خصره .

ـــ سالحق بك يا أسامة . سأفتح رأسك بهذا المفك كما فتحت رأس شلومو من قبل .

بحذر اللصوص . بدأ يتسلق الصخور . واسامة يصرخ :

ـــ انسحبوا . سيارات عسكرية . اليهود .

وسمع زهدي الصوت فتأكد .. يا أسامــة . انت يا اسامة ؟ انت يا فواد ؟ ماذا لو كان ابن خالك معنا ؟ وأبو صابر ؟ وانا ! ووقف على صخرة مرتفعة وصاح بأعلى صوته:

— يا أسامة . عرفتك يا اسامة .

وتلفت أسامة وقد هزته المفاجأة . ذلك زهدي . آه . وربما كان عادل معه . لا بأس . فدا الارض . فدا القضية. واعطى مزيدا من الاشارات . وواصلوا الانسحاب .

توقفت السيارات العسكرية في الشارع . نزل الجنود يحملون رشاشاتهم . سطعت الانوار الكاشفة تمحو الظلام . وانطلقت مكبرات الصوت تلعلع ... سلم نفسك .. سلم نفسك ..

وواصلت المجموعة الانسحاب . تمركزوا خلف الصخور. وانطلقت القنابل المضيئة . ومكبر الصوت .. سلم نفسك . وانتشر الجنود يطوقون المنطقة . وتكوم زهدي في حضن الصخرة وقد أخذته المفاجاة .. وقعت يا زهدي . بين المطرق والسندان . وقعت يا أبو حمادة . الرشاشات . والقنابل اليدوية . واللاسلكي في السيارات العسكرية يطلب الامدادات .

فوق رأسه . رشاش احد الجنود يضرب بدقة وانتظام . وعلى ضوء القنابل المضيئة رأى زهدي احد رجال المجموعة يقفز في الهواء ثم يتكوم أرضا . واصيب زهدي بالفزع . فازداد التصاقا بحضن الصخرة . والرشاش فوق رأسه ما زال يعمل بانتظام . باجتهاد . صوته يخرق طبلتي أذنيه بدون رحمة .. لو اني امسك به ! سيقضي علي قبل أن افعل . المفك لا ينافس الرشاش . فوق رأسك يا ابو حمادة . فوق رأسك تماما . فوق رأسك .

وتراجعت المجموعة أكثر . وقفزالجندي من فوق رأسه . أصبح أمامه مباشرة . ليس بينهما أكثر من ذراع واحد ... أمدد يدك . الان . أشدد على قبضة المفك . باستطاعة المفك أن ينافس الرشاش . ولكن استعمله بحذق . كما قال عادل

في السجن . الان .

وهوى به على ظهر الجندي . أطلق صرخة . انكفا على وجهه . والرصاص . ودوي القنابل والرشاشات . وزحف زهدي فوق الجثة . مقبض المفك المغروز . اقشعر بدنه .. لا حول ولا قوة الا بالله . قتلت رجلا يا زهدي . ماذا اذن ؟ يضرب اسامة والرجال من فوق راسك وتسكت ؟ انت شوكه يا زهدي يا أبو حمادة . شوكة رغم أنفك وأنف الجميع . ثم .. احمل الرشاش . واضرب . اضرب . وتكوم جندي اخر يحمل قنبلة يدوية . ارتطم بالصخرة فانفجرت به . وتناثر اللحم الادمي والملابس الكاكية . وهبط زهدي بحضن الصخرة يتحسس جسده . لا جديد . الشظية في الكتف ولا شيء اخر .

لك الله يا سعدية . حمادة ما زال صغيرا . لو كان في عمر صابر لهان الامر . ورغم الانسام الباردة فالجسد يتصبب عرقا . سقا الله طوز الكويت . أتصدق ما اقول يا عادل الكرمي يا اخي ؟ علي الطلاق بالثلاثة انه القعدة في قهوة الهموز أحسن من العالم كله . عرافيم . ملوخلاخيم . وعادل الكرمي يتدخل لحل النزاع في الشرق الاوسط . وطارت المفكات والكماشات . وتساقطت من السماء الواح الخشب ... لست المسيح وحق الاله . وراس شلومو مفتوح . المسكين . لم يكن الرجل سيئا تماما . ابن ناس مثلي ومثلك يا اسامة يا فواد . لكنه حمار . حماران يتقاتلان على حزمة برسيم وبردعة فصلها المصنع . اضرب . اضرب .

الشظايا . فتهاوى أسامة على الارض مبقور البطن . واندلقت أمعاؤه فوق الارض . مد يده . تلمس التراب الممزوج بالدم والدموع . الارض . الدم . الشعر . وأحلام الهوى . وفي القرية تصدح الشبابة مذكرة بأعراس لم تولد بعد . وفي القلب نزعة نحو الجنوح والجنون . المناديل

الملونة . والايدي المتكاتفة . والاقدام تضرب الارض فتطير الروح في سابع سما . أمي ... عادل .. نوار .. والدموع تحجب الرؤية . المنظمات مصابة بعدم وضوح في الرؤية . غير صحيح يا أهوج . لكنك لا تعرف ما يكون شعور الانسان حين تقذفه الطيارة من مطار عربي حتى لشبونة . البيجاما وفوقها الجاكيت . تلفظك مطارات العالم أجمع وتتلقفك ارضك . تعبر الجسر وتسممها تصرخ .. يا كلاب . وتنزف. تموت . وما زالت أنفاسك تتردد . والناس في الدوار يأكلون الكنافة ويبسمون . آذانهم من طين ومن عجين . وشحادة العكروت يباهي بخاتم اكبر من راسه . يدخن الغليون . يضحك من جانب فمه مثل كبار الممثلين الاجانب . وينسى القواد أرضه . ينسى وطنه . ويذكر حقده . وعادل . فدا الوطن . فدا القضية . وزهدي يتبعني كالشبح في مأساة هملت . خرج من السجن ليلاقي حتفه . أينه الان ؟ لو اراه . سأقول له . سلم يا زعدي على أمي . كان فوق الصخرة . كان يصرخ . يا أسامة . عرفتك . ماذا حل به ؟

اضرب يا زهدي يابو حماده اضرب . فقد بت شوكة رغم أنف الجميع . يا عادل الكرمي سلام الله عليك . وصيتك سعدية والاولاد . سعدية . وركن المرأة . والعدس بات ارستقراطيا يا هوه . وأبو صابر يدور حول الحاكم يستعطي حقه . والعرق يتصبب . واللسان جاف كقطعة من خشب . وآه على كوب شاي يا عالم . السطلان . وعصا المكنسة . وشاشات التلفزيون . والسوري وشجرة التوت . والطفل. نضال . نضال الطبقات المسحوقة . يركض في ساحة السجن فيبكي الرجال . ويبكي الجنود . الشاي . والسطلان .. وشاشات التلفزيون . وأم سالم والطابون . والعجل الابيض أعطاك عمره . ولكن اضرب .

من ؟ أسامة ! ماذا حدث ؟ والاضواء الكاشفة . والبطن

المبقور . سلم على أمي يا زهدي . اسلم على امك ؟ من سيبقى ليسلم على أمك ! سلم يا هذا الرصاص على أم أسامة . هات قنبلتك . سلمي يا هذه القنبلة على سعدية والاولاد . آه . أولاد القحبة طيروا راس أحد رجالك .

سلم على أمي ... ونوار ..

يا ابني أسكت لا تحرق قلبي . جرحك مخيف . قضي عليك . وعلي معك . احفظ يا أسامة يا اهبل . أترى هذا الجرح في كتفي ؟ آ .. أنت لا ترى . المس . هات يدك . أتحسه ؟ منك ومن رجالك . وها أنا الان بجانبك . فوق راسك . أحميك رغم بطنك المبقور . جرحك مخيف . عندما تضيء القنابل وأرى جرحك . أحس رغبة في القيء . أترى ؟ قتلت واحدا اخر .

ومرت رصاصة بجانب أذنه فمسحتها . تحسس زهدي أذنه بفزع . خوف . غضب . هوس . جنون .. ووقف بطوله وصاح : يا عكاريت .. يا أولاد القحبة ..
صلية بالعرض من رشاش أمريكي . أموال البترول . كفرنا يا عروبة . العجل الابيض أعطاك عمره .

زهدي ! زهدي يا أخي . مات زهدي . وأنا أموت . الموت شر لا بد منه . أنت يا أمي ملاك . وأنا . سبع السباع يمه . قولي . مات شهيدا . قولي . فدا القضية . فدا الارض . معبودة . الطابون . عبير الزبل المحروق . شبابة . مناديل . أعراس . عروس . نوار . صالح . أعراس . لم تولد بعد .

صعد باسل الدرجات قفزا وانطلق من فوره نحو الطابق العلوي حيث تستقر غرف النوم . ودخل واحدة وفتح الخزانة وأخرج منها مجموعة من الاوراق ، قوائم ومناشير . هرول نازلا بسرعة . وفي الساحة بجوار البركة كانت نوار تجلس كعادتها مشغولة عن عالمها الخارجي برسائلها المعهودة . ومشى على أطراف أصابعه خوفا من لفت نظرها ، واتجه نحو الممر الخلفي حيث مدخل القبو . فتح الجدار وغاب في الداخل دقائق معدودات ثم خرج بعد أن تخلص مما كان يحمله .

واقترب من أخته وجلس على كرسي صغير بجوارها دون أن يفتح فمه بكلمة . نظرت اليه بتعجب ، كان الفتى صامتا على غير عادة . وفي ضوء الغروب الشحيح تأملت هيكله المعتم .

ــ ما بك ؟

قال بجفاف :

ــ اعتقلوا لينه .

شهقت

ــ أمتأكد أنت من أنهم اعتقلوها هي بالذات ؟

ــ متأكد جدا . قبل دقائق كنت في الدكان وأخبرني هاني بما حدث . سحبوها من فراشها في منتصف الليل بعد أن طوقوا الشارع كله .

وساد صمت ثقيل . هي تفكر بصديقتها وما ستلاقيه من تعذيب ، وهو يتساءل عما سيجره الاعتقال من نتائج ..

ماذا لو اعترفت لينه ؟ ماذا لو عرفوا بأننا على اتصال بأسامة ورفاقه ؟ لينه الان في المعتقل ، وسيجيء دوري لا محالة ، وسينسفون الدار ، وتتشرد العائلة كما يتشرد أصحاب الدور المنسوفة في العادة .

قالت نوار :

ـ هل تعتقد بأن لينه منظمة حقا ؟

هز كتفيه مدعيا اللامبالاة

ـ وكيف لي أن أعرف ؟

ورآها ترمق الرسالة بقلق وحيرة . علق .

ـ ما من داع لاخفاء الامر عن صالح .

فوجئت بذكره لاسم صالح

باستخفاف وقح

ـ أتظنين اني لا أعرف قصتكما ؟ الجميع يعرفون فكيف لا أعرف انا ؟ ولا تنسي بأنه لا أسرار في مدينتنا .

طأطأت ولم تعلق . قال مشجعا :

ـ صالح رجل لا كأي رجل ، وهو جدير بكل التضحيات . ولكن هل ستواظبي على الكتابة اليه وزيارته بالرغم من كل الاحتمالات ؟

واندفع يعلن رأيه بدون تحفظات

ـ لو كنت مكانك لما أبقيت المسألة سرا . والمسألة ليست سرا على أية حال ، فالجميع يعرفون بأمر هذه العلاقة الا الوالد والوالدة .

سألته بوجل :

ـ أتعني بأن عادل يعرف أيضا ؟

ابتسم ، فتح يديه بحركة تدل على اليقين . قالت هامسة:

ـ ولكن ماذا لو عرف الوالد ؟

قال بتحد :

ـــ نعم ، ماذا لو عرف الوالد ؟ ولكن لماذا لا يعرف ؟ وهل يتوجب عليك ان تظلي في موقف الدفاع عن النفس حتى النهاية ؟ ماذا لو خطبك أحد الناجحين ووافق الوالد دون استشارتك في الموضوع ؟

قالـــت بتـــــردد :

ـــ أرفض .

ـــ ولكن لو وافق الوالد رغم رفضك ؟

ـــ ارفض ، أرفض .

ـــ ولكن ماذا لو وافق الوالد ؟ سيأتي يوم يصر فيه الوالد على عقد صفقة مربحة ، وعندها ستضطرين لمواجهة الامر بشكل حازم . فامـــا أن تقبلي أو أن تصارحي والدك بحقيقة ولائك لصالح .

باستيـــــاء ء

ـــ أستطيع أن انفر اي عريس دون حاجة لخوض معركة مـــع الوالـــد .

بعـــد لحظـــــة صمت

ـــ كما أن التلويح بالعامل الاقتصادي ، كأن اساهم في حمل الاعباء المادية بعد تخرجي ، سيكون مجديا للغاية .

ـــ ولكن ماذا لو كانت الصفقة مجدية فعلا ؟ ماذا لو كانت عروض العريس أربح من عرضك ؟ ماذا لو وافق على استمرارك في العمل لمصلحة الوالد حتى بعد الزواج ؟

ـــ أمر بعيد الاحتمال .

ـــ لا ليس بعيد الاحتمال . كثيرون فعلوا هذا فلماذا لا تفعلينه أنت ؟ ولا أعتقد بأن الوالد يرغب في الابقاء على فتاة في عمر الزواج الى ما لا نهاية .

ـــ اذن ؟

ـــ اذن ، عليك أن تصارحي الوالد بأمر صالح . قولي له أريد صالح ، صالح دون غيره .

ـ أمجنون أنت ؟ وماذا سيقول ؟ ماذا سيفعل ؟ أتريدني ان اكون السبب في القضاء عليه ؟

أطلق ضحكة عصبية

ـ آه ؛ أنتم جبناء ، كلكم جبناء . انت وعادل وأمي والجميع . أنتم جميعا تهربون من جبنكم باتخاذ مرض الوالد ذريعة للهرب من مواجهة الحقائق . عادل يعمل في اسرائيل منذ اشهر ولكنه لا يصارح الوالد بذلك . الجميع يعرفون الامر بما في ذلك أمي ، لكنهم كالنعامة ، يدفنون رؤوسهم في الرمل ويدعون بأنه لا وجود للعاصفة . وانت تحبين صالح لكنك لا تصرحين برغم كل الملابسات المحيطة . فجدتي تخطط لتزويجك من أسامة ، ولولا أمر اختفائه لفاتحت الوالد بالامر دونما حاجة لموافقتك . وعمتي تعتقد بأنك راغبة في ابنها ،وربما كان في راسها ألف مشروع ومشروع، وربما كانت تعتقد بأنك مغرمة بابنها . كل هذه الملابسات زائد العريس المتوقع ، وانت لا تقومين بأية خطوة ايجابية وكأن الامر لا يعنيك !

ـ والعمل ؟

ـ صارحي الوالد بنواياك .

ـ لا أستطيع .

ـ جبانة ؛ يجب أن تصارحيه قبل فوات الاوان .

ـ لا أستطيع .

ـ يجب أن تفعلي هذا بسرعة ، أقول لك فيما بيننا . أشم في الجو رائحة عريس .

ـ ماذا ؟!

ـ نعم ، سمعت همسا ، فحذار . أترين ؟ لو كنت أكثر جراة على مواجهة الحقائق لوفرت على نفسك الكثير من مشاكل المستقبل .

ـ وماذا بشأنك أنت ؟
ـ ماذا بشأني ؟
ـ أليست لديك مشاكل وأسرار أنت أيضا ؟
ـ اوهو ـ لدي الكثير .

وابتسم بعظمة ، فقد كان يلــذ له أن يحيط نفسه بأجواء الغموض وما يصاحبها من اثارة للفضول .

ـ ولكن اسمعي ، يجب الا تقيسي أسرارك بأسراري .
ـ أســـرار !
ـ نعم أسرار ، أسرار خطيرة . لا تحاولي .. أنا لم اقصد اثارة فضولك ؛ ولكني أتساءل بشأنكم أنتم ، بشأنك انت بالذات ، أما بالنسبة لاسراري فالامر جد خطير .

لسانه قد انزلق أكثر مما يجب ، لاحظ هذا ، طفرت الحمرة الى وجهه ،لكن الظلمة حجبتها . وتذكر مشكلته الرئيسية .. لينه .. الاعتقال . اخلد للصمت واذناه تصيخان السمع الى ما قد يفاجأ به دون سابق انذار . ماذا لو حضر اليهود ؟ ماذا لو حصلوا من لينه على اعتراف كامل . التعذيب .. أسامة .. القبو .. الصناديق .. المناشير .. ما العمل ؟ لينه انسانة صلبة ، هكذا قيل له ، وقد تحتمل التعذيب ؛ ولكن هل يحتمله هو ؟ وقرر فجأة .. سأهرب ، سأنضم لاسامة ومجموعته .

قالت نــوار بحيـــرة :

ـ وماذا سأجني من وراء مفاتحة الوالد بأمر صالح ؟ سيحيل حياتي جحيما . وقد يصاب بنوبة تقضي عليه.

وواصلت ، تتكلم وتتكلم ، بينما كان مستمعها الوحيد غائبا عن الحضور . كان يخطط للفرار ... عندما أسمع صوت سياراتهم سأصعد الى السطح ، وسأقفز الى سطح الجيران من ناحية المزاريب . المسافة بين السطحين لا تزيد عن نصف متر . ومن سطح الى سطح حتى أهرب من

الحسي كلـــــه .
وكانت نوار تناديــه بالحاح
ـــ ما بك ؟ ألا تسمعني ؟
بشـــــرود
ـــ بلى بلى اسمعك ، واصلي .
شرود .. قلق .. لينه ، اليهود ، التعذيب ، ولكن !
تمالك اعصابك يا أبو العز والا قضي عليك ، بل علينا ، على بقية المجموعة وعلى الصناديق ، وستكون كارثة .
وسمع وقع أقدام على الادراج ففتح اذنيه بذعر . أعلنت نـــوار
ـــ هـــذا عـــادل .
هدأت أنفاسه واسترد بعض هدوئه . اقترب عادل وحياء وسألته نوار بلهفة وحذر :
ـــ ألم تكن في الـــ .. في العمل ؟
كانت خجلة من ذكر كلمة المصنع ، وكان يعلم بأنها تعلم ، وكانت تعلم بأنه يعلم بعلمها ، لكن أحدهما لم يفاتح الاخر بالموضوع صراحة .
أجاب بكآبـــــة :
ـــ كنت مع أبو صابر في حيفا .
قـــالت بحـــــرج :
ـــ بعض العمال سألوا عنك قبل ساعة .
تمتـــم :
ـــ أعـــــرف .
واستدار ومشى نحو الدار . سمع الخبر في الدوار . الفدائيون هاجموا باصات العمال ، معركة بين الفدائيين والجنود في منطقة دير شرف . اصابـــة بعض العمال ، استشهاد بعض الفدائيين ، مقتل بعض الجنود ، ولا أحد يعرف بقية التفاصيل . وصعد الدرجات وهما يتبعانه بصمت .

حيا أمه التي كانت تهرول نحو غرفة الوالد . ارتمى على مقعد جلدي وأشعل سيجارة واخذ ينفخ .. عمرك طويل يا ابو الهموم . لولا قضية ابو صابر لكنت الان في المستشفى او جثة ملقاة في احدى الحفر . ليت الامر وقع لاستريح . الحياة ما عادت مجدية . عيشة !

الوالد يطلق عقيرته بالنداء « يا باسل » . ودخل باسل الغرفة متبرما . ونداء اخر يا « أم عادل » . وتركت المرأة عملها في المطبخ وهرعت اليه . والوالد يصرخ غاضبا « من عبث بالالة ؟ دائما تعبثون بحوائجي ! الصغار يدخلون الغرفة ولا أحد يوقفهم . غدا يكسرون الالة أمام أعينكم فلا تحركون ساكنا . أنا أعرف حقيقتكم . تريدون القضاء علي لتستريحوا منــي . »

وخرج باسل وهو يكيل السباب ، ووقف أمــام عادل وتساءل « متى يأخذه الله ونستريح منه ؟ » ونفخ عـــادل سيجارته : متى يأخذني الله انا لاستريح من كل شيء ؟ الفدائيون ، باصات العمال ، الموت ، الهبوط . الهبوط مشكلة المشاكل . وزهدي ما أخباره ؟ زهدي شوكة ، زهدي في الباص ، انقلب الباص في الجرف . لماذا يحدث هـــذا ؟ لمــــاذا ؟

وعاد الوالد يصرخ « أين نظاراتي ؟ يا نوار .أين نوار ؟ » وهرعت نوار نحو الغرفة ، غابت دقائق معدودات ، خرجت، وما زالت شتائم الوالد تنهمر . « هذه الدار أصبحت كالخان. لا شيء فيها منظم ! لا شيء نظيف !؟ لا شيء مريح ! وانتم ماذا تفعلون ؟ لا شيء . »

ووقفت نوار أمام عادل ، تساءلت وهي تشير بيدها نحو الغرفة الموبوءة « وماذا يفعل هو سوى انه يحيل حياة كل واحد منا جحيما ؟! »

واحس عادل بالدوار يجتاح راسه ، واخذ يمني النفس أن يكف الوالد عن ترديد شكاواه المملة وان يدع الاخرين ينجزون اعمالهم بهدوء . ولكنه استمر في تذمره ، واستمرت أم عادل تروح وتجيء ، واستمر باسل يدخل الغرفة ويخرج منها وهو يتلو الشتائم ، واستمر رأس عادل يتضخم ويتضخم حتى اصبح كدمل مهدد بالانفجار . واقتربت نوار وسألته :

ــ ما اخبار الدنيا ؟

اخبار الدنيا ؟ اية اخبار ؟ اية دنيا ؟ دعيني يا صغيرتي لهمي . لا شيء جديد ، بل كل شيء جديد . الجــرح هو الجرح ، لكنه يتسع كل يوم . اسامة ، أبو صابر ، زهدي ، الباصات . زهدي شوكة ، وانا لا أعرف من أنا ، لا أنا وردة ولا انا شوكة . محاولات يائسة لاصلاح ما افسده الدهر . الوضع أعوص من أن يجدي فيه اي اصلاح . تغيير .. تغيير شامل ، وربما تغييري انا .

وسألتــه :

ــ هل سمعت اخر الاخبار ؟

تأمل وجهها الطفل بحزن : آه ، هذا الجيل التعيس ، والاجيال السابقة واللاحقة . التعاسة لم توفر احدا .

ــ لينه اعتقلــت .

ذهول .. لم يبق الا هذا . الفتيات يعتقلن وأنا جالس في هذا المقعد . وبعد لحظات سأجلس على الطاولة وآكل كما يأكل الاخرون ، وأشرب الشاي وابتسم ، ثم أنام .

وصـــوت والدتــــه

ــ العشا جاهــز .

(٣٣)

جلسوا حول الطاولة يتناولون طعام العشاء بصمت وكآبة، والوالد لا يكف عن اللوم والتقريع . واخيرا قال وهو يرمق نوار بنظرات متفحصة .

ـ جاءك عريس اليـوم .

توقفت عن المضـغ

ـ مـــاذا !؟

رفع عادل عينيه عن صحنه وتأمل سحنة والده ولم يعلق. بينما قرقر باسل بضحكة مكتومة وهو يرمق نوار بنظرات متحفـزة شامتـة .

قال الوالد برصانـة :

ـ الدكتور عزت عبد ربه .

واستدار نحو عادل وتساءل :

ـ لا بــد انك تعرفـه .

هز عادل راسه نفيا وواصل المضغ .. اعرفه او لا اعرفه وما دخلي انا في الموضوع ؟ انت صاحب السلطان هنا وانا بقرة الدار الحلوب . دع الفتاة تدافع عن حقها في الحياة ، دعها تتعلم كيف تجابه الامور بحزم ، ولكنها ضعيفة وخرعة . فتيات هذه البلاد لا يعرفن من الثورة الا قراءة الكتب . ولكن هناك لينه ومثيلاتها . لماذا لم تكن اختي مثل لينه ؟ ولكن ! . كيف اطالبها بأن تكون مثل لينه ولا اطالب نفسي ان اكون كصالح . هذه الدار الهرمة لا تنتج الا المرض والجبن .

والتقت عيناه بعيني باسل الساخرتين فتساءل بهم : وانت، هل انت مثلنا ؟ منذ مدة لم اسمع تبجحاتك عن السجن ومعارك

السجن البطولية ، فماذا حدث ؟ أنسيت كيف خلعت رقبة الحاكم العسكري يا صغيري ؟ وابتسم الاثنان لبعضهما بصداقة ؛ فتدفق الحنان في قلب عادل وازداد حزنا .

التفت الوالد حولـــه ثم تساءل :

ــ ما بالكم صامتون ؟ ألا تعرفون الدكتور عزت ؟ شاب مهـــذب ابن عائلة محترمة . أحواله الماديـــة فوق الريح . الزبائن أمام عيادته كالذباب . رجل جدع ، لم يمض على تخرجه أكثر من عامين لكنه عرف كيف يضرب الســـوق .

علـــق باســـــل :

ــ رجل ناجـــح فعـــــلا .

أردف الوالد ، موجها القول الى نوار :

ــ سيحضر غدا لرؤيتك .

تجلى القرف في عيني عادل لكنه لم يعلق . وواصل المضغ ... ارجو أن تدافع الفتاة عن كرامتها ، واذا لم تفعل فهي لا تستحق الكرامة ، ولتدخل عالم الحريم غير مأسوف عليها.

همس باسل في أذن نوار مشجعا :

ــ تكلمي ، الان .. الان ..

ازدردت لقمتها بصعوبة ودغرته في خاصرته وهمست :

ــ اسكـــت .

قال الوالد وهو ينظر في وجه زوجته :

ــ افهميها كيف تتصرف أمام الرجل .

هزت المرأة رأسها ولم تعلق . فقالت نوار لاول مرة :

ــ ولكني لا أعرفـــه !

حدجها بنظـــرة صارمـــــة :

ــ طبعا لا تعرفينه ، وهل كنت تفترضين العكس ؟

والتفت نحو عادل وأدلى بخطـــورة :

ــ للرجل موقف ايجابي مشرف ، عرض علي موافقته على عمل نوار بعد التخرج ، وطبعا ستساهم بأجرها في حل بعض المشاكل التي نعاني منها .

قال عادل باشمئزاز وهو يتطلع نحو اخته :

ــ باستطاعتي القيام بمسؤولياتي وحدي ان كانت هي راغبة في الزواج فعــلا .

وأخذ يحدجها باصرار كي يستحثها على مواجهة الموقف بحزم . لكنها هربت بعينيها منه وقلبها يضرب بهلع .. وما جدوى النقاش ؟ سيصاب بنوبة قد تكون القاضية فلمــاذا اجازف ؟ الطرق السلمية أضمن ، سأسيء التصرف أمــام العريس فيهــرب .

تساءلت الجــدة بصوت مرتجف :

ــ امن اللائق أن تخطب نوار في مثل هذا الظرف ؟

تفحصها الوالــد عابســـا

ــ ماذا تقصديــن ؟

شبكت يديها في حجرها وأرخت جفنيها بحركة مستسلمة تماما ، لكنها همست :

ــ وأسامـــة ؟!

واتسعت الابتسامة فوق ثغر باسل وتنحنح وقال لنوار :

ــ أعطني الملح من عندك .

ناولته الملح وهي تدق الاناء على الطاولة بغيظ وتهمس :

ــ طيب ، مفهـــوم .

وعادت العجــوز تردد بالحــاح :

ــ وأسامـــة ؟!

تســاءل الوالــد متبرمـــا :

ــ ومــا بــه أسامــة ؟

لم تجب العجوز ولكنها أخذت تنقل عينيها بين عــادل وباسل ونوار . لكن أحدا منهم لم يتناول طرف الخيط ليكمل

الحديث . وسأل أحد الصغار :

ـــ وأين أسامة ؟ هل عاد أسامة ؟

نهـــره الوالـــــد

ـــ أسكت يا ولد وكل طعامك بدون ازعاج .

واستدار الطفل نحو أمه وهمس تحت ابطها :

ـــ ما بـــه أسامـــــة ؟

ـــ لا أعرف . كل بسرعـــة .

قالت الجدة بشجاعة تحسد عليها :

ـــ قبل شهر كانت زكية تمني النفس بخطبة نوار لاسامة.

حملق الرجل وهو يتأمل أمه المضطربة .

ـــ ما هذا الكلام يا أمي ؟ أتقصدين ان أزوج ابنتي من شاب مختف عن الجود ؟ وهل نسيتبأنه متهم بقتل الضابط ؟ وهل نسيت بأنه طريد العدالة والمخابرات ؟

قال أسامة بغيظ :

ـــ أسامة ليس طريـــد العدالة .

ارتسمت ابتسامة هازئة على شفتي الوالد وهو يتأمل ابنـــه البارد .

ـــ لا بد أنك معجب بأسامة ، اليس كذلك ؟ وربما جعلت منه مخيلتك السخيفة بطلا ، وربما كنت تحلم بالقيام بمثل ما قام به . من يدري . قد تجابهني المفاجآت بشيء كهذا . لا أحد يستطيع أن يضمن سلامة بيته هذه الايام ! وما أكثر الصبيان الذين يسببون وجع الرأس لآبائهم في هذه الاوضاع . ولكن حاذر يا ولد ، المسألة ليست لعبة وليست مسلسلا تلفزيونيا ، وانت لست الرجل الحديدي ولا مانيكس ، وربما كنت كذلك وأنا لا أعلم ، من يدري !

وكان باسل يجابه والده بنظرات الكراهية والتحدي . هدر الوالـــــد :

ـ انظروا هذا الولد العاق كيف يتأملني ؟ اخفض عينيك يا ولد ولا تجابهني بنظراتك الوقحة . هذا جيل ابن كلب . لعنة الله على كل من بذر فيه بذرة .

قال باســـل بعنـاد :

ـ اسامة ليس طريد العدالة لسبب بسيط هو انه ليس هنالك عدالة على الاطلاق .

قهقه الوالـــد بسخريـــة

ـ ما شاء الله ما شاء الله ، أصبح للولد لسان يتكلم به . اذن هكذا ؟ ليس هنالك عدالة ؟ سبحان الله ما ألعنك، من أين لك هذا النبوغ يا ولد ؟

قال باســل باندفـــاع وسخريـــة :

ـ ابـــن أبـــي .

صـــاح الوالـــد :

ـ ولـــد . قم من هنا . قم وغور من وجهي .

قـــال باســـل بعنـــاد :

ـ ولكني جائع واريد أن آكل .

ـ قم وغور من وجهي فأنت لن تأكـــل .

تدخل عادل محاولا تلطيف الجو

ـ دعه يأكل يا أبي واذا كنت تريد فرض عقاب عليه فليكن أي شيء غير الاكل . الولد بحاجة للاكل فهو نحيف جدا .

واكمـــل باسمـــا :

ـ وهو على وجه امتحانات . وأرجو أن تبيض وجوهنا بنتائجك هذا العام .

تراجـــع الوالـــد

ـ هـــذا الولد اصبح قليل الحياء منذ دخوله السجن وخروجه منه . تعلم قلة الأدب من هناك . ولست مسؤولا عما سيؤول اليه هذا الولد . انا لست مسؤولا عما سيوقعنا فيه من مشاكل .ولكن اسمع ، اسمع ،

عندما تكون في مجلسي عليك أن تحسن التصرف وتحسن اختيار الكلمات المؤدبة ، مفهوم ؟

ولم يكلف باسل نفسه عناء الرد . كان يفكر .. ماذا لو اكتشف اليهود أمر القبو ؟ فليكتشفوا ، آمل أن يكتشفوا وينسفوا هذه الدار فوق راسك ورؤوسهم جميعا ، فهم جبناء ، عديمو القيمة . سأهرب .. سأنضم « لطريدي العدالة » أمثال اسامة .

ومرت دقائق أخرى من الصمت . ثم قال الوالد :

ـــ سيحضر الدكتور عزت بعد ظهر الغد واريدكم أن تكونوا جميعا متواجدين في الدار .

واستدار نحو عادل وسأله بلطف :

ـــ ستكون هنا أليس كذلك ؟

قال عادل بلا مبالاة :

ـــ لا ، لن أكون هنا فأنا مشغول جدا هذه الايام .

سأله الرجل باهتمام غير حقيقي :

ـــ وما أخبار المزرعة ؟

هز عادل رأسه وهو يخفي وجهه داخل فنجان الشاي ولم يجب . وعادت الجدة تستعطف بصوت مرتجف ضعيف .

ـــ ولكن زكية ستحس بالحسرة ! ليس من اللائق أن تخطب نوار لرجل غريب وابن عمتها راغب فيها .

ابتسم الوالد

ـــ ابن عمتها أي ابن بنتك ، لا بأس ، أنا أحترم العلاقات العائلية ، ولكني لن أزوج ابنتي من ..

وصب نظرة متفحصة نحو باسل وأكمل :

ـــ من طريد عدالة .

أجاب باسل باصرار :

ـــ أسامة ليس طريد عدالة ، أسامة أشرف منا جميعا .

وهب واقفا ، جسمه يرتعش ، عيناه جاحظتان ، رذاذ

الطعام يتطاير من فمه .
ــ شبعت . كلوا انتم . كلوا حتى تشبعوا . كلوا حتى تتخموا . كلوا حتى تنتفخ كروشكم وتتدلى ذقونكم . ولكن تذكروا بأن أسامة قد يكون جائعا الان . تذكروا بأن الاشراف يجوعون دائما .
الوالد منفعل ، يلهث ، فقال عادل بامتعاض :
ــ اذا كنت قد شبعت يا باسل فدع الاخرين يشبعون . اذهب الى غرفتك وادرس دروسك . سآتي لمحادثتك بعــد العشاء .
واستدار باسل نحو ممر غرف النوم متلكئا . وعادل يطيب خاطر والده
ــ لا تلمه يا ابي فهو معذور ، أنسيت من يكون أسامة ؟
توقف باسل عن المشي واستدار وهتف بحقد :
ــ انا لا ادافع عن تصرفات أسامة لانه ابن عمتي وعمتك انت ايضا ، فالقرابة لا تعنيني بكثير أو قليل بدليل اني لا أدافع عن تصرفاتك أنت .
تأمله عادل بحزن بالغ ، أغرق وجهه في فنجان الشاي وقلبه ينبض ببطء ... حائر يا هــذا القلب من أين تتلقى الطعنات . الولد يعرف ، نوار تعرف ، امي تعرف ولا احد يصارحني بالحقيقة ، لا أحد يواجهني . الوالد المبجل . المرض ينتقل الينا .
وسمع باسل صوت ارتطام باب سيارة في الشارع ، وقف خلف النافذة يرقب مطلع الدار بقلب واجف . ذهب الى باب السطح وفتحه . مشى حتى وصل الحافة ونظر الى اسفل . ولم ير أحدا . كان الشارع غارقا بالظلمة والسكينة . وكان أحد الجيران يقفل باب شاحنته الصغيرة ثم يتجه نحو مؤخرتها ويبدأ بانزال صناديق الخضار ويدخلها الى الدكان الوحيدة المضاءة في الشارع . وعاد باسل الى الغرفة وبقي واقفا وراء

النافذة يرقب مطلع الدار وقد استولى عليه الذعر .. هل سأحتمل التعذيب ؟ المسألة غير مضمونة ، الشيء الوحيد المضمون هو الهرب . وعاد الى الحافة وقاس بنظره المسافة بين السطح وسطح الجيران .. المسافة ليست كبيرة ، نصف متر فقط ، سأتخطاها بكل سهولة .

وعاد الى غرفته وأخذ يذرع المكان بعصبية ، ولم يستطع البقاء وحده مدة طويلة . كان يعاني من وحشة فرضها عليه ترقبه المستمر لقدومهم ، لكنهم لم يجيئوا . وخرج من الغرفة واتجه نحو غرفة الطعام . وقف في الباب يرقبهم وهم ما زالوا يأكلون . أحس بالحقد تجاه كل واحد منهم . وبدأ يتفحص رؤوسهم والدموع الجامدة تقف في مآقيه ... هذا الاب أكرهه لانه يجسد المرض . هذه الام أكرهها لانها تجسد الخنوع . هذه العجوز أكرهها لانها تجسد تداعي الانسان أمام الزمن . ونوار هذه أكرهها لانها مائعة ولا تصلح للقيام بالدور المطلوب .. وعادل هذا أكرهه لانه ليس كصالح وأسامة . هؤلاء الاطفال لا أحس بوجودهم . لا أحس بوجود أحد . انا غريب عن هذه الدار . هذه الدار . هذه الدار .. آه ، اللعنة .

وفجأة بدون مقدمات سمع نفسه يقول بصوت تقريري كمن يقرأ نشرة أخبار :

ـ نوار الكرمي تحب صالح الصفدي لكنها لا تعترف بهذا . وقد وعدته بانتظاره طوال مدة سجنه ، هذا اذا استمر الاحتلال ، أما اذا لم يستمر فستتزوجه بالرغم من كل واحد فيكم . وبالرغم من والدها قبل الجميع .

أطلقت نوار آهة عميقة وهتفت بجـــزع :

ـ باســـل !

تأملها باسل بجمود وواصل :

ـ نوار الكرمي تحب صالح الصفدي ولا ترغب في الزواج من أي رجل اخر . ولكنها جبانـــة . أجبن من أن تواجه

الاخرين بذلــك .

الوالد ممسك بشوكته وسكينته وقد جمد تماما . عادل مسند خده على قبضته ويستمع الى الموضوع وقد هزته المفاجاة . وبدأ ذهنه يعمل بسرعة : قد يدلي بدلوه في بئري انا أيضا . قد يفعلها الفتى . لم أكن أتوقع هذا الموقف . ولكن ما به ؟ هــــل جــن ؟

وواصل باسل بنفس اللهجة التقريرية :

ــ نوار الكرمي تحب صالح الصفدي وتكتب له الرسائــل وتتلقى منه الرسائل وتزوره في السجن وتدعي للسلطات بأنها خطيبتــه .

وسقطت الشوكة والسكينة من يد الوالد وتمايل رأسه فهتفت نوار بذعــــر :

ــ باســـل ! باســـــل !

وانتحبت الام

ــ باسل ، حبيبي ، ماذا حدث لك ؟

وتقدم باسل . وقف خلفه نوار مباشرة وأكمل نشرتـــه الاخبارية :

ــ نوار الكرمي تحــب صالح الصفدي وتكتب له الرسائل وتزوره في السجن .

تمايل رأس الوالد ثانية وتساءل بصوت أبح :

ــ أصحيح هذا ؟ أصحيح ما يقوله الولد ؟

لم يجبه عادل بل استمر يصغي الى أقوال باسل بذهول :

ــ نوار الكرمي تحب صالح الصفدي ولن تتزوج من أي رجل سواه . نوار الكرمي تحب مناضلا ولا أعرف كيف يحب أي مناضل فتاة مائعة كنوار الكرمي !

وصاحت نوار وهي تخبيء وجهها بيديها :

ــ كفى ، كفى ، اسكت ، الله يلعنك ، ماذا فعلت لك كي توجه لي هذه الضربة ؟

تأملها الوالد بذهول وتمتم :

ـــ اذن فالامر صحيح .

ردد باسل بجمود :

ـــ صحيح مئة بالمئة .

صاحت نوار وهي تهب واقفة :

ـــ بلى بلى سأتزوج منه . أنا لن أتزوج الا من صالح ، ولن اری أي رجل آخر . لا عبد ربه ولا أي عبد آخر . انا لن اتزوج الا من صالح حتى ولو انتظرته مئة سنة . انا لن اتزوج من غيره . لن أتزوج أي رجل غير صالح .

وبدأ العرق يتصبب عن جبهة الوالد وأنفاسه المضطربة تلهث . امسك بذراع عادل يشدها

ـــ تزوره أمام الناس ؟ ماذا يقول الناس عن مملكة الكرمي ، ماذا يقول الناس عني ؟

وناحت الام

ـــ منك لله يا باسل ، ماذا حدث لعقلك . يا خراب بيتك يا أم عادل . الا يكفي اني فقدت عقل أحد أبنائي ، وسأفقد الوالد أيضا .

وواصلت تندب حظها . بينما اختفت نوار في ممر غرف النوم . واستدار برأسه نحو باسل

ـــ هل طابت نفسك ؟

أجاب الفتى بهدوء :

ـــ ليس بعد ، ليس قبل أن أكشف أمرك .

أطرق عادل وقلبه يترنح : حائر يا هذا القلب من أين تتلقى الصدمات ! حائر يا هذا القلب !

قال باسل بنفس اللهجة الاخبارية :

ـــ عادل الكرمي يعمل في اسرائيل منذ اشهر . انفض العمال من حوله فترك المزرعة ونزل الى المصانع .

وتشنجت يد الوالد وحشرج

ـ نادوا الطبيب أو انقلوني الى المستشفى .

وهبط رأسه على المائدة بدوي . فهب عادل واقفا واتجه نحو التلفون . طلب سيارة وعاد لوالده وتأبطه وحاول أن يقوده الى الصالة . وخلال لحظات كان الباب السفلي يدوي بطرقات هادرة والجنود يصرخون :

ـ افتاح هاديلت .

قفز باسل من مكانه واتجه نحو باب السطح . نظر الى أسفل فوجد سيارات المخابرات تسد الشارع : والاضواء الكاشفة مسلطة نحو المدخل واتجاهات الشارع كلها . وقف على الحافة وسحب نفسا طويلا وهو ينظر الى الهوة تحته وقفز برشاقة . واختفى في الظلمة وما زال الجنود يقرعون الباب بأعقاب بنادقهم .

(٣٤)

الوالد في المستشفى . الجنود يفتشون أنحاء الدار . الالات الكهربائية لا تكف عن اصدار الصفير . وتوقفوا أمام الجدار السفلي وأعملوا معاولهم فيه . وخلال نصف ساعة كانوا ينزلون الى القبو ويخرجون الصناديق . والقي القبض على عادل ونوار .وخرجا من المعتقل بعد يومين من التحقيق المتواصل . في اليوم الثالث تلقت العائلة أمرا باخلاء الدار .

تجمع الرجال في الشوارع المجاورة وبدأوا يتهامسون « سينسفون دار الكرمي . مخزن أسلحة في القبو .. باسل وأسامة ولينه وخلية بأكملها ... » وتجمعت النسوة فوق الاسطح يراقبن الرجال وهم ينقلون المتاع بسرعة جنونية . لم يبق الا نصف ساعة . نقلوا الفراش والكنبات والثلاجة والغسالة . نقلوا كل ما وصلت اليه أيديهم . وأبو النوف وشحادة وصابر لم ينزلوا الى المصانـــع في ذاك اليوم . التفوا حول عادل ونقلوا المتاع دون الاشارة الى مقتـــل زهدي . وأبو صابر يقف في طرف الشارع يرقب الرجال ودموعه تسيل دون توقف . تقدم من صابر وطلب منه أن يساعده على حمل أي شيء . وأم صابر تقف على سطح أم بدوي تضرب كفا بكف . وأم عادل تقف في نافذة أم أسامة ترقب الرجال يروحون ويجيئون بالمتاع الذي تحفظ كل قطعة منه عن ظهر قلب . ومدت رأسها من النافذة ، وصاحت تنادي صابر

ــ يا صابر ، قل لعادل بألا ينسى الالة .

هز صابر رأسه وتوجه نحو عادل وأسر في أذنه بطلب والدتـــه .

ردد عــادل بوجـــوم :

ـــ طيب طيب ، ولكن اذهب واحمل بقية الفراش مع شحــادة .

وكانت نوار تملأ الحقائب بالملابس وتصفها أمام الباب والجندي يتأملها بعين لا تطرف .

واقترب أبو النوف وقال لعادل همسا :

ـــ الوالدة تقول : لا تنس الألة .

هز عادل رأســه

ـــ طيب طيب ، ولكن احمل فرن الغاز مع ابو بدوي ولا تدعه يحمله وحده .

كان يرفض تلقائيا التفكير بالالة وأمر انقاذها . كلما واتته الفكرة وجد نفسه يبتعد بعقله كليا عن الموضوع .. احمل هذا ، احمل ذاك . اهبط الدرج ببطء كي لا تتدحرج وتكسر رأسك . لالا ، ليس هكذا ، اقلب حديد السرير على سيفه فهو لن يخرج من الباب وأنت تحمله بالعرض . ضع الاكواب في صندوق الخضار هذا ، وكذلك الصحون . حاذر ، احمل معه يا صبحي . دعني أساعدك . لا تحملوا الكنبات الصوفية . الجلدية فقط . لسنا بحاجة الا للاشياء العملية وبقيـــة الكماليات اتركوها ، دعوها تنســفه مع الدار . الضروريات فقط ، الضروريات . وانت يا نوار . الملابس الضرورية فقط أرجوك . ماذا ؟ لم يبق لديك حقائب فارغة لا بأس املأي الشراشف واربطيها صررا . ساعدها يــا شحادة الله يرضى عليك . نعم يا أخي . الناس للناس واللا كيف .

صاح الجنــدي : لم يبق الا عشرة دقائق .

وفكر بالالة ثانية ، لكنه عاد وطرد الفكرة من راسه وأخذ

يذرع الدرج صعودا وهبوطا مرهقا بذلك جسمه وعقله ... لن آخذها ، بل آخذها . لن آخذها ، بل آخذها . وصاح أحدهم . امسك امسك .. ستقع الخزانة يا رجل ؛ وكمن يسمع نداء الرب أسرع نحو الخزانة وحشر نفسه تحت ثقلها وحاول أن ينسى . وكانت ثقيلة ، وأحس بظهره يتفصد عرقا، وعظام كتفيه تطقطق تحت الثقل الباهظ . وصاح الرجال : ارفع ، ارفـــع .

وهدر الجند : ياللا انتهى الوقت ، ياللا ، أسور تطلع الدرج يا أدون . انزل انزل . ياللا ...

الالة ، كلية الوالد . هل أقول للضابط ؟ سيؤخرون النسف بضع دقائق ريثما أخرجها . ولكن لو كنت أبغي اخراجها فلماذا لم أخرجها منذ البداية ؟ كن حازما يا عادل . كن حازما ولو مرة واحدة في حياتك . العواطف لا تجدي . وتقتل رجلا؟ تقتل والدك ! الرجال دائما يقتلون . لو بقي هو نموت نحن .. انا ونوار والاطفال . الا يكفي ما فقدناه ! أسامة وباسل وميراث الاجداد . دفاعا عن النفس . دفاعا عن الحق في الحياة الكريمة . دعه يموت . بل دعه يعيش . أنقذه تنقذ روحك من دمار الجريمة .

واندفع نحو الضابط وهز كتفه بيده . التفت الضابط . تأمل وجهه الغريب بدهشة . هذا الوجه ! هذا الرجل ! أتذكر يا أبو الشباب حين حملته على كتفك ؟ نزعت نجومه وحملته . فقد حملت انسانا حينذاك . واحسست بانسانيتك تتسع ، تتكثف . من خلال انسانيته تدفقت انسانيتك . والوالد حملتـــه ، طويلا . وعندما أصبح وجوده يهـــدد انسانيتك ...

وجه هذا الضابط .. هذا الوجه كوجه أبي ، لا فرق كبير بينهما .

وسأله الضابط :

— أتريـــد شيئـــا ؟
هز رأسه نفيــا وتذمـــر
— متى تنسفونها ؟

وتأمل الدار من خلال ضباب . للمرة الاخيرة . ولن ترى مسقط رأسك بعد الان .هذه الادراج كم قطعتها حبوا . زحفا . قفزا . والساحة السماوية أعلاها . والبركة واصص الرخام . والامسيات الجميلة تحت الليمونة مع الاقارب والاصدقاء . أمسيات . ذكريات . وهل ينسى الانســـان ذكرياته بسهولة ؟ وهذا الحنين الذي يشدك الى الماضي . سلاسل . سلاسل من الفضة والياسمين . لكنها سلاسل .

وهبات ريح شرقية عبر الجسر محملة بالغبار . ويبتعد الرجال ويقفون بعيدا يرقبون البناء المحتضر بأعين حزينة . وماذا يملك الانسان في ساعة الغفلة الا الحزن ؟ ويد تشـــد ذراعه . يد أبو صابر المصابة . وابتسم بمرارة . . . نحن في الهم سواء . أنت فقدت . وأنا فقدت . كلنا فقدنا . ولكن يظل هناك أمل في أن ينال الابناء ما لم ننله . لا تذرف الدمع يا ابو صابر . هذا البناء لا يساوي أصبعا من أصابعك . وتمتم ابو صابر مجهشا . . أنتلا تستحق هذا يا ابو الشباب . وأينا يستحق ؟ ولكن تظل هذه الكنية مصدر العزاء وسر التجلــــد .

علام البكاء ! فقدنا الكثير . ولكن ما زلنا نملك الكثير . وهذا ابنك أصبح نخلة . طويل القامة . واسع الصدر . عريض المنكبين . وعيناه . أنظر هاتين العينين . فيهما تمتد آفاق الغد بدون حدود .

— ولا يهمك يا بو الشباب . سنبني واحدة جديدة . سنبنيها معا . واحدة لا تؤثر فيها الالغام .

وانفجــرت الالغام . وتزعزع البناء . وبدأت الحجارة تتساقط من السماء . وانطلقت زغرودة . زغرودتان .

عشرة . مسيرة .

وصاح ابو صابر بصوت مخنوق .. الله أكبر يا رجال .

ورد الاخرون : الله أكبر . قل يا عادل الله أكبر .

خذ نفسا طويلا . الدموع . الغبار . الضباب . ورائحة الليمون المحترق في جنبات الساحة المحطمة . والجنود في سياراتهم الداكنة يتبخترون. وتسري في الاعماق رعشة التمرد والنقمة . لست من الطغاة لكنني ناقم . ناقم حتى الثمالة . وهذه الجموع الذليلة . وانت يا بو الشباب اله الصبر والنقمة . وما أسوأ أن تعي بأنك اله قاصر عن تحقيق ذاته وذوات الاخرين . وتستمر عملية الارتفاع والهبوط . ارتفاع الهي نحو قمة عيبال . وهبوط طحلبي في مجاري الوادات وترسبات العفن . وتبحث عن نفسك في كل العيون . وتجد صورتك معكوسة في أعين الجياع والمراة وسكان الخيام . والعواصف تقذفك في كل اتجاه . وتنتفض ارادة الحياة في صدرك بتمرد غريزي . والطاقات في عقلك وقلبك تتكثف ولا تجد منفذا تنطلق منه . وتحترف الحزن والكبت والانتظار . ولكن ! ما زال هذا العقل ينبهك من سكرة الغفلة . وعواطفك تصطخب هادرة مزمجرة وقد أعيتها صمامات الضغط وأجهزة القمع .

لو انك تعرف كيف تبدأ . يا بو الشباب ! لو انك أكثر طغيانا واغلظ قلبا لنسفت كل ما تطاله يدك من المحيط الى الخليج الى أقصى أصقاع الارض . ولا تبقي حجرا فوق أخيه . وتسحب . تسحب الاشجار من جذورها ، وتعرض الاوبئة في الاعماق لنور الشمس وأنسام الربيع . وتقلب الارض عاليها سافلا . ثم تبدأ من جديد . على مهلك . على مهلك . هنا شتلة . هنا شجرة . هنا زهرة . وانت يا صابر . يا نخلة طويلة القامة عريضة المنكبين . وهذه الايدي تقتلع الصخر من بطون الارض وأفئدة الجبال .

والحجارة تأتلق خامات ماس . نلونها . نزوقها . ونبنيها بيوتا بامتداد الافق وباحات الازل . ولتصفر الالات في أيدي الجنود . فلن نسمع . الا صفير الناي في كل المراعي . ولتسبح الاغنام في أمواج خضرة مرج ابن عامر . ويعم في الارض السلام . وتنساح في الناس المسرة . وتمتد اكف الصبر من محاجر عيبال حتى صنوبر جرزيم .

وانفض الرجال . وهبطت النسوة عن الاسطح . وانسل من بين الجموع . مشى في الازقة يلتمس طريقه نحو الدوار .

على الرصيف . يتأمل الناس يروحون ويجيئون . يعيشون حياتهم اليومية بصمت وصبر .

لا شيء تغير في هذي المدينة . الدوار ما زال مكانه . وساعة الدوار ما زالت تمشي ببطء . لكن الازهار نمت واستطالت . ولا شيء تغير .

رائحة البن المحمص . وصدور الكنافة . ومداخن الصبانات تطلق سحاباتها فوق الاسطح العتيقة . والناس يشترون ويأكلون ويبسمون .

ومشى صامتا . واخترق الشارع الرئيسي في صدر المدينة . وكان الباعة ينادون : غزاوي يا سمك . يافاوي يا بردقان . ريحاوي يا موز . . وصاجات بائع السوس والخروب توقع أنغاما راقصة . وبائع الجرائد ينادي : القدس . الشعب . الفجر . كيسنجر يبشر بحل القضية . وفريد الاطرش ما زال يندب يوم مولده الشقي . والناس يشترون خبزا وخضارا وفواكه .

انتهى الجزء الاول

تصور هذه الرواية فترة حرجة
من حياة شعبنا في الضفة الغربية
هي الفترة التي سبقت حرب تشرين
١٩٧٣ ، وتتناول بصدق وجرأة
علاقات المجتمع من خلال تداخلاتها
اليومية في حياة الأفراد وأنماط
التفكير ، لتؤكد أن الهزات التي
تصيب الشعوب إنما تطيح
بالأبنية الاجتماعية المهترئة
لتنهض من بعدها أفكار
وعلاقات جديدة تحملها أجيال
وطبقات جديدة .

منشورات جاليليو
الثمن ٢٠ ليرة

